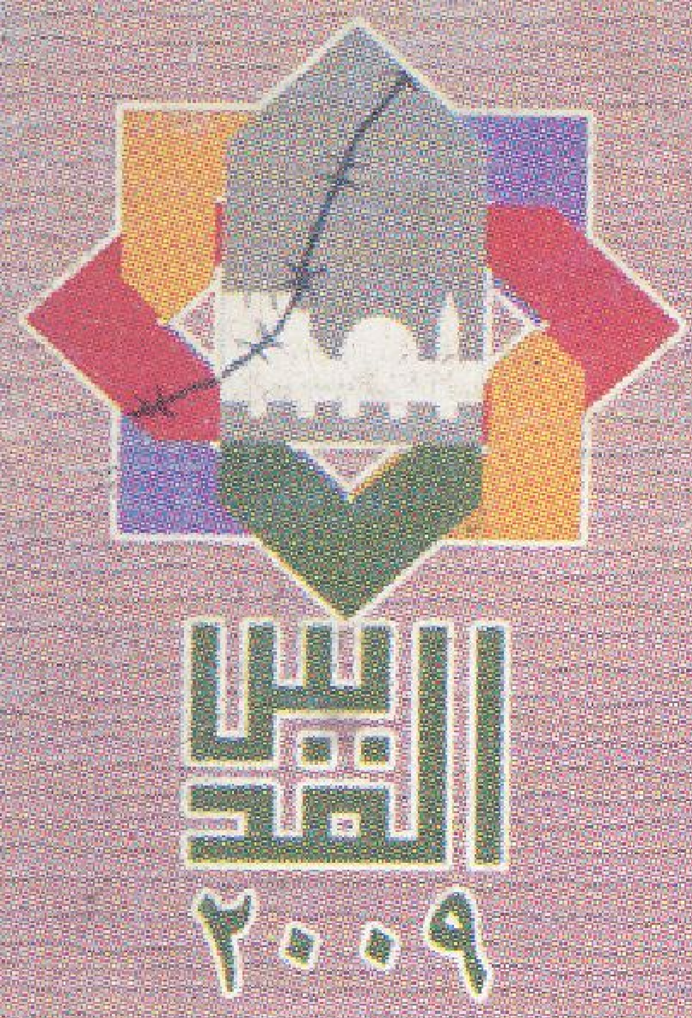


وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي

تأليف
د. يوسف درويش غوانمه

تقديم وإعداد وضبط:
خيري الذهبي

آفاق ثقافية مقدسية

الكتاب الشهري ٧٦

تاريخ نيابة بيت المقدس
في العصر المملوكي

آفاق ثقافية مقدسية

تاريخ نيابة بيت المقدس
في العصر المملوكي

تأليف
د. يوسف درويش غوانمه

تقديم وإعداد وضبط
خيري الذهبي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

آفــاق ثقافيــة مقدسية

العــدد (٧٦)

آب ٢٠٠٩

طبعت الطبعة الأولى عام ١٩٨٢

المماليك والقدس

خيري الذهبي

حين أمر عز الدين أيبك التركماني، والقائد العسكري الأكبر في الجيش المصري الأيوبي أيام السلطان الأيوبي نجم الدين الصالح أيوب، حين أمر بفتح الترع والقنوات المتفرعة من النيل ليقطع على الجيش الصليبي الفرنسي الذي يقوده الملك الفرنسي لويس التاسع والذي سيقدسه الفرنسيون فيما بعد تحت اسم القديس لويس.

حين أمر عز الدين أيبك بفتح الترع والقنوات على الجيش الفرنسي الذي توغل من دمياط بعد فتحها وكان في مخططه أن يحتل القاهرة ومصر، وبذا سيكسر ظهر الأمة العربية الإسلامية وسينهي الحروب الصليبية التي كان صلاح الدين قد أوقف زخمها وهجمتها في معركة حطين، وحوّلها من هجومية

إلى دفاعية حتى كان لويس التاسع وحلمه بتكرار تجربة ملك القدس الصليبي بولدوين أيام الفاطميين في القضاء على مصر، ثم إفشال الشام لمخططه حين أرسل نور الدين بجيشه الشامي بقيادة أسد الدين شيركوه، وأخيه نجم الدين أيوب وابنه الفتى يوسف والذي سنعرفه فيما بعد باسم صلاح الدين.

طرد الجيش الشامي الفرنجة من مصر وورث صلاح الدين الفتى منصب الوزارة في مصر عن عمه شيركوه الذي توفي بعد ثلاثة أشهر من تسنمه منصب الوزير الأكبر في مصر، ثم تداعت الأحداث، فمات الخليفة الفاطمي المتداعي الصحة وتهاوت الخلافة الفاطمية المتداعية بعد خلفاء ضعاف ووزراء فاسدين وصل آخرهم (شاور) حد الاستعانة بالصليبيين ودفع الجزية لهم و.....صار صلاح الدين سلطان مصر ثم سلطان الشام بعد وفاة نور الدين محمود زنكي، ثم كانت معركة حطين التي استنفذت القدس من الصليبيين، وقصمت ظهرهم مرة واحدة وإلى الأبد وإن بقيت جزر صغيرة لهم هنا وهناك في بعض المدن الساحلية وفي بعض القلاع المستعصية.

حين قدم لويس التاسع إلى عكا وكانت تحت الاحتلال الصليبي قدم ومعه حلم كبير بالقضاء على الإسلام واستعادة

الشرق الأوسط كاملاً إلى النير الأوربي بيزنطة وقبلها روما، وكان هناك إشاعة غامضة تتحدث عن ملك مغولي كبير (خاقان مسيحي) يحكم الشرق كله، وكان اسمه حسب الإشاعات بريستر جون، أو الراهب يوحنا.

أرسل لويس التاسع عم ماركوبولو وأباه وماركوبولو في رحلة إلى ذلك الخاقان الغامض يعرض عليه التحالف للإطباق على الدولة الإسلامية، من الشرق المسيحي كما كان يعتقد، متعاوناً مع الغرب المسيحي بقيادة لويس التاسع وكانا كافيين للقضاء على هذه الشوكة، ولكن تلك الرحلة إلى أقاصي آسيا استغرقت عشرين سنة توفي فيها عم ماركوبولو وأبوه، ولم يعد من أولئك الرسل المغامرين إلا ماركوبولو ليترك لنا سيرة عن رحلة ناست بين الفانتازيا والوقائع التاريخية، ولكن أجمل ما فيها هو أن الخاقان المغولي لم يكن مسيحياً، ولم يفهم الدعوة إلا التحالف، ولكن الهدية التي حملها له آل ماركوبولو وكانت كنيسة من خشب نفيس تقبلها الخاقان على أنها هدية ولاء من الرجل الغربي البعيد وكتب له رسالة يقره فيها على ملكه!!!

حين فتحت الترع النيلية على الجيش الفرنسي والمؤلف أساسا من فرسان ثقيلين مدرعين دروعاً تلفهم من أخمصهم

إلـى أقـدامهم بالحديـد، فتـثقلهم وتثقـل خيـولهم المدرعـة أيـضا بحيث كـان الفـارس وفرسـه دبابة معاصـرة عـصية علـى الـسلاح الأبـيض العـادي الـذي عرفـه المـسلمون المـسلحون بالـسيوف الخفيفة والرماح الخفيفة والملتقين بدروع من زرد لينـة تتجاوب مع حركتهم ولكنها لا تحميهم الحماية التي يحميها الدرع الثقيل لفارسـه الفرنجـي الـذي كـان مـضطراً حتـى يعتلـي فرسـه أن يحمـلوه علـى (سيبه) أو بكـرة ترفعـه عـن الأرض لتـضعه علـى ظهر الحصان القوي والثقيل الحركة، أما رمحه فكان مـا يـسمى بأدبيـات الفتـرة بالقنطاريـة وهـو رمـح قـد يـصل طولـه إلـى عـدة أمتـار ورأس فـولاذي يكتفـي الفـارس بتوجيهـه إلـى خـصمه والاندفاع باتجاهه بقوة فإن أصابه اقتلعه وحطمه و...أو أسـره، إذ كان الفارس الساقط يقع مثل السلحفاة المقلوبة على ظهرها.

لذلك حين فتح أيبك الترع والقنوات علـى الجيش الفرنـسي القوي والمنتصر على المدافعين عن دمياط، و...الثقيل جداً بـين بـراثن المـاء والوحل والتـرع قـبض المـصريون عليهم جميعـاً مثـل عـصافير في الـشبكة، وكـان علـى رأسـهم لـويس التاسـع نفـسه والـذي اضـطر أن يفتـدي نفـسه وقـواده وجيـشه بفديـة كبيـرة أثقلت فرنسا بالديون لعقود.

و...انتهى لويس التاسع في موته محموماً في غزوة تالية لتونس إذ لم يستطع مهاجمة مصر ثانية فقد أعطى وعد الفرسان بألا يهاجم مصر من بعد.

هذا النصر المفاجأة الكبير على الدولة الأشد عداوه وعدوانية في ذلك الحين فرنسا ولويس التاسع المتعصب حتى الحماقة، هذا النصر كان ورقة الاعتماد الكبرى لأيبك والمماليك الذين كانوا من حوله، وكان على رأسهم قطز وبيبرس وأقطاي وأيدمر وسنقر إلى آخر تلك الأسماء الغريبة والتجربة التي لم تتكرر في العالم كله إلا في الهند الإسلامية.

في ذلك الوقت نفسه كانت قوى الشرق أو يأجوج ومأجوج، أو العنصر المغولي، قد استيقظت من سبات طويل على يد جنكيز خان، واصطدمت بالحضارة الإسلامية حين قضى جنكيز خان على دولة خوارزم الإسلامية، واستولى على دول آسيا الوسطى الإسلامية، ثم وصل إلى ما يسمى الآن بإيران على يد حفيده هولاكو الذي طلب معونة بغداد للقضاء على قلاع الاسماعيليين في آله موت وقهستان وقلاع كثيرة أخرى ولكن خليفة بغداد المتخاذل والضعيف تماوت، فهو لم ينصر الاسماعيليين القلاع الأولى في وجه يأجوج ومأجوج، ولم يرتكب الخيانة الكبرى

فيعين هولاكو عليهم، فكان أن ترك هولاكو يقضي على قلاع الاسماعيليين، ثم يقضي على بغداد في تلك المأساة التي يعرفها الجميع، ثم.... تحول إلى الشام فتساقطت المدن يستسلم بعضها دون حرب ويقاتل البعض فيدمَّر، واستسلمت دمشق واستولى عليها دون حرب، ثم وبعد القضاء على لويس التاسع في مصر وقدوم ابن نجم الدين أيوب توران شاه لاستلام العرش في مصر بعد وفاة أبيه وإخفاقه في التفاهم مع الأقوياء الجدد المماليك وعلى رأسهم أيبك...قتله المماليك، وبعد تردد قصير سلطنوا زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان اسمها شجر الدر وسخر خليفة بغداد الذي لم يقض عليه هولاكو بعد من المصريين الذين نقصهم الرجال فسلطنوا امرأة، فخجل أقوياء مصر، وزوجوا شجر الدر من زعيمهم عز الدين أيبك التركماني وجعلوه الحاكم ولكن مشاكل عائلية تثور بين الزوجين الجديدين، فتقتل شجر الدر عز الدين أيبك في الحمام، ثم يقتلها مماليكه، وهكذا تجد مصر نفسها أمام ما يسمى بفراغ في الحكم، و.......يصل هولاكو إلى دمشق ويصل رسله إلى مصر يطلبون التسليم وإلا فالخراب، ويتداعى المماليك ولا حاكماً أيوبياً جدير بالحكم، فيعينون قطز تحت اسم المظفر ويجمع قطز الجيش المصري للدفاع عن مصر.

وصل رسول المغول في آسيا البعيدة إلى القائد المغولي هولاكو أن الخاقان الأكبر قد توفي وأن مجلس الشورى سينعقد لاختيار الخاقان الجديد فيترك هولاكو الشام ويصحب جيشه عائداً إلى منغوليا ولكنه يترك في الشام قائداً من قواده هو كتبغا ليقود ما تبقى من الجيش المغولي إلى مصر مستعيناً على النصرليس بالجيش الكبير وإنما بالرعب الكبير الذي استطاع المغول زرعه في نفوس العالم قاطبة.

ربما كان ما سمعه لويس التاسع من قبل عن بريستر جون وعن الخاقان المسيحي الكبير، ربما كان فيه جزء صغير من الصحة، فلقد استطاع المسيحيون السريان التبشير بالمسيحية بين المغول ونجحوا في ذلك إلى حد ما، ولكن ليس إلى حد اكتساب الخاقان نفسه، فقد كانت زوج هولاكو المسماة دوغوز خاتون مسيحية على المذهب السرياني، وكان كثيرون في بلاط هولاكو مسيحيين على المذهب السرياني؛ وكان كتبغا نفسه مسيحياً على المذهب السرياني.

التقى المماليك بقيادة قطز بالمغول بقيادة كتبغا، وكان قطز خوارزمي الأصل ليلتقي الخوارزميون بالمغول ثانية بعد دمار خوارزم. التقيا في عين جالوت، فانتصر المماليك على الجيش

المغولي وأبادوه إلا من استأسر وكان ممن أسر مملوك سيسلم وسيصبح بعد عدة عقود سلطاناً مملوكياً تحت اسم الملك العادل.

نصران كبيران أحرزهما المماليك في بضع سنين على اشد أعداء المسلمين في ذلك الحين، الفرنجة الصليبيين، والمغول. وتحول اسمهم فجأة إلى معادل للنصر وكانت ورقتا اعتمادهم هاتان كافيتين لإغماض عيون المسلمين عن أصلهم. فقبلوهم ملوكاً.

بعد نصر قطز بفترة قصيرة في عين جالوت سيعمد مملوك آخر هو ركن الدين بيبرس إلى اغتياله في رحلة صيد إلى الركض إلى معسكر المماليك يعلن انه قتل السلطان، فيسأل كبير المماليك: من القاتل؟ فيقول: أنا فيشير إلى العرش قائلاً: تفضل ياخوند - صاحب الجلالة - فالعرش لك، وهكذا تكرس مفهوم جديد للاستيلاء على الملك.

نظر بيبرس من حوله إلى الميراث الجديد بعد تعميده بالنصر، وبالقضاء على بقايا الأيوبيين في الشام ليجد أنه ليس الوارث للحكم فقط، بل الوارث أيضاً للعداء ما بين الشرق الإسلامي وأورية الفرنجية، وبين الشرق الإسلامي وآسيا

المغولية، وهكذا كان عليه، على بيبرس ومن سيأتي بعده قلاوون وأبنائه والمماليك الأتراك عموماً أن يرسخوا حكمهم مرة بالسيف، ومرة بالعمارة وكانت القدس الجائزة الكبرى للصليبيين الفرنجة.

القدس هذه المدينة التي أكبرها الأمويون فجعلوا شرعيتهم مستقاة منها وهي القبلة الأولى والحرم الثالث، فحاولوا جعلها عاصمتهم السياسية بديلاً عن دمشق إلا قليلاً، وجعلوها قبلتهم محجهم حين منعهم ابن الزبير من الحج إلى مكة والكعبة، هذه القدس التي بنى فيها عبد الملك بن مروان قبة الصخرة، والمسجد الأقصى ما إن جاء العباسيون حتى دفعوها إلى دائرة الخمول والنسيان كما فعلوا بكل ما يمت بصلة إلى أسلافهم الأعداء الأمويين.

وهكذا أمر المنصور أبو جعفر بانتزاع الذهب والفضة عن قبتها وأبوابها والتي زينهما بهما عبد الملك، ويقال إنه أمر بضربهما دنانير ودراهم للإنفاق على المسجدين. أما المأمون وهو الخليفة المتنور فقد أمر، أو نفّذ بإغضاء منه بتزوير النقش المكتوب على قبة الصخرة بعد ترميمها لتبدو حسب النقش المكتوب عليها وكأن المأمون من أمر بعمارتها.

ثم دخلت القدس في (الكوما) مثلها مثل دمشق ومدن الشام طيلة الفترة العباسية حتى جاء الفرنجة الصليبيون، فدمروا القدس وقتلوا أهلها من مسلمين ومسيحيين ويهود، ثم طرد صلاح الدين الفرنجة من القدس، و..جاء المماليك وما يزال الفرنجة يطمعون فيها، وهكذا وجدوا أن عليهم أن ينفخوا فيها الحياة فجعلوا من القدس نيابة.

وكلمة نيابة كلمة كبرى فهي إذن صارت مساوية لدمشق وحلب وحاكمها ليس موظفاً صغيراً، بل نائب السلطان.

أنشأوا فيها المدارس، وأنشأوا الخانقاهات. أنشأوا المستشفيات وجعلوا منها عاصمة.

موضوع كتابنا هذا والمهم في رأيي هو ما الذي أضافه المماليك إلى القدس، وكيف قدّسوها وجمّلوها، وصنعوا منها نيابة.

خيري الذهبي

الإهـداء

إلى الشعب العربي الفلسطيني أينما وجد. وإلى كل شهيد قضى على تراب فلسطيننا الحبيبة. وإلى قدسنا الصامدة التي وقفت شامخة تتحدى المعتدين والغاصبين واحتفظت بعروبتها على مر العصور. وإلى أمتنا العربية من المحيط إلى الخليج التي آن لها أن تصحو وتتحد وتحطم آفة الفرقة والخلاف.

أهدي هذا الكتاب، فإيماني بأمتنا العربية دون حدود

المؤلف

المقدّمة

تفتقر المكتبة العربية إلى دراسات متميزة عن بيت المقدس، فالدراسات عن تاريخ مدينة القدس باللغة العربية محدودة ومعدودة. ومن المؤسف أن المدينة لم تلق مثل ذلك الاهتمام الذي كانت تحظى به في العصور الوسطى حيث قامت دراسات ومؤلفات عديدة عن القدس وفضائلها وخططها وعلمائها. وعلى النقيض من ذلك نجد المكتبة الأوروبية زاخرة بعشرات الكتب عن مدينة القدس، حتى أنهم يقومون بإعادة طباعة كتب الرحالة الذين زاروا فلسطين والقدس في القرون الوسطى والعصر الحديث عدة مرات وترجمتها إلى لغات جديدة. ناهيك عن الدراسات والمؤلفات العديدة ذات الطباعة الأنيقة عن القدس، وهدفهم من ذلك إثبات ما يدعونه من حقوق في فلسطين الغربية.

ونسمع أحياناً نداء مبحوحاً لبعض كتابنا يتساءلون قائلين، لم هذا الاهتمام في التراث والكتابة في الماضي؟ فنحن أبناء

الحاضر والتاريخ هو ابن الساعة وأحداثها. وأقوال لأولئك، ان ما يربطني بأمتي ووطني هو تراث خالد منذ آلاف السنين، هذا التراث هو جذور الأمة في أعماق تاريخها، فالأمة التي لا جذور لها ولا تاريخ، ليس لها حاضر ولا مستقبل. فالتراث هو دراسة للماضي ونظرة أمل للمستقبل وبناء في الحاضر، ومن هنا يتوجب علينا الاهتمام بذلك التراث وتحقيقه، كي نعرف ماضينا والذي من خلاله نهتدي لمستقبلنا. فالقدس وبلاد الشام عامة كانت منذ فجر التاريخ مطمعاً للغزاة والمعتدين، ولكن أمتنا كانت الرابحة في كل العصور، وبقيت القدس عربية الهوية والطابع.

إنَّ التحدي الذي يواجهنا اليوم يماثل تحدي الفرنج لأمتنا في العصور الوسطى، وإن الحالة المريرة التي وصلت إليها أمتنا تشابه أحوال العرب والمسلمين في الماضي، تفرقة عنصرية ومذهبية وطائفية، وخلافات وانقسامات وصراعات سياسية وأطماع توسعية، ولجوء إلى العدو والتحالف معه ضد الإخوة والأهل، وتآمر ومؤامرات داخلية وخارجية، وانحلال خلقي، وتقاعس وإذلال ومهانة حتى ذبح الفرنج العرب والمسلمين في بيت المقدس ذبح الشياه. ولم يفق العرب والمسلمون من هول صدمة الاحتلال الصليبي إلا بعد أن قيَّض الله لهم القائد المخلص الذي نذر نفسه

للجهاد ولمّ الشمل وتوحيد الصفوف، فكان عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي. ولم ينتصر صلاح الدين ويحرر القدس إلا بعد أن وحَّد الجبهة العربية الإسلامية، وجمع الجيوش من مصر والشام والعراق وسارت تحت قيادة واحدة، وحدَّد هو زمان ومكان المعركة، فانتصر وأعاد القدس إلى حظيرة الحكم العربي الإسلامي. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى توحيد الجيوش العربية مصرية وشامية وعراقية، وأن تكون الجيوش العربية الأخرى ظهيرة جيوش المواجهة ترفدها بالمال والرجال والعتاد، عندئذ سيكون النصر حليفنا إن أخلصنا النية لبعضنا ولأمتنا الواحدة، إنَّ حاضرنا أسود مشين والتاريخ لن يرحم.

وتجدني في هذه الدراسة أسير في خط واضح بيّن، وهو إبراز أهمية القدس في تاريخنا الوسيط، وإهتمام السلاطين المماليك بها، حتى أنهم جعلوا منها نيابة مستقلة. وكان لها في نفوسهم موضعاً خاصاً[١]، فالسلطان قلاوون نعت نفسه في إحدى معاهداته مع الفرنج (بسلطان بيت المقدس) دليل افتخاره بهذه المدينة العريقة، ولكي يدلِّل على أهميتها ومكانتها في نفسه ونفوس العرب والمسلمين.

---

(١) كذا والأصح موضع خاص.

ودراستي هذه هي أول دراسة عن (نيابة بيت المقدس)، تناولت فيها تأسيس النيابة، وطرحت قضية خالفت فيها بعض المؤرخين، وهو ما يتعلق بتأريخ التأسيس: ثم عن دار النيابة ومتى أصبحت المدرسة الجاولية داراً للنيابة ومكان سكنى لنواب القدس، وكان هذا هو الفصل الأول.

أما الفصل الثاني فقد جعلته للحديث عن الوظائف في نيابة بيت المقدس فتحدثت أولاً عن الوظائف العسكرية كنائب السلطنة ونائب القلعة ووالي المدينة والحاجب والدوادار. وكانت نيابة بيت المقدس تشتمل على ثلاث ولايات هي: ولاية الخليل وولاية نابلس وولاية الرملة، وفي أحيان كانت نيابة بيت المقدس تشتمل أيضاً على الصلت ومنطقة الأغوار. وكتشريف خاص فقد كانت[1] النائب يجمع بين النيابة ونظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل، ثم تحدثت عن الوظائف الدينية والديوانية في النيابة. ولم أغفل جيش النيابة، فجعلت الحديث عنه في فقرة خاصة، فأوضحت أنَّ جيش النيابة بالإضافة إلى ذوده عن المدينة المقدسة ضد الأخطار التتارية والفرنجية، فقد اشترك في قمع الفتن في بلاد الشام، واشترك مع الجيش المملوكي في حرب العثمانيين وذلك في أواخر دولة المماليك الثانية.

---

(١) كذا والأصح كان.

وخصصت الفصل الثالث للحياة الاقتصادية في نيابة بين المقدس، فتحدثت عن نظام الإقطاع في النيابة بخاصة وفلسطين بعامة. ثم تحدثت عن المحاصيل الزراعية في النيابة، وعن الفلاحين ومعاناتهم الاجتماعية والأساليب الزراعية المتَّبعة آنذاك. وكان للتجارة الداخلية والخارجية نصيب كبير حيث تطرقنا لأسواق بيت المقدس والرملة والخليل ونابلس، والسلع التي تباع فيها. وكان للسياحة أهمية وتأثير في التجارة الداخلية، حيث يفد الزائرون من مسلمين ونصارى ويهود إلى القدس للزيارة، فتقام لهم الأسواق الخاصة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم، وتعود بالنفع على تجار تلك المدن والمناطق المجاورة. واهتم المماليك بهؤلاء السياح الأجانب وخصصوا لهم تراجمة (أدلاء سياحيون) يساعدونهم ويرشدونهم في زيارة الأماكن المقدسة. وقد وفرت الدولة لهم كل وسائل الراحة، وتمتعوا بالحرية التامة والخدمات الصحية العالية، وعرفت المدينة المقدسة ما نسميه الآن (بالتأمين الصحي) لهؤلاء السياح والزائرين. وكانت حركة التبادل التجاري مع الدول الأوروبية قائمة، فأصبح الساحل الشامي والفلسطيني في العصر المملوكي باب الشرق على الغرب. وكانت لفلسطين علاقاتها التجارية مع الدويلات الإيطالية وأقيمت الوكالات في كل من يافا والرملة وعكا وبيت

المقدس، حتى أن بعض الشركات الإيطالية وجد لها فروع في بيت المقدس. وتطرقنا للحديث عن الأوزان والمكاييل وكذلك عن الموارد المالية في النيابة كالمكوس والخراج والجوالي ومتحصل كنيسة القيامة والأوقاف التي أدَّت خدمات دينية وإنسانية وإجتماعية وإقتصادية وثقافية كبيرة.

أما الفصل الرابع فقد خصصته للحديث عن النشاط السكاني والمؤسسات الاجتماعية في النيابة، فتحدثت أولاً عن الديموغرافية وعناصر السكان، وقمت بدراسة سكان المدينة المقدسة وتحديد عدد سكانها، وأشرت إلى حدوث تخلخل في عدد السكان نتيجة للظروف السياسية والحربية والطبيعية التي مرَّت بالمدينة المقدسة. أما عن عناصر السكان فكانوا في معظمهم مسلمين ونصارى، أما اليهود فكانوا قلَّة، ففي فترة الاحتلال الصليبي للقدس لم يكن فيها يهودي واحد، ولكنهم بلغوا في أواخر العصر المملوكي خمسمائة يهودي. ثم تحدثت عن طبوغرافية المدينة فذكرت حاراتها وشوارعها ودورها ونظام بناء تلك الدور، أما مؤسساتها الاجتماعية فقد قمت بدراسة البيمارستانات في القدس والخليل والرملة، وتطرقت في الحديث إلى الحمامات ونظامها ووظائفها.

وأفردت الفصل الخامس والأخير للحديث عن الحياة العلمية في النيابة، فكان الحديث أولاً عن إزدهار الحركة العلمية في القدس، وكيف أصبحت مركز إشعاع علمي وحضاري في العصر المملوكي. وتعرضت إلى المدارس ونشوء المدرسة في الإسلام وباعتقادنا أن المدينة المقدسة كانت من أوائل المدن التي شهدت المدرسة في الإسلام. ثم تحدثت عن مدارس القدس بادئاً بتلك الموجودة داخل الحرم ثم بتلك الموجودة خارجه وما زالت، مهتدياً بفهرس المهندس بورغوين من المدرسة البريطانية للآثار في القدس.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أوجه كلمات الشكر لكل من قدم لي يد العون والمساعدة أثناء اعدادي هذا البحث، وأخص بالذكر صديقي محمد محمود طه وزوجته، الذي استضافتي في رام اللّه وكان وزوجه مثالاً كريماً نبيلاً. وأقدم الشكر كذلك لكل العاملين في دائرة الأوقاف بالقدس والمتحف الإسلامي الذين سهلوا مهمتي عندما سافرت إلى القدس صيف عام ١٩٨٠م، وخصوصاً الأستاذ مروان أبو خلف الذي مكنني من الإطلاع على وثائق المتحف الإسلامي، والسيد عبد اللّه كلبونه من قسم الآثار الإسلامية في الحرم والرسام والخطاط عبداللّه العزة والرسام

مرشد الجمل. ولن أنسى ما قدمه السيد رمزي أبو غربية (أبو جلال) من مساعدة ومصاحبته إياي في زيارة الأماكن الأثرية في المدينة، فله شكري الخاص لما عاناه من تعب ومشقة في تنقله معي في طقس شديد الحر. وأقدم الشكر لزوجتي التي رافقتني في رحلتي للقدس، وكانت عوناً لي في مرحلة الاعداد والكتابة. وأخيراً أقدم الشكر للدكتور جون ولكنسون (John Wilkinson) مدير المدرسة البريطانية لعلم الآثار الذي سمح لي الإطلاع على مخطط المدرسة الجاولية (دار النيابة) وزودني بنسخة منه.

* * *

الفصل الأول
النيابة وتأسيسها

---

١ - تأسيس نيابة بيت المقدس.
٢ - دار النيابة.

(١)
تأسيس نيابة بيت المقدس

تمكنت دولة المماليك الناشئة في مصر من بسط سيطرتها على بلاد الشام بعد إنهيار المقاومة الأيوبية . وتصديهم للتتار وتدمير قواتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . فورث المماليك والحالة هذه أملاك أسيادهم الأيوبيين، وتشكلت في بلاد الشام ست نيابات قامت على أنقاض الممالك والإمارات الأيوبية التي كانت قائمة فيها . ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعا للظروف التي كانت توجب إقامتها، وهذه النيابات هي : نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة الكرك، ونيابة صفد[١] .

---

(١) القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، ج٤ ص٩١ . ١٨٠ . الخالدي . كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة . لوحة٧ .
cohen & Lewis,
Population and kevenuc in the towns ofpalcsline in the Sixtecnth Ccntury. Princcton. 1978. P. 9.

ولكن الناصر محمد بن قلاوون أقام نيابة جديدة في غزة[1]، وعيّن عليها الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي (ت٧٤٥هـ) نائباً[2]، وأضاف إليه ولاية القدس والخليل، نابلس وقاقون ولد والرملة ونظر الحرمين الشريفين[3]. وعهد إليه مهمة توصيل الماء من الخليل إلى القدس والقيام ببعض المنشآت في القدس، ثم ندبه في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) لعمل الروك في الشام[4]. وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد ندبه قبل ذلك لتعمير مدينة الكرك، فبنى فيها سنة ٧١١هـ (١٣١١م) جامعاً

---

(١) أبو المحاسن. النجوم الزاهرة. ج٩ص٣٦. ويقول أبو المحاسن (حتى أن مدينة غزة هو الذي مصرّها وجعلها على هذه الهيئة. وكانت قبل كآحاد البلاد الشامية. وجعل لها نائباً وسمي بملك الأمراء. ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة) (ج٩ ص١٩٣).

(٢) ابن حبيب. درة الأسلاك في دولة الأتراك. ج١ لوحة ٩٨ (مخطوط)، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، ج٩ ص٣٦.

(٣) أبو المحاسن. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط)، الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. ط مكتبة المحتسب. عمان. ١٩٧٣ ج٢ ص ٢٧٢.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٣٦.
الروك: كلمة قبطية تعني قياس الأرض وحصرها في سجلات وتثمينها أي تقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها.
(النجوم الزاهرة ج٩ حاشية (ص٤٢).

ومدرسة وبيمارستانا وحماماً وداراً للنيابة[1]. وكان القدس قبل أن يتولاه علم الدين سنجر الجاولي نيابة صغيرة تابعة لدمشق، وممن تولوا نيابته الأمير كراي المنصوري في عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م)، وقد قدم هذا الأمير المساعدة للناصر محمد بن قلاوون أثناء ثورته بالكرك وسار إلى دمشق بقواته مناصراً السلطان[2]. ونتيجة لذلك كافأة الناصر محمد فعينه نائباً للشام سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) ثم عزله وسجنه وبقي في السجن إلى أن توفي بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٧١٩هـ (١٣١٩م)[3].

وهكذا فإن نيابة القدس كانت تابعة لنائب دمشق إلا أن الناصر محمد بن قلاوون ربطها بنيابة غزة، وأصبح نائب غزة هو نائب القدس وناظر الحرمين الشريفين. إلا أن الناصر محمد بن قلاوون ربط جميع نواب الشام بنيابة دمشق في سنة ٧١٤هـ (١٣١٤م)، وجعل مكاتبة النواب إليه تتم عن طريق نائب دمشق الأمير تنكز بن عبدالله[4]، وقد رفض بعض الأمراء هذا الإجراء

---

(١) أبي حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ص٢٦٦.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٢٥٨, ٢٦٨.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص ٣٣، ٣٤٥.
(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٣٨.

ومن بينهم نائب غزة الأمير علم الدين سنجر الجاولي (لأنه كان يظن أنه يتقدمه وسابقته لا يتقدم عليه تنكز)[١]. عندئذ انتزعت منه نيابة القدس، وعندما حاول الهرب إلى اليمن اعتقله السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) وسجنه في الإسكندرية، وبقي في السجن حتى أطلق سراحه سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٨م) حيث عفا عنه وأمّره، جعله في أمر المشورة[٢]. ومما يؤكد إن نيابة القدس انتزعت من الجاولي وضمّت إلى دمشق أنّ الناصر محمد ابن قلاوون زار القدس سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) وطلب من الأمير تنكز نائب دمشق أن يلقاه بالإقامات وليكون في استقباله هناك[٣]، وكانت التولية في معظم وظائف نيابة بيت المقدس تتم من قبل نائب دمشق[٤]. وبقيت على هذا الحال حتى أصبحت نيابة مستقلة كغيرها من نيابات بلاد الشام. وقد تضاربت الآراء حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه نيابة مستقلة، ثم ماهي الأسباب التي دعت السلاطين المماليك إلى جعلها كذلك؟

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ص ٢٦٧.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة. ج٢ ص ٢٦٧.

وأنظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٩٠.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٥٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.

فالنصوص التي لدينا متضاربة فأبو المحاسن ذكر أن الأمير كراي المنصوري كان نائباً للقدس سنة ٧٠٩هـ(١٣٠٩م). وابن حبيب وأبو المحاسن ومجير الدين الحنبلي ذكروا أن الناصر محمد ابن قلاوون ولَّى الأمير علم الدين سنجر الجاولي نيابة غزة (ونظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام) بحدود سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م)(١). وذكر مجير الدين أيضاً أن الأمير تمراز المؤيدي كان يتولى هذا المنصب في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)(٢). وفي سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) تولاه الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري، أما الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر فكان متولياً لنيابة بيت المقدس في سنة ٧٨٩هـ (١٣٨٧م). وذكر أيضاً أنَّ الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن تولى النيابة في سنة ٧٩٣هـ (١٣٩٠م)، ثم شغل هذا المنصب في سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) الأمير بلوى الظاهري، وفي

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية، ج١ لوحة ٩٨. أبو المحاسن، المنهل الصافي، ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط)، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٢.

(٢) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٢. وأنظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٥ ص٣٨٨.

السنة التالية ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) تولاه ثلاثة أمراء هم: الأمير جانتمر الركني الظاهري، وفي جمادى الأولى منها تولاه الأمير قردم الحسيني بأمر من السلطان برقوق[1] ثم تولاه الأمير شهاب الدين أحمد اليغموري[2].

أما الخالدي فذكر في كتابه المقصد الرفيع المنشأ أن نيابة دمشق فيها ست نيابات هي: نيابة القدس، ونيابة صرخد، ونيابة بعلبك، ونيابة حمص، ونيابة عجلون، ونيابة مصياف. ولكن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه في سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥هـ)، وفيما بعد صار متوليها من الأبواب الشريفة في القاهرة، ويضاف إليه الرملة ونابلس[3].

ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى أن النيابة في بيت المقدس استحدثت في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) ونيابتها أمرة طبلخاناه، وجرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس والخليل[4].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣ ص٨١٢.
(٢) الحنبلي، المصدر السابق، ص٢٧٢.
(٣) الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ. لوحة ١٤٧ (مخطوط).
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ص ١٩٩.
أمير طبلخاناه: هو الأمير الذي يكون بخدمته أربعون مملوكاً، وتدق بابه بعد صلاة المغرب كل يوم ثلاثة أحمال طبلخاناه ونفيران وتوقد المشاعل. والطبلخاناه تعني الفرقة الموسيقية السلطانية وهي مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في الدولة المملوكية. (ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣).

ولكن المقريزي يذكر في أحداث سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، ان السلطان برقوق أنعم في جمادى الأولى من هذه السنة على (قردم الحسيني بنيابة القدس)[١] بينما كان في غزة في طريقه لمحاربة التتار بقيادة تيمورلنك الذي أخذ يضغط على الحدود الشرقية للدولة المملوكية[٢].

ومن المعروف أن المماليك ورثوا عن أسيادهم الأيوبيين مهمة الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، وخاض سلاطينهم معارك طاحنة ضدهم، حتى تمكن السلطان الأشرف خليل من فتح عكا آخر المعاقل الصليبية في فلسطين[٣]، وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الفرنج نهائياً سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١)م. ولكن الصليبيين لم ييأسوا، بل أخذوا يقومون بأعمال عدوانية ضد المماليك منطلقين من قبرص حينا، ومن الدويلات الأوروبية

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ق٢ ص ٨١٣.

(٢) المقريزي: نفس المصدر. ص ٨١٣.

(٣) المقريزي: السلوك. ج١ ق٣ ص٧٦٤ وما بعدها.

Atiya. The Crusade in the Later Middle Agcs, New York, 1970, P. 30.

يوسف غوانمه: تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، القسم السياسي، ص ١٣٤.

أحياناً أخرى. ثم زادت اتصالاتهم بالتتار، وصاروا يعملون على إقامة حلف معهم كي تبقى حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر(١)، ولتمكين الصليبيين من استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس، وفعلاً أقيم تحالف بين التتار والغرب الأوروبي ومملكة أرمينية الصغرى والقوى الصليبية في بلاد الشام لهذه الغاية(٢).

إذن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظل أملاً يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي فبعد سقوط عكا قاموا بحصار إقتصادي ضد المماليك، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية(٣). وأعنف هذه الغزوات، تلك التي شنها بطرس لوزجنان سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) على مدينة الإسكندرية، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة أيام، وقتلت ودمرت

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ق٢ ص٨١٣.

سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر ببيرس، سلسلة إعلام العرب، ص٧٥، ٨٩، ٩٥.

(٢) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٩٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣ ق٢ ص ٨١٣.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢ ص٥٢. Atiya, op, cit., PP. 36-38.

وأسرت الكثير من أهالي المدينة، وبعد أن تمّ لهم ما أرادوا غادروا الإسكندرية إلى بلادهم[1]. وفي سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الأسواق وحملوا معهم بعض الأسرى وقتلوا آخرين من سكان المدينة[2]. وهكذا دخلت الدولة المملوكية حرباً بحرية مع الفرنج، ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي أيَّده البابا وباركه.

ونتيجة لغزوة بطرس لوزجنان على الإسكندرية، استلزم الأمر ان يتولى الإسكندرية أمير كبير، كي يتمكن من الوقوف في وجه الأخطار الصليبية فولى السلطان الأشرف شعبان الأمير بكتمر الشريقي نيابة الإسكندرية (وهو أول نائب ولي نيابة الإسكندرية من النواب)[3].

---

(١) النويري الإسكندراني: كتاب الالمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطيه، الهند، ١٩٧٠م، ج٢ ص ١١٣.
المقريزي: السلوك، ج ٣ ق١ ص١٠٦ Atiya. ap clt., 354-366.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣ ق١ ص١٤٩.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١١ ص ٥٢.

(٣) النجوم الزاهرة، ج١١ ص٣٠. ويقول المقريزي (وهو أول من باشرها نيابة سلطنة). (السلوك ج٣ ق١ ص١١٥). وانظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ط دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٨٤، ١٨٥.

لقد أظهر المماليك تفهماً كبيراً للخطرين الصليبي والتتاري، واستعدوا لذلك، فالظاهر بيبرس أقام خطاً دفاعياً قوياً على الحدود الشرقية لدولته وشحنه بالرجال والعتاد وأحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة، كما أقام خطاً دفاعياً آخر يمتد من الشوبك والكرك جنوباً إلى أعالي الغاصني شمالاً، كي يقف في وجه الخطرين التتاري والصليبي معاً[1]. فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية، واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية. أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم إلى بلاد الشام والديار المصرية، ولكن سرعان ما تتصدى لهم القوات المملوكية فيعودوا القهقري إلى بلادهم، وان كانوا قد وصلوا إلى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م)[2]. ثم اجتاحوها مرة أخرى سنة

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٩٤.
أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص ٢٠٨.
يوسف غوانمه: تاريخ شرقي الأردن (القسم السياسي)، ص٥٧.
(٢) يقول المقريزي (امتدت التتر إلى القدس والكرك تنهب وتأسر).
السلوك، ج١ق٣ ص٨٩٠، ويقول أيضاً: (نهبت التتار الأغوار حتى بلغوا إلى القدس وعبروا غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلاً وعادوا إلى دمشق وقد أسروا خلقاً كثيراً). السلوك، ج١ ق٣ ص٨٩٦. وانظر: أبو المحاسن، والنجوم الزاهرة، ج٨ ص١٢٢.

٨٠٣هـ (١٤٠٠م) بقيادة تيمورلنك، وسفكوا دماء الكثير من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الأخرى ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فسلم من عبثهم وتدميرهم.

إن الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الصليبية وتحالفهم وتعاونهم من التتار إعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات، فغزوة القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) كان غرضها. الوصول إلى بيت المقدس عن طريق القاهرة[1]. وبعد فشلهم حوّل الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام، فهاجموا طرابلس ونهبوها، ثم هددوا بيت المقدس نفسه، حيث اجتاحت قواتهم يافا فرضة القدس على البحر المتوسط في سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م)[2]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تسللت قوات فرنجية إلى القدس نفسه عن طريق الحج[3]، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم.

---

(١) Atiya, op. cit., p. 357. ويذكر النويري الإسكندراني ان الذين اشتركوا مع القبارصة في غزوة الإسكندرية: البنادقة ١٤ غرابا، الجنوية ٧غرابين، الروادسة ١٠ غربان، الفرنسيسين ٥ غربان. (الإلمام بالأعلام، ج٢ ص٢٣٠).

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤ ق١ ص١٤٣.

(٣) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٣١٧.

ولما أدرك السلطان الأشرف شعبان عظم الخطر الذي يهدد بيت المقدس من الصليبيين، عمد إلى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه[1]، ولكن النيابة بقيت مرتبطة بنائب دمشق. وقد زوَّد السلطان نائب بيت المقدس بالقوات والعتاد كي يتمكن من صدِّ الأخطار التي تهدد البلد المقدس. إلا أن المقريزي ذكر في سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، أن السلطان الظاهر برقوق أنعم على الأمير قردم الحسيني بنيابة القدس، وذلك في غزة أثناء توجهه لمحاربة التتار بزعامة تيمورلنك.

وهذا النص الذي أورده المقريزي، هو أول إشارة صريحة عن تولية نائب لنيابة بيت المقدس من قبل السلطان في القاهرة، وسببه الخطر التتاري الذي أخذ يهدد دولة المماليك وبلاد الشام ويضغط عليها بشدة. إنَّ خوف الظاهر برقوق على المدينة المقدسة، دفعه إلى استحداث نيابة مستقلة فيها، كي تستطيع

---

(١) وقد أيد ذلك المؤرخان الخالدي، والقلقشندي معا، أما التاريخ الذي ذكره القلقشندي من ان نيابة بيت المقدس استحدثت في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)، فاننا لا نميل إلى الأخذ به، فمن دراستنا للأحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة، لم نجد فيها من الأمور الهامة التي دفعت السلطان لاستحداث نيابة في بيت المقدس، فلا يوجد ما يبرر هذا العمل.
(القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص ١٩٩،
الخالدي: المقصد الرفيع، لوحة ١٤٧ مخطوط).

الوقوف في وجه الأخطار الداهمة، تماماً كما فعل السلطان الأشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان للإسكندرية، فاستحدث نيابة الإسكندرية وجعل فيها أميراً كبيراً وزوّده بالرجال والعتاد، للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ما فتئ يهدد السواحل الشامية والمصرية معا.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، إن مجير الدين الحنبلي ذكر ان تولية النيابة والنظر في بيت المقدس كان يتم من قبل نواب الشام، ولم يزل الأمر كذلك إلى نحو ٨٠٠هـ، (١٣٩٧م)، فأصبح تولية النائب من قبل السلطان في القاهرة(١). والملاحظ هنا إن التاريخين لدى المقريزي والحنبلي متقاربان، مما يدعم وجهة النظر التي ذهبنا إليها. وزيادة في التأكيد فقد عمد السلطان الظاهر برقوق إلى ترميم دار الوكالة في مدينة بيت المقدس سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) وعهد ذلك للأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي نائب دمشق، وأثبت ذلك في نقش ذكر فيه انّ هذا الترميم تمّ (بنيابة مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام)(٢). ولم يذكر إنه

(١) الحنبلي، الإنس الجليل، ج٢ ص٢٨٢.
(٢) Van Berchem, Corpus Inscriptionum Uerusalem Villel, Le Caire, 1922,P. 300. ويبدمر هذا عزله السلطان برقوق في نفس السنة وعيّن عوضه في نيابة دمشق الأمير استقتمر المارديني الذي كان يقيم في القدس بطّالاً. (السلوك، ج٣ ق٢ ص٤٦٦, ٥٤٩, ٦٨٧)..

تم بنيابة نائب بيت المقدس، بدليل أنَّ نيابة القدس آنذاك كانت لاتزال تحت إشراف نائب دمشق. أضف إلى ذلك أنَّ المقريزي وأبا المحاسن يشيران بعد هذا التاريخ إلى تولية نواب في نيابة بيت المقدس كغيرها من نيابات بلاد الشام(١). ففي سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م) ذكر المقريزي النيابات في بلاد الشام على النحو التالي: نيابة الشام، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماه، ونيابة صفد، ونيابة غزة، ونيابة القدس، ونيابة الكرك(٢)، أما أبو المحاسن فزاد عليها نيابة ملطية(٣). ومن هنا نجد أنَّه أصبح في

---

(١) وعلى سبيل المثال انظر: المقريزي: السلوك، ج٣ ق٣ ص١٠٣٨. ج٤ ق١ ص: ٨١, ٨٨, ١٠٩، ١٣٨، ١٨٨، ٢٦٦، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٨٣. ج٤ ق٢ ص٩٧٥. ج٤ ق٣ ص١١٦١. وانظر أيضاً: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٢ ص٢٣١. ج١٣ ص٧٥، ٩٠، ١٠٥، ١٢٦. ج١٤ ص١٠، ٢٦٢، ج١٥ ص٧٦، ٢٩١, ٢٩٤، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣١، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٤٤٨، ٥٣٢، ج١٦ ص١٢٧. ١٣٠. وانظر كذلك: ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢ ص٢٨٧، ج٣ ص٤٤، ٣٤٨.

(٢) المقريزي: السلوك. ج٤ ق٣ ص١٢٠٠.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥ ص٢٢٦.

ملطية أو ملاطية: بلدة كبيرة حصينة، تقع على سفوح جبال اللكام، وهي إحدى الحصون المنيعة منذ العصر العباسي، تكثر حولها التلال المكسوة بالأشجار والسهول الخصبة.

(لي ستراغ: فلسطين في العهد الإسلامي، ص ٤٨٠).

فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد، ونيابة بيت المقدس ونيابة غزة، وهذا يناقض ما ذهب إليه لويس وغيره من الباحثين من ان فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط هما نيابة غزة ونيابة صفد[1] . ويحاول المستشرقون إثبات أنَّ القدس لم يلق الاهتمام الكافي في العصر الإسلامي كبقية المدن الأخرى، بدليل أنَّ القدس لم يكن عاصمة لدولة، أو مركزاً لحكم. ولكننا في هذه الدراسة نثبت عكس ذلك، فمدينة القدس كانت تتمتع بمكانة روحية لدى المسلمين، وكان الاهتمام بها كبيراً على مدى العصور، فبنوا فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة أثراً خالداً مازال حتى الوقت الحاضر. أما في العصر الأيوبي والمملوكي فقد لقيت المدينة المقدسة العناية والرعاية، فمهرها المماليك بمنشآتهم العديدة ثم جعلوا منها نيابة مستقلة وعيَّنوا فيها الأمراء الكبار وأصبحت مركز حكم كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام، بل فاقتها في الأهمية لمكانتها الروحية والدينية لدى الجميع، وتمكنت القدس بنائبها وقواتها أن تقف بقوة وحزم في وجه الأخطار والأطماع الصليبية والتتارية معا.

* * *

---

(١) Cohen & Lewis, op. cit., P. 9.

(٢)
دار النيابة

جعل السلطان الظاهر برقوق من بيت المقدس نيابة مستقلة، وكان القدس قبل ذلك ولاية أو نيابة صغيرة تابعة لنائب دمشق، وجرت العادة أن يقيم هذا الوالي أو النائب في قلعة بيت المقدس الواقعة في الجهة الغربية من المدينة عند باب الخليل[1]. ولكن بعد استقلال نيابة بيت المقدس صار نوابها ينزلون في زاوية الدركاه قرب البيمارستان الصلاحي[2]، وبقي الأمر هكذا مدة ثم صار النواب يسكنون في دار النيابة نفسها.

---

(١) العماد الكاتب الأصفهاني. الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة. ١٩٦٥م، ص١٤٥.
الحنبلي: الأنس الجليل. ج٢ ج٥٥. ٢٧١.
(٢) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٤٧.

وتقع دار النيابة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، وتتصل بمنارة الغوانمة[1]، ويتصل بها من الشرق المدرسة الصبيبية، ولدار النيابة هذه خمسة شبابيك تطل على ساحة المسجد الأقصى[2]. ويظهر من مخطط البناء المطل على ساحة الحرم أنّ الأسس الأولى لدار النيابة أقيمت فوق منطقة صخرية مرتفعة عن مستوى الحرم، لذا فلا يوجد أروقة أسفل دار النيابة كتلك الموجودة في السور الغربي للحرم، فطبيعة الأرض الصخرية لم تساعد على إقامة تلك الأروقة. ولا تشير الدلائل إلى وجود باب يوصل المبنى بساحة الحرم، وأكّد هذا ابن فضل الله العمري، فقال أثناء تحدثه عن المدرسة الجاولية (ليس لها

(١) الغوانمة: ينتسبون إلى غانم بن علي الأنصاري من رجال صلاح الدين وشيخ الخانقاه الصلاحية، خدم ابناؤه وأحفادهم المدينة المقدسة وكان منهم العلماء والفقهاء. تقلّدوا عدة مناصب في القدس منها مشيخة الخانقاة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى، ونظر الحرمين في القدس والخليل. ولعائلة الغوانمة آثار باقية في المدينة المقدسة منها منارة الغوانمة، وباب الغوانمة. وحارة الغوانمة.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي. دار الكتب، القاهرة ١٩٢٤م، ج١ ص١٥٩.

استطراق إلى الحرم)[1]. وهكذا فالوصول إلى دار النيابة من داخل الحرم يكون بالخروج من باب الغوانمة، ثم الاتجاه يمينا عبر درج وحارة الغوانمة حتى تصل إلى طريق الآلام. وبعد السير شرقا في طريق الآلام تتجه يمينا في طريق جانبي ترقى إليه صعوداً بأمتار قليلة فينتهي إلى بوابة كبيرة. ومن خلالها يمكن الولوج إلى ساحة كبيرة تحيط بها أبنية عديدة، ومن مجموعة هذه الأبنية تتكون دار النيابة، وتقع في الجزء الغربي من الساحة الحالية، ويمكن الدخول إلى هذه الدار بواسطة درج خاص يقع في الجهة الشمالية منها، ثم إلى الباب والدركاه ثم الصحن. وفي صدر هذا الصحن من جهة القبلة يوجد إيوان كبير له خمسة شبابيك تطل على ساحة المسجد الأقصى وهي التي أشار إليها ابن فضل اللّه العمري[2]. وهذا الإيوان (القاعة الكبيرة) مسقف بالعقود المتقاطعة، واستخدم في بنائه الحجر المنحوت المصقول، والإيوان هذا كان يجلس النائب في صدره للنظر في أمور الناس وحلّ مشاكلهم. ووجد إيوان للحكم في معظم النيابات المملوكية في مصر والشام وهو ما يطلق عليه (دار العدل)، يجلس النائب فيه

---

(١) ابن فضل اللّه العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب. القاهرة. ١٩٢٤م، ج١ ص١٥٩.

(٢) ابن فضل اللّه العمري، مسالك الأبصار، ج١ ص ١٥٩.

ومعه القضاه لفضِّ المنازعات والنظر في المظالم المرفوعة إليه والتي لم يقبل أصحابها بحكم القضاة فرفعوها إلى النائب من باب الإستئناف[1]. وجرت العادة أن يجلس النائب بدار العدل هذه مرتين في الأسبوع للنظر في القضايا الكبيرة، ويستقبل النائب فيه أيضاً السلاطين والزائرين القادمين لزيارة بيت المقدس. إلا أنَّ بعض السلاطين كانوا يفضلون الإقامة في المدرسة التنكزية بباب السلسلة ففي سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧م) قدم السلطان سيف الدين شيخ المحمودي لزيارة بيت المقدس فأقام في هذه المدرسة، أما الأمراء والمباشرون الذين كانوا صحبته فقد توزعوا في مدارس وخوانق المدينة المقدسة[2]. وجدد بناء هذا الإيوان الكبير (دار العدل) الأمير شاهين الشجاعي نائب بيت المقدس، وأثبت ذلك بنقش نسخي جميل على عتبة مدخل الإيوان هذا نصه:

شاهين رسم بتجديدها المقر الشجاعي

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣ ص ٢٧٦.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١٢ص١٧٣.
للباحث، عمان حضارتها وتاريخها، ١٩٧٩ ص ١٩٦.
(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة. ١٩٧١، ج٢ص٣٩٥.

وقد تولى شاهين الشجاعي نيابة بيت المقدس في عهد السلطان الاشرف برسباي بعد سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م)(١).

وحدثت اضافات أخرى إلى دار النيابة، ففي سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٧م)، بنى الأمير خضر بك نائب بيت المقدس مقعداً خاصاً ملاصقاً لإيوان الحكم من جهة الشمال، وسقفه بالخشب المدهون، وجعله على طريقة مجالس الحكام في الديار المصرية، فصار النائب وأعوانه يجلسون فيه، وكانوا قبل ذلك يجلسون في صدر الإيوان(٢). ونصّت الوثائق على وجود (مجلس الحكم) في بيت المقدس، فالوثيقة رقم ١٣٨ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس أشارت إلى ذلك المجلس(٣).

ودار النيابة هذه كانت في الأصل تدعى (المدرسة الجاولية)، بناها الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي(٤)،

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٤.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٣٣٧.

(٣) وثائق للتحف الإسلامي بالقدس وثيقة رقم ١٣٨.

(٤) هو أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولي، ولد بآمد سنة ٦٥٣هـ، وقد اشتراه أحد الأمراء المماليك يقال له جاول فنسب إليه. تدرج في سلك الدولة المملوكية حتى أصبح استاداراً، وتقلد عدة مناصب منها نيابة الشوبك وحماة وغزة، ثم شد الدواوين. استنابه الناصر محمد في سنة =

في حدود سنة ٧١٣هـ (١٣١٢م) في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون. ففي هذه السنة كان سنجر الجاولي نائباً في غزة[١]، وبالإضافة إلى نيابة غزة عهد إليه السلطان ولاية القدس وبلد الخليل ونابلس وقاقون ولد والرملة[٢]. ثم انتدبه السلطان في نفس السنة لإيصال الماء من عين مدينة الخليل إلى القدس (ولم يزل مجداً في العمارة مصراً على اعتماد الإشارة إلى إن فار الماء بالبيت المقدس بعد فراره)[٣]، ومن المرجَّح أنَّه قام ببناء مدرسته في السنة نفسها. ثم تحولت المدرسة فيما بعد إلى دار للنيابة

=== ٧١١ هـ لبناء عدة منشآت في الكرك فبنى فيها قصراً للنيابة والجامع والحمام والمدرسة الشافعية والبيمارستان وخانا للسبيل، ثم عهد إليه في سنة ٧١٣هـ بروك البلاد الشامية له عدة منشآت في مصر والشام منها الجامع بالخليل ومدرسة بالقاهرة وأخرى في غزة وخانا في بيسان. ويذكر السبكي أنَّه كان رجلاً فاضلاً صنف شرح مسند الشافعي، وسمع على دانيال بالكرك، توفي سنة ٧٤٥هـ (السبكي، طبقات الشافعية، ج٦ ص١٠٦، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٨).

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨ ص٣٦.

(٢) أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط).

قاقون: حصن يقع في فلسطين قرب الرملة، ويتبع لقيسارية. (لي سترانج، ص ٤٣٨).

(٣) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك. ج١ لوحة ٩٨ (مخطوط).

وسكنى للنواب، وقد أشار بعض الباحثين إلى أنَّ المدرسة الجاولية تحولت إلى دار للنيابة سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) على يد نائبها شاهين الشجاعي[1]. ولكننا نرى خلاف ذلك، فشاهين الشجاعي كان نائبا للقدس بعد سنة ٨٣١ هـ، وهو الذي جدَّد إيوان الحكم وكتب ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على مدخل الإيوان الكبير (دار العدل). ولكنه لم يحول المدرسة إلى دار للنيابة، فباعتقادنا أنَّ المدرسة تحولت إلى دار للنيابة بعد سنة ٧٩٦هـ، أما عن اتخاذها سكنى للنواب فكان ذلك في أواخر القرن التاسع الهجري في حياة مجير الدين الحنبلي حيث يقول: (وهي التي صارت في عصرنا مسكنا للنواب بالقدس الشريف)[2].

ولا يوجد لدينا ما يثبت اتصال دار النيابة بساحة المسجد الأقصى مباشرة، فمدخلها يقع خارج الحرم من جهة حارة الغوانمة وطريق الآلام، ولكنا نميل إلى القول بأن دار النيابة هذه كانت متصلة اتصالاً مباشراً بساحة الحرم بواسطة طريق خاصة،

---

(١) كامل العسلي، معاهد بيت المقدس. عمان، ١٩٨١م ص٢٢٣.
وقع لديه لبس بين شاهين الشجاعي وشاهين الذباح الذي كان نائباً في القدس سنة ٢٨٢٨هـ (الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٤.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٢.

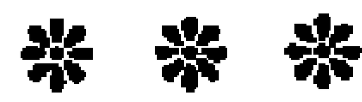
خصوصاً وأنَّها أصبحت سكنى للنائب فالأمر يستلزم دخوله للحرم مباشرة في أوقات الصلاة ولا شك أنَّ ذلك كان يتم بواسطة باب خاص، وهذا الباب ربما كان من جهة المدرسة الصبيبية المحاذية لدار النيابة شرقا أو أنَّه يقع من جهة منارة الغوانمة غرباً(١).

وتشغل المدرسة العمرية الحالية مجموعة من الأبنية من ضمنها دار النيابة موضوع البحث، وهناك تساؤل هل الباب الحالي للمدرسة العمرية هو الباب الأصلي لمجموعة الأبنية هذه، أم أنَّ هناك بابا آخر غيره؟. فقد لاحظت في الجدار الشمالي للمدرسة الواقع في درب الآلام وعلى بعد عدة أمتار من المدخل الحالي باتجاه الشرق، آثار بوابة كبيرة مغلقة، أبطل استخدامها في عهود لاحقة فأغلقت البوابة بالحجارة. ويمكن ملاحظة أنَّ الحجارة المستخدمة في اغلاق فراغ الباب تختلف عن تلك

---

(١) وتشغل المدرسة العمرية مجموعة من المباني من ضمنها دار النيابة (المدرسة الجاولية)، وقد قمت في صيف عام ١٩٨٠م بزيارة هذه المدرسة وأطلعت على أقسامها وأبنيتها الحديثة والقديمة، فمعظم الجزء القديم يحتاج إلى الترميم والصيانة وخصوصا تلك الأجزاء الجنوبية والغربية المتصلة بمنارة الغوانمة.

المستخدمة في بناء الجدار الشمالي، ثم إنها بنيت بطريقة أقل دقة، ومن حجارة الدبش، بينما بقية الجدار مبني بالحجارة المدقوقة المشهرة يحيط بها افريز مستطيل الشكل منحوت بطريقة فنية جميلة[1]. فعلى سبيل الافتراض إذا كانت دار النيابة تشتمل أيضاً بعض أبنية العمرية الحالية، فالمدخل يجب أن يكون كبيراً واسعاً مهيباً يتناسب ودار النيابة، لذا فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن مدخل النيابة كان في الأصل من الجهة الشمالية ولكنه أغلق وبطل استعماله فيما بعد، وبقي المدخل الحالي لتلك الأبنية. وهذا يجرنا إلى القول بأن دار النيابة اشتملت على أبنية أخرى زيادة على المدرسة الجاولية وربما كل أبنية العمرية الحالية.



(١) انظر الصورة الفوتوغرافية لهذا الباب.

الفصل الثاني

الوظائف في نيابَة بَيت المقدّس

الوظائف في نيابة بيت المقدس

أولاً: الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):
١ - نائب السلطنة.
٢ - نائب القلعة.
٣ - والي المدينة.
٤ - الحاجب.
٥ - الدوادار.
ثانياً: الوظائف الدينية:
١ - ناظر الحرمين الشريفين.
٢ - مشيخة الصلاحية.
٣ - القضاه.
٤ - الخطابة.
٥ - التدريس.
٦ - المحتسب.
٧ - ناظر البيمارستان.
ثالثاً: الوظائف الديوانية:
١ - كاتب الدست.
٢ - ناظر بيت المال.
٣ - ناظر الجيش.
رابعاً: جيش نيابة بيت المقدس.
خامساً: القلعة.
سادساً: ولاية نابلس والرملة والخليل.

الوظائف في نيابة بيت المقدس

أولاً: الوظائف العسكرية (أرباب السيوف)

١ - نائب السلطنة:

أصبح بيت المقدس نيابة مستقلة سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، على رأسها أمير كبير ولايته بمرسوم شريف من القاهرة. وكان نائب السلطنة يقيم في (دار النيابة)[١]، الواقعة بجانب الرواق العلوي من المسجد الأقصى بجوار منارة الغوانمه[٢]. وكان النائب يجلس في صدر الإيوان الخاص المسمى (إيوان الحكم)، ليحكم بين الناس وللنظر في شؤون النيابة. ولكن نائب بيت المقدس خضر بك بنى مقعداً ملاصقاً لإيوان الحكم، من جهة الشمال، وصار يجلس فيه على عادة (مجالس الحكم) في الديار

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٢٧٤.

(٢) المنهاجي السيوطي: أتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط جامعة برنستون، لوحة ٧٤٥. الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢ ص٣٠٨.

المصرية[1]. ودار النيابة هذه أقيمت مكان المدرسة الجاولية التي بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة ٧١٣هـ، وخصصها للمذهب الشافعي، وتحولت إلى دار للنيابة بعد سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) ثم إلى سكن للنواب ، وكان نواب بيت المقدس قبل هذا التاريخ يقيمون في زاوية الدركاة بجوار البيمارستان الصلاحي وهي من أوقاف الأمير شهاب الدين غازي بن العادل الأيوبي صاحب ميافارفين[2].

وكان لنائب بيت المقدس إقطاع خاص، يشتمل على عدة قرى، وذكرت المصادر أن من بين هذا الاقطاع مدينة أريحا في غور الأردن[3]. وفي أحيان كان يجمع إليه نظر الحرمين الشريفين القدس والخليل فيطلقون عليه (ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل) وهذا امتياز لم يحظ به أي

---

(١) الحنبلي، نفس المصدر، ص٣٣٧.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٧، ميافارفين: مدينة من الجزيرة وهي قاعدة ديار بكر كثيرة المياة والبساتين.
(صبح الأعشى، ج٤ ص٣٢٠).

(٣) الحنبلي، المصدر نفسه، ص ٧٥، ٣٢٣. أريحا: عاصمة الغور ويعتبرها اليعقوبي من البلقاء، وتبعد، مسافة يوم عن القدس. (لي ستراج: ص٣١٥).

نائب من نواب بلاد الشام، وبذا نال النائب قوة وتشريفاً. وفي أحيان كان النائب يجمع بين: كاشف الرملة، وكاشف نابلس، واستادار الأغوار، ومتولي الصلت وعجلون، كما حدث سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) في دولة الأشرف برسباي، الذي جمع للأمير طوغان العثماني بين هذه الوظائف(١)، وهو أقصى اتساع بلغته نيابة بيت المقدس.

أما تولية النائب فكانت تتم بمرسوم سلطاني، وعندما يتولى هذا المنصب أو تجدد نيابته مرة أخرى، يدخل المدينة مرتدياً خلعة النيابة، يحفُّ به القضاة والمماليك وأعيان المدينة فتزيَّن الأسواق وتدق البشائر، ثم يدخل المسجد الأقصى حيث يقرأ المرسوم

---

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، القاهرة، ١٩٧٤، ج٣ ص٣٨٣. الحنبلي، المصدر السابق، ج٢ ص٢٧٥.
الكاشف: من وظائف أرباب السيوف، وبحكم على جميع البلاد التي يتولى كشفها فيجتمع إلى الأمراء ويمد السماط ويحضره القضاه وتقرأ القصص بين يديه. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص ٢٥).
الاستادار: من وظائف أرباب السيوف، وتعني الأمير الذي يتولى قبض مال السلطان، أو الأمير وصرفه، وكان يتولى أمر البيوت السلطانية كلها، وصاحبها أمير كبير. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥ ص٤٥٧).

السلطاني على المجتمعين[1] . وكانت الطبلخاناه تدق على باب بيته كل ليلة[2]، تماماً كما يحدث للأمراء الكبار في الديار المصرية . ومن واجبات النائب النظر في أحوال نيابته، وتفقد أحوال الرعية صغيرهم وكبيرهم، ورفع الحيف والظلم عنهم ومراجعة السلطان في بعض الأمور التي هي من مصلحة رعيته، والنظر في القرى والغلات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها، وتعيين فقيه في كل قرية ليعلم أهلها أمور دينهم[3] .

ولنيابة السلطنة في بيت المقدس ثلاث ولايات :

١ - ولاية الخليل .

٢ - ولاية نابلس .

٣ - ولاية الرملة[4]، وفي أحيان كان المرسوم السلطاني

---

(١) الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢ ص٣٣٧ .

(٢) الحنبلي، المصدر نفسه، ص ٢٨٠ .

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص ٢١، ٢٢ .

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ط القاهرة، ١٣١٢هـ ص١٧٧ .

الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٢٨، ١٤٧ (مخطوط) .

الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٥، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٧٤ .

ينص على توليته (نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس)[1].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري، تولى نيابة بيت المقدس نواب اشتهروا بالظلم والقسوة، فأساؤا إلى النيابة وسكانها؛ ومنهم من تولاها بمال بذله إلى السلطان في القاهرة، ففي سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٧م) تولى النيابة ونظر الحرمين بالقدس الأمير دقماق (ببذل عشرة آلاف دينار للخزائن الشريفة، غير ما تكلفه لأركان الدولة)[2].

٢ - نائب القلعة:

لبيت المقدس قلعة وصفت بأنها (حصن عظيم البناء) تقع في الجهة الغربية من القدس بجانب باب الخليل، وكانت هذه القلعة حصينة جداً واشتهر من أبراجها برج عظيم البناء سمي (برج داود)[3]. وتعرضت هذه القلعة للهدم من قبل الملك المعظم عيسى في العصر الأيوبي أثناء الحملة الصليبية الخامسة على

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢ ص٩٧٥، وأنظر:
ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ص٣٤٨.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤٢.
(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٥.

دمياط، إذ خشي أن يحتلها الفرنج ويحتموا خلف أسوارها[1]. ثم إنَّ الكامل محمد سلطان مصر سلم بيت المقدس للفرنج في الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)[2]. وقد استغل الفرنج حالة الفرقة والنزاع بين صفوف الأيوبيين فعمدوا إلى تحصين بيت المقدس وجددوا بناء القلعة، مما دعا الملك الناصر داود أمير إمارة الكرك الأيوبية إلى تحرير القدس منهم فهاجمهم بقواته سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وأخرجهم منها وأعادها إلى حظيرة الحكم الأيوبي[3].

وللقلعة نائبها الخاص يكون تعيينه بمرسوم سلطاني[4]، ونيابته مستقلة عن نيابة السلطنة، ومقره في القلعة، وكان ولاة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤ ص٢٢. المقريزي، السلوك، ج١ ص٢٠٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢ ص ٤٨٢، ابن واصل، مفرج الكروب. ج٤ ص٢٤٢.

Rogcr of Wendover.

The Crusade of fredrick II, From Sourccs of Medieval History, Editcd by Edward Pctcrs, U.S.A., 1971. P. 152.

(٣) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج٣ ص ٢٣٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩، ج١٢ ص٣٢٥.

بيت المقدس ونوابها يقيمون في القلعة قبل أن يتحول القدس إلى نيابة مستقلة[١]. ومن اختصاص النائب صيانة القلعة وحفظها وعمارة ما وهى من عمارتها، وخزن أنواع الأسلحة والزرد خاناه، بالإضافة إلى إشرافه على الأجناد المقيمين في القلعة الذين يحرسون المدينة ويقومون بمهمة الدفاع عنها[٢].

ويرتب النائب في القلعة طبلاً يدق ليلاً لاستعلام الوقت على عادة القلاع في البلاد الشامية والديار المصرية[٣]. ووضع تحت تصرف نائب القلعة (الحمام الزاجل) لإبلاغ السلطان بكل ما يستجد في النيابة، فهو عين على النائب وجميع موظفي الإدارة في النيابة وأعمالها. وممن تولوا نيابة قلعة القدس: شرف الدين موسى الردّادي[٤]، وبدر الدين حسن بن حشيم (ت٨٧٠هـ)[٥].

---

(١) الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢ ص٥٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٢٦.
(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٥ وأنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٨٥.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢ ص ٣٢٥.
(٥) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨١.

٣ - والي المدينة:

وكان يطلق على من يتولى هذا المنصب في العصر الإسلامي صاحب الشرطة، ويذكر القلقشندي أن تولية هذه الوظيفة كانت من نائب دمشق عندما كانت نيابة بيت المقدس مجرد نيابة صغيرة تابعة لدمشق. وبعد أن تحولت القدس إلى نيابة مستقلة صارت تولية والي المدينة تتم من قبل نائب بيت المقدس[١]، وأصبحت فيما بعد من اختصاصات السلطان في القاهرة، وقد نقل إلينا القلقشندي توقيعاً بولاية القدس من إنشاء ابن نباته[٢]، وتولى الأمير شرف الدين المرجاني هذا المنصب سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)[٣].

ومن اختصاصات والي المدينة حفظ الأمن ومطاردة اللصوص والمفسدين، والمحافظة على أرواح الناس وأموالهم، وكان من حقه جلد المخالفين من السكارى بالعصا[٤]. ولا يسمح

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٣٠. وأنظر النص في الملاحق.
(٣) ابن صرصري، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برنير، كالفورنيا، ١٩٦٣م، ص١٤٦.
(٤) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص ٦١، ٦٢.
والباحث، تاريخ شرقي الأردن – القسم الحضاري، ص ١١.

له بالتَجسس على الناس وهتك حرمات بيوتهم بحجة البحث عن المنكر، ويساعده في مهمته عدد من رجال الشرطة والحراس والعسس.

٤ - الحاجب:

وكان في نيابة القدس أمير حاجب كغيرها من النيابات الأخرى في بلاد الشام(١)، ومن مهامه الحكم بين الناس وفضّ المنازعات، كما ترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها من الأمور التي ترفع إلى حكام الشرطة. ويقوم الحاجب أيضاً بعرض الجند وتقديم من يرد إلى النائب والاستئذان لهم، وينوب عن النائب في حال غيبته(٢). وممن تولوا هذا المنصب في القدس الشريف الأمير شاهين الحاجب، وشهاب الدين أحمد بن شرف الدين موسى الذي شغل منصب حجوبية القدس سنة ٨٠٥هـ(١٤٠٢م)، ثم ابنه ناصر الدين محمد التركماني (ت٨٥٢هـ) وناصر الدين صرصر العلمي(٣).

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨١.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩.
(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨١.

٥ ـ الدوادار:

ذكرت المصادر عن وجود وظيفة الدوادار في بيت المقدس، والدوادارية موضوعها تبليغ الرسل عن النائب وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته. ومن مهامه أيضاً تقديم البريد إلى النائب وأخذ خطه على عامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة من نائب السلطنة[١]. وكان النائب يكلفه في مهمات حربية، ففي سنة ٨٩٩هـ (١٤٩٤م) كلف الأمير جان بلاط نائب القدس الأمير جانم دوادار القدس في مهمة بقرية بيت لقيا[٢] فقتل هناك بإيعاز من نائب غزة بسبب خلاف وقع بين النيابتين[٣]. ومن الملاحظ أنَّ وظيفة الدوادار لم تكن موجودة في نيابة الكرك، بل وجد فيها مهمندار مهمته تلقي الرسل وأمراء العربان الواردين إلى النيابة، والتحدث في القيام بأمرهم[٤].

* * *

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩.

(٢) لعلها بيت لهيا. ذ

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٣٧١.

(٤) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٢.

(٢)
ثانياً: الوظائف الدينية

١ - ناظر الحرمين الشريفين:

تعتبر وظيفة ناظر الحرمين من أقدم الوظائف الكبرى في بيت المقدس، فوجدت في العصر الأيوبي ومنذ أوائل العصر المملوكي، فكان الناظر في عهد الظاهر بيبرس الأمير علاء الدين ايدغدي الصالحي[1]. ويتولاها أمير كبير برتبة طبلخاناة، ففي سنة ٧٧٥هـ (١٣٧٣م) تولى نظر القدس والخليل الأمير أحمد بن آل ملك[2]، وفي سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م) وليها الأمير بوري الأحمدي[3]. وفي أحيان يتولاها عالم جليل برتبة قاضي القضاة، عرف فضله بالعلوم والفلاح، نذكر منهم الأمير ناصر

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٠.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٣ ق١ ص٢٢١، ٢٢٤.
(٣) المقريزي، السلوك، ج٣ ق١ ص٣٣٨.

الدين محمد بن عمر الشهير بابن العطار (ت٨٠٨هـ)، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد الرازي الهروي (ت٨٢٩هـ)[١]، وربما جمع النائب بين النظر والنيابة[٢].

وتولية الناظر تكون بمرسوم سلطاني من القاهرة فيخلع عليه السلطان ويدخل مدينة القدس وهو يلبس هذه الخلعة، فيتلقاه النائب والقضاة وأعيان النيابة، ويدخل إلى المسجد الأقصى حيث يتلى مرسو[٣] السلطان[٤]. وكان نظر الحرمين في القدس والخليل يضاف إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ويكون متوليها ناظر واحد، كما حدث في عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين حيث ولى في سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب نظر الحرمين الشريفين مكة والمدينة. وحرمي القدس والخليل[٥].

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٥ ص١٣١، ١٣٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٨١.

الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥.

(٣) كذا والأصح مرسوم.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣٣٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٢ ص٢٧١.

ومن اختصاصات ناظر الحرمين الإشراف عليهما وبناء وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، أضف إلى ذلك إشرافه على الأوقاف الخاصة بهما، وتثمير تلك الأوقاف لصالح الحرمين[1]. أما أموال الأوقاف الزائدة فكان يحتفظ بها في صندوق الصخرة[2]، وكان بعض السلاطين يعملون على العناية بأوقاف الحرمين فيرسمون بعمارة ما يحتاج إلى عمارة وترميم وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من أموال الدولة[3].

٢ - مشيخة الصلاحية:

تعتبر المدرسة الصلاحية من أقدم المدارس في بيت المقدس، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره بيت المقدس من الفرنج سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)[4]، مكان كنيسة قديمة تعرف بكنيسة صند حنة (St. Ann)، والقديسة حنة هي والدة السيدة مريم العذراء وكانت قد سكنت في هذا المكان[5]. وتقع المدرسة

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٨١.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص٢٧٨، ٢٧٩.

(٤) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص١٤٥، ٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل.

(٥) ج٢ ص٤١ Van Berchem, Corpus insciptionum Derusalem Villel, P. 91.

الصلاحية داخل أسوار مدينة القدس وخارج الحرم من جهته الشمالية، قرب باب الأسباط فلا تبعد عنه سوى أمتار قليلة، وجعلها لتدريس المذهب الشافعي.

والمشيخة الصلاحية من (الوظائف السنية بمملكة الإسلام)[1]، ولا يتم توليتها إلا بمرسوم سلطاني من القاهرة[2]، وعند التعيين يدخل شيخ الصلاحية المدينة ويشق أسواقها وقد ارتدى التشريف السلطاني، يحف به العلماء والفقهاء والنائب والناظر وينتهي إلى المسجد الأقصى حيث يقرأ المرسوم السلطاني[3]. وشيخ الصلاحية أحد الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون نيابة بيت المقدس، أما الآخران فهما نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين. وفي أحيان يتقلد شيخ الصلاحية منصب قاضي القضاة الشافعية في بيت المقدس[4]، أو يجمع بين نظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية[5].

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٤١.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص ١١٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٢ ص٢٨٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٤٤٠، ٤٨٣، ٥٢٥.

وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى، أو بين المشيخة ونصف الخطابة بالمسجد الأقصى، ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية، من هؤلاء محب الدين بن جماعة، وشيخ الإسلام النجمي(١)، وكان البعض ينيب عنه في نصف المشيخة أحد الشيوخ المقيمين في القدس بينما يظل هو مقيماً في القاهرة(٢).

ولشيخ الصلاحية منزلة خاصة لدى السلاطين، وهذا دلالة على ما لهذه المدرسة وشيوخها من احترام وتقدير لدى الدولة ورجالها. فإذا قدم الشيخ إلى القاهرة، يخرج أمير كبير لاستقباله ويصعد به إلى السلطان بقلعة الجبل، فيقبل عليه السلطان ويكرمه ويجلسه عن يمينه(٣). ففي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) قدم إلى القاهرة شيخ الصلاحية شمس الدين محمد بن محمود الرازي الهروي، فأمر السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الأمير الطنبغا العثماني فتلقاه خارج القاهرة وصعد به إلى قلعة الجبل، فأقبل

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩٨.

(٢) المقريزي، السلوك ج٣ ق٢ ص٨٥٨.

الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣٠٤.

(٣) للقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٣١٢.

عليه السلطان وأكرمه، ثم أنزله في دار خاصة أعدَّت له. وأثناء إقامته في القاهرة رتب له السلطان في كل يوم مبلغ مائتي درهم ومن اللحم ثلاثين رطلاً، وأنعم عليه بفرس أسرج بسرج ذهب والهدايا والثياب الفاخرة، إضافة إلى ما أهدي إليه من رجال الدولة[١].

٣ - القضاة:

يعتبر قاضي القضاة رأس الهيئة القضائية في نيابة بيت المقدس، ويشغل هذا المنصب قاضي القضاة الشافعية الذي كان يجمع إلى جانب ذلك منصب شيخ الصلاحية وفي أحيان أخرى منصب ناظر الحرمين الشريفين[٢].

وأول من ولي هذا المنصب بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، تولاه من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، فكان يجمع بين قضاء القدس وقضاء العسكر والنظر على أوقاف بيت المقدس[٣].

---

(١) المقريزي، السلوك، ص٣١٢.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨٣.
(٣) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص١٠٢, ١١٨.

وفي العصر المملوكي جعل السلطان الظاهر بيبرس القضاء في أربعة قضاة، وقد عمم هذا النظام في معظم النيابات في البلاد الشامية والديار المصرية. أما في بيت المقدس فقد اقتصر الأمر على قاض شافعي، ثم تطور الأمر تدريجيا حتى أصبحوا أربعة قضاة. فمنصب قاضي القضاة الحنفية أحدث في سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، أما المالكي فأوجد في سنة ٨٠٢هـ (١٣٩٩م)، وكان آخرها الحنبلي حيث أحدث هذا المنصب سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١م)[١]. ولقاضي القضاة نائب في كل من نابلس والرملة والخليل، وفي أحيان تنفرد كل مدينة بقاضيها[٢].

وكان التعيين في منصب قاضي القضاة بمرسوم شريف من السلطان، وكعادة الموظفين الكبار في النيابة، يدخل القاضي

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٢١٩، ٢٤٤، ٢٦١.

وذكر مجير الدين أن شيخ الصلاحية وقاضي القضاة الشافعية في القدس سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٧م) هو شيخ الإسلام نجم الدين أبو البقاء محمد بن جماعة، أما قاضي القضاة الحنفية فهو جمال الدين عبدالله بن الديري، وقاضي القضاة المالكي هو شمس الدين أبو عبدالله محمد المعزاوي، أما قاضي القضاة الحنابلة فهو شمس الدين أبو عبدالله محمد العليمي. (الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨٣).

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨٧، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٧٠.

المعين مدينة بيت المقدس مرتدياً خلعة السلطان، ويقرأ توقيعه في المسجد الأقصى بحضور النائب والناظر وبقية القضاة وأعيان النيابة[1]. ثم صار القضاة يبذلون الأموال للحصول على وظيفة قاضي القضاة في بيت المقدس، ففي سنة ٨٧٨هـ (١٤٧٣م) تولى منصب قاضي القضاة الحنفي القاضي جمال الدين الديري (بعد مال كبير بذله في الولاية)[2].

ويساعد القاضي في وظيفته (المباشرون)[3]، وهم الذين يقومون بمساعدة القاضي في الأمور المتعلقة بوظيفته كالكاتب والحاجب وأمناء القاضي والشهود[4]. أما الحاجب فهو الذي يستأذن على القاضي ويرفع الأمور إليه، أما الأمناء فهم الذين يحتفظون في أموال اليتامى والغائبين ويصرفون زكاة اليتيم لمن يعينها القاضي. أما الشهود العدول فهم الذين يختارهم القاضي

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٥٢٥.

الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩١، ٢٩٨

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩٧.

(٣) عن وظيفة المباشرين أنظر:

القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٠، ١٩٢، ٢١٩.

(٤) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٨٥-٨٩.

لمساعدته في عمله القضائي، ويختصون عادة بالنظر في صحة الإجراءات القضائية، ونصت الوثيقة رقم ١٤١ تاريخ ٧٩٥هـ على وجود (الشهود العدول بالقدس الشريف)[١]. وكان من أعيان الشهود العدول في بيت المقدس تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي برهان الدين إبراهيم الصلتي الشافعي (ت٨٧٣هـ) وصفه الحنبلي بأنه كان من (أعيان العدول بالقدس الشريف وكانت القضاة والحكام يعظمونه)[٢]، ونجم الدين محمد بن محمد بن بقيرة السوداني الحنفي (ت ٨٥٦هـ)[٣].

٤ - الخطابة:

ونعني بالخطابة، خطابة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الإبراهيمي في الخليل، والخطابة من أجلّ الوظائف الدينية في النيابة وأعلاها رتبة (إذ كان النبي ﷺ يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم)[٤].

---

(١) وثائق المتحف الإسلامي في القدس، وثيقة رقم ١٤١ تاريخ ٧٩٥هـ.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص١٩١.

(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٩، وأنظر: ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٢٧.

ويتم التعيين في إمامة وخطابة المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي من قبل قاضي القضاة[١]، ثم من ناظر الحرمين في بيت المقدس، وأخيراً صار السلطان يتدخل في التعيين في إمامة المسجد والصخرة[٢]، فيأتي التقليد والمرسوم من القاهرة، فيدخل الإمام بيت المقدس وهو لابس خلعة السلطان وهي تشريف وطرحة على العادة، ويقرأ كتاب التقليد في المسجد الأقصى أمام جمهور المصلين والحضور هناك[٣].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٩٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص١١٠،
أبو المحسن، النجوم الزاهرة، ج١٣ ص٩٧.

(٣) الحنبلي، ج٢ ص٢٩٢، ٢٩٥، ٣١٩، ٤٩٥، وأنظر:
السلوك ج٤ ق١ ص١٣٧، ١٤١، ج٣ ق٢ ص٩٢٣.
التشريف: هو الخلعة التي يلبسها السلطان أو يمنحها لأحد رجال الدولة كي يلبسها عند قراءة التقليد وتسمى هذه الثياب بأسماء تطابق المناسبة التي منحت من أجلها مثل: (خلعة النيابة، خلعة الوزارة، خلعة السفر، خلعة الرضا). ورفض ثوب التشريف يعتبر إساءة خطيرة، والخلعة عادة تكون (كاملية) من الصوف مبطنة بفروسمور، أو ثوباً من الأطلس الأبيض به بنود مطرزة.
(ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة، ١٩٧٢م. ص١٠٨-١١١).
الطرحة: وهي عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين وكان هذا الزي إمتيازاً للطبقة الرفيعة من رجال الدين والموظفين. (ماير، الملابس المملوكية، ص٩٣).

وفي بعض الأحيان كان شيخ الخانقاه الصلاحية في بيت المقدس يتولى مشيخة الحرم الشريف[1]، وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وقضاء الشافعية وخطابة المسجد الأقصى منهم قاضي القضاة شيخ الإسلام نجم الدين أبو البقاء محمد بن برهان الدين إبراهيم بن جماعة[2]. ثم صارت الإمامة والخطابة في المسجدالأقصى وقبة الصخرة يتقاسمها اثنان، لكل نصف الخطابة أو الإمامة، ويتم التعيين من السلطان بالقاهرة[3]، وفي أحيان تولى الخطابة بالمسجد الأقصى أربعة شيوخ لكل ربع الخطابة[4].

---

(١) أول من تولى مشيخة الخانقاة الصلاحية غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي من قبل صلاح الدين الأيوبي بعد فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ وتولاها من بعده العديد من أبنائه وأحفاده. ولعائلة الغوانمه المنسوبة إليه آثار جليلة في المسجد الأقصى والمدينة المقدسة، وقد تولوا خطابة المسجد الأقصى مدة طويلة وبقيت مشيخة الخانقاة الصلاحية بأيديهم إلى سنة ٨٩٨هـ.

(الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩٦، ٣٧٥، ٤٨٢، ٤٨٩، ٤٩٥، ٥٤٣، وأنظر: أبو الفلاح، شذرات الذهب، ج٥ ص١٥٥).

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢ ص١١٧.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ص١١٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٩.

(٤) الحنبلي، المصدر نفسه، ص٣٢٧.

ووجد في المسجد الأقصى وظيفة رئيس المؤذنين، وممن شغلها العدل شهاب الدين أحمد بن محمد الخليلي الشافعي (ت٨٧٤هـ)، وكان أيضاً أحد الشهود العدول في بيت المقدس[1]. وجرت العادة أن تصرف الجامكيات (الرواتب) إلى هؤلاء الخطباء والمؤذنين، ووقفت القرى العديدة في منطقة القدس لهذه الغاية فالوثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧هـ نصَّت على وقفية لقرية بأعمال القدس، وكان يسلم ريع وقفها جامكية[2] للخطيب والمؤذن ومصالح السقاية المنصورية على يد (الجناب الكريم العالي السيفي سيف الدين البدري)[3].

٥ - التداريس:

ويقوم بهذه الوظيفة أساتذة وشيوخ مشهود لهم بالعلم والفضل، وأنواع هذه التداريس: الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والعلوم العقلية وغيرها من العلوم[4].

---

(١) الحنبلي، المصدر نفسه، ج٢ ص١٩٢.
(٢) الراتب - الأجر.
(٣) وثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧ هـ من وثائق المتحف الرسلامي في القدس.
سيف الدين بهادر بن عبدالله البدري، أحد الأمراء الكبار في مصر تولى عدة مناصب منها نيابة الكرك، ثم نفي إلى طرابلس وتوفي فيها سنة ٧٤٠هـ. (النجوم الزاهرة، ج٩ ص٣٢٤).
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٩.

وشهد بيت المقدس في العصر المملوكي نهضة علمية رائدة، ونتيجة للاهتمام الزائد التي أولاها السلاطين للمدينة المقدسة، فقد قاموا بإنشاء المدارس حتى بلغت نيفا وأربعين مدرسة، ما عدا المدارس الأخرى المنتشرة في مدن النيابة كالخليل ونابلس والرملة وغيرها. وبعد سقوط بغداد على يد التتار هجرها العديد من العلماء فاستقرُّوا في مدن بلاد الشام والديار المصرية[1]، ولكن البيت المقدس استأثر بالعديد من هؤلاء العلماء ووضعوا أسس نهضته العلمية. ثم إنَّ البيت المقدس كان هدف هجرة علمية أخرى مغربية وأندلسية أمتدت سنين طويلة، حيث كان القدس (محط رحالهم وغاية مقصودهم وآمالهم)[2]. وقد اهتم المشارقة بإخوانهم المغاربة المهاجرين، فأعدوا لهم الأحياء الخاصة وقدموا لهم كل عون ومساعدة، وكانت الردة الإسبانية (المسيحية) قد بدأت في الأندلس في نفس الوقت الذي بدأت فيه الحروب الصليبية في المشرق. واستقطبت دمشق بادئ الأمر جموع المغاربة، ونقل إلينا الرحالة الأندلسي ابن جبير صورة عن اهتمام المشارقة بالمغاربة من مهاجرين وطلاب علم، ففي سنة

---

(١) المقريزي، السلوك ج٤ ق٢ ص٦١١.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ص٦١.

٥٨٠هـ (١١٨٤م) زار دمشق وكان القدس ما زال تحت الاحتلال الصليبي فوصف لنا ما يلاقيه المغاربة في دمشق من عناية ورعاية حتى أن نور الدين زنكي خصص للمغاربة (زاوية المالكية)، وجعل لها أوقافاً كثيرة منها: طاحونتان وسبعة بساتين وحمام ودكانان بالعطارين. وبلغ دخل هذا الوقف خمسمائة دينار سنوياً تصرف على المهاجرين المغاربة وطلاب العلم منهم[1]. أما بيت المقدس فقد كان وجود المغاربة فيه واضحاً إذ خصص لهم منذ وقت طويل حارة المغاربة وسمي أحد أبواب الحرم القدسي بإسمهم. ونتيجة لاستقطاب بيت المقدس لهذا العدد الكبير من العلماء والفقهاء ورجال العلم، فقد أصبح في العصر موضوع الدراسة محجّ طلاب العلم يأتون إليه من جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي، يدرسون في مدارسه ويأخذون العلم عن علمائه. وقد شمل السلاطين المماليك رجال العلم برعايتهم واسبغوا عليهم فيضاً من تشجيعهم وعنايتهم، وتقربوا من الفقهاء والعلماء بسبب شعورهم بالغربة عن البلاد وأهلها. هذا الشعور جعلهم بحاجة ماسة إلى دعامة قوية يستندون عليها ويستعينون بها

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٥٧.

على إرضاء جماهير المواطنين. وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه ما تكون بالمعاهد العلمية العليا أو الجامعات في العصر الحاضر[١]، أما هيئة التدريس فكانت تتكون من: المدرس والمعيد والمفيد والمنتهي[٢].

وكانت المدرسة الصلاحية على رأس هذه المدارس، فوظيفة شيخ الصلاحية في قمة الوظائف الدينية في بيت المقدس، ويكون تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة[٣]. ولا يتولاها إلا من اتصف بصفات خاصة، وكان من خيرة العلماء وأشهرهم، له التصانيف والمؤلفات، وعرف بالعفة والصلاح.

ومن شيوخ الصلاحية نذكر شيخ الإسلام صلاح الدين أبو سعيد خليل بن عبدالله الدمشقي ثم المقدسي، ولد بدمشق سنة ٦٩٤هـ، وسمع الكثير ورحل في طلب العلم وبلغ عدد شيوخه ٧٠٠ شيخ. ويقول مجير الدين الحنبلي أنه (أخذ عن مشايخ الدنيا

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٥٠.

(٢) السبكي، معيد النعم ومبي النقم، ص ١٥١-١٥٥.

ولمزيد من التفاصيل عن مهمة كل أنظر للباحث تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٣٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٥٢٥.

وأجيز بالفتوى وجدّ واجتهد حتى فاق أهل عصره)[1]، درّس في دمشق ثم في القدس مدرساً بالصلاحية سنة ٧٣١هـ. وأضيف إليه تدريس الحديث بالمدرسة التنكزية بالقدس من تصانيفه:

١ - القواعد، كتاب يشتمل على علمي الأصول والفروع.

٢ - الوشي المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبي، في مجلد.

٣ - عقيلة الطالب في ذكر أشرف الصفات والمناقب في مجلد.

٤ - المراسيل والكلام على حديث ذي اليدين في مجلد.

٥ - منحة الرائض بعلوم آيات الفرائض.

٦ - كتاب في المدلّسين.

٧ - كتاب تنقيح المفهوم في صيغ العموم.

وتوفي في القدس سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)[2]

وقد خصصت الأوقاف الكثيرة لهذه المؤسسات العلمية لينفق منها على المدرسة ومدرسيها وطلابها، ففي سنة ٨٧٧هـ (١٤٧٢م) رتب السلطان الأشرف قايتباي لمدرسته في القدس ٦٠

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص١٠٦.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص١٠٧.

صوفيا، وجعل لكل صوفي في كل شهر ١٥ درهما، أما الطلبة فخصص لكل طالب في كل شهر ٤٥ درهما، أما شيخ المدرسة فجعل له في كل شهر ٥٠٠ درهم[١].

٦ - المحتسب:

الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[٢]، قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر). وهي وظيفة خلقية وسلوكية أوجدها الإسلام لتدعم أوجه التعاون والتضامن بين الجميع. والمحتسب يشرف على التجارة الداخلية والأسواق والمكاييل والأوزان، ويمنع الغلاء والاحتكار والغش والتدليس[٣]. كما يراقب سلوك المجتمع فيمنع الفسوق والفجور والتبرج وتعاطي المسكرات، ويشترط في المحتسب أن يكون حراً عدلاً ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات

---

(١) الحنبلي، المصدر نفسه، ص٤٩٢.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢٤٠.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤١.

الظاهرة[1]، ومن صفاته أيضاً الرفق في القول وطلاقة في الوجه وسهولة في الأخلاق.

أما محتسب القدس فكان نائباً عن محتسب دمشق عندما كان القدس ولاية ونيابة تابعة لدمشق[2]، إلا أنَّه استقل فيما بعد عندما أصبح بيت المقدس نيابة مستقلة. وإلى جانب محتسب القدس وجد في نيابة بيت المقدس محتسب في الخليل والرملة ونابلس وكانت تولية هؤلاء من نائب القدس وحدث في سنة ٨٨٠هـ أن أصبح تعيين محتسب الخليل بمرسوم شريف من القاهرة لأن النائب كان يفرض على محتسب الخليل مقداراً من المال، فيضطر هذا إلى التسلط على الفقراء من المتسببين والتجار لجمع هذه الأموال، ثم ألغي هذا وعاد الأمر إلى ماكان عليه سابقاً[3].

٧ - نظر البيمارستان:

أنشأ صلاح الدين الأيوبي البيمارستان الصلاحي في بيت المقدس سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م مكان الكنيسة المجاورة لدار الاسبتارية بقرب كنيسة القيامة، وزوده بكل ما يحتاج إليه من

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤١، ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأحشى، ج٤ ص١٩٩.
(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣١٤، ٣١٥.

العقاقير والأدوية، كما رتب فيه الأطباء الذين يقومون بعلاج المرضى. ووقف على هذا البيمارستان عدة مواضع، وجعل النظر على أوقاف هذا البيمارستان وأوقاف المدرسة الصلاحية والخانقاة الصلاحية إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد لعلمه وكفاءته[١] .

ومن المعروف أنّ الأيوبيين والمماليك اهتموا في إقامة البيارستانات وتدريس الطب وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين، وأصبحت البيمارستانات بالإضافة إلى مهمة التداوي، تقوم بمهمة التدريس. فكان البيمارستان ينقسم إلى أربعة أقسام، قسم للجراحة، وقسم للحميَّات، وقسم للرمد، وقسم للنساء. وكان يخصص لكل مريض تخت مستقل لنومه. وبلغ عدد الأطباء في إحدى هذه البيمارستانات في العصر الأيوبي ستين طبيباً[٢] . وكان في كل بيمارستان عدد من الصيادلة لإعداد الأدوية المركبة وتوزيعها على المرضى حسب أمر الطبيب.

---

(١) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل، ج١ ص٣٩١، ج٢ ص١٠٢.

(٢) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص١٣٤، ١٣٥، وللباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٣٨ .

وكان يعين في كل بيمارستان ناظر خاص برتبة أمير كبير، يقوم بمهمة إدارته، ووجد في بيت المقدس ناظر البيمارستان، ووصف القلقشندي هذه الوظيفة بأنها (من أجلّ الوظائف وأعلاها)[1].

* * *

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣٨.

(٣)
ثالثا: الوظائف الديوانية

١ - كاتب الدست:

ويقوم مقام كاتب السر في الرد على الكتب الواردة والصادرة عن النيابة[١]، وقراءة الكتب الواردة على النائب وكتابة أجوبتها، وأخذ خط النائب عليها، بالإضافة إلى تصريف المراسيم الواردة والصادرة إلى النيابة. وكان يشغل هذه الوظيفة في القدس أكثر من كاتب دست، نذكر منهم شمس الدين محمد ابن خضر بن داوود بن يعقوب (ت١٨٤١هـ)، وصف بأنه كان دِّيناً خيِّراً، روى وحدّث وأسمع سنين عديدة[٢].

٢- ناظر بيت المال:

ولا يتولى هذه الوظيفة إلا ذو العدالة من أهل العلم

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ص٤٦٥.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٥ ص٢١٤.

والديانة، ومهمته النظر في أموال النيابة حيث يرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله بالتصرف فيه إما قبضاً أو صرفاً[1]. وذكرت الوثيقة رقم ١٣٤ تاريخ ٧٨٥ هـ عن وجود (ناظر بيت المال) في القدس الشريف، أما الوثيقة رقم ١٤٨ تاريخ ٧٤٠ هـ فقد نصت على وجود (وكيل بيت المال بالقدس الشريف)[2]، وكان يقوم بهذه الوظيفة أحياناً ناظر الشريف، ووجد في بيت المقدس بيت المال ونعتته وثائق المتحف الإسلامي في القدس (ببيت المال المعمور بالقدس الشريف)[3]. وذكر القلقشندي أنَّ معظم الوظائف كانت موجودة في نيابة بيت المقدس[4]، مثلها في ذلك نيابة دمشق والكرك وصفد وغزة وغيرها.

٣- ناظر الجيش:

وموضوعها التحدث في الإقطاعات الخاصة بنيابة بيت المقدس، والكتابة بالكشف عنها، وأخذ خط النائب عليها بعد

---

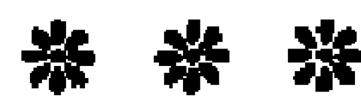
(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٣١، ج٥ ص٤٦٥.

(٢) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس رقم ١٣٤ تاريخ ٧٨٥هـ، ورقم ١٤٨ تاريخ ٧٤٠هـ.

(٣) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس رقم ١٣٨ ورقم ١٣٩ تاريخ ٧٤٥ هـ ورقم ١٤٩ تاريخ ٧٩٥هـ.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.

أخذ رأيه، وضبط الإقطاعات للأمراء والأجناد في النيابة. ثم الكتابة إلى السلطان عن الإقطاعات المتوفرة عن أصحابها بالموت ونحوها، حيث تحمل إلى ديوان الجيش بالديار المصرية، وبمقتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هذه الإقطاعات[١]. ولهذه الوظيفة ديوان خاص يثبت فيه المناشير الخاصة بالإقطاعات المقطعة في النيابة، والصادرة من السلطان في القاهرة؛ ويساعد الناظر في مهمته كتاب وشهود[٢].



(١) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤ ص ١٩٠.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤ ص ٣١.

(٤)
رابعاً: جيش نيابة المقدس

تردد في المصادر عن وجود قوات في نيابة بيت المقدس، مما يؤكد أن جيشاً خاصاً وجد بها، مثلها في ذلك مثل بقية نيابات بلاد الشام. ولدينا إحصائية بعدد جيوش نيابات بلاد الشام أوردها ابن شاهين الظاهري، ولكنه لم يورد شيئاً عن عدد جيش بيت المقدس[١]. وبذا لا نستطيع إعطاء رقم صحيح لعدد هذا الجيش، وإن كنا نرى بالمقارنة بجيوش نيابات كل من حماة وصفد والكرك[٢]، أنَّ جيش نيابة بيت المقدس كان بحدود الألف فارس ما عدا الرجالة ورجال القبائل العربية في جبل القدس والخليل وجبل نابلس.

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص١٠٤، وللباحث: تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري) ص٢١.

وقد اشتركت قوات بيت المقدس في قمع الفتن في النيابة نفسها وفي خارجها، وفي التجاريد والحروب التي خاضها المماليك ضد العثمانيين. ففي سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ثارت عربان بني عقبة في شرقي الأردن على نائب الكرك، فطلب السلطان إلى نائب القدس ونائب غزة نجدة نائب الكرك[١]. إلا أنه في نفس الوقت أسرّ لنائب غزة إلقاء القبض على نائب الكرك، فألقى النائبان القبض عليه حسب رغبة السلطان، وأرسل مع نائب القدس إلى دمشق حيث سجن بقلعتها[٢]. وفي سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) اشتركت قوات القدس بقيادة نائبها الأمير شاهين الذباح في قتال نائب دمشق تنبك البجاسي الثائر في دمشق، بالاشتراك مع قوات مصر وصفد، وتمكنوا من القاء القبض عليه، واعتقاله في قلعة دمشق[٣]. ثم اشتركت قوات بيت المقدس مع قوات مصر وصفد في سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م) لمحاربة الأميراينال

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤ ق١ ص٤٤٦.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج٤ ق١ ص٤٥١.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٤ ص ٢٦٥، ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ص٣٩، ٤٤. وأنظر:
الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٤.

الجكمي نائب دمشق الخارج عن الطاعة، فحاربوه وهزموه وألقوا القبض عليه[1].

وفي أواخر دولة المماليك الثانية قام المماليك بإرسال التجاريد لمحاربة شاه سوار وأعوانه الذين صاروا يضغطون بشدة على حدود دولتهم الشرقية والشمالية. وقد اشتركت القوات من بلاد الشام في هذه التجاريد، وخصوصاً الرجال المجندون من جبل القدس والخليل وجبل نابلس[2]. ففي سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) اشتركت قوات بيت المقدس بقيادة نائبها الأمير يوسف الجمالي في قتال شاه سوار صحبة القائد الأمير يشبك الدوادار. فهزما شاه سوار وألقيا القبض عليه، واستولت القوات المملوكية على البلاد التي كان قد استولى عليها، وكانت قوات بيت المقدس قد عادت من هذه التجريدة في ٢٣ شعبان ٨٧٦هـ[3].

---

(١) المقريزي: السوك، ج٤ ق٣ ص١١١٢، ١١١٣، ١١٣٧، ١١٣٨.

(٢) وقد قتل شاه سوار الكثير من الجيش المملوكي، فابن أياس يذكر القتلى في إحدى هذه التجاريد (وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن حصره). (أين أياس، بدائع الزهور، ط الشعب ص ٤١٣).

(٣) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٢٩١. وأنظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦، ويصف ابن أياس نهاية شاه سوار ويذكر أنه اقتيد إلى القاهرة حيث أعدم على باب زويلة سنة ٨٧٧هـ. (بدائع الزهور، ص٤٣٩).

وفي سنة ٨٨٩هـ (١٤٨٤م) بدأت الخلافات بين السلطان لأشرف قايتباي والسلطان بايزيد بن عثمان ملك الروم[١]، فجهز الأشرف قايتباي القوات لقتال ابن عثمان وحليفه علي دولات أخي سوار، وأرسل يطلب القوات من بلاد الشام. فقام الأمير جانم نائب القدس بإعداد القوات من القبائل العربية وأهالي جبل نابلس والقدس، وسار بهم إلى الرملة حيث التقى مع الجيش لمملوكي القادم من مصر بقيادة الأمير تمراز التمشي[٢].

واستمرّت الحروب بين الطرفين، فأرسل السلطان في السنة التالية تجريدة لقتال ابن عثمان، وصفها ابن إياس بأنها (من أعظم التجاريد)[٣]، ولكن السلطان اضطر إلى جمع الأموال والرجال من أنحاء الدولة (وحصل للناس من المماليك ما لا خير فيه، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك، مما حصل به الضرر الشامل

---

(١) ابن أياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥١٨.

(٢) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٣٣٢. ويقول ابن إياس إن هذه الحادثة أول الفتن مع ابن عثمان بسبب تعصب الأخير لعلي دولات، واستمرت الحرب بين العثمانيين والمماليك حتى انتهت بسقوط الدولة المملوكية.
(بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٢٢).

(٣) ابن أياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٢٨.

وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة)[1]. حتى إن العلماء والفقهاء لم يسلموا من ذلك، ففي سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م)، قدم الأمير ماماي الخاصكي إلى بيت المقدس ورسم على أكابر الناس وأخذ منهم مالاً، فأخذ من ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي أربعة بغال وحصاناً، ومن النائب جانم ٢٠٠ دينار، ومن شيخ الصلاحية ٣٠ ديناراً ومن القاضي فخر الدين بن نسيبه ٤٠٠ دينار، ومن القاضي شهاب الدين الجوهري ٣٠٠ دينار، وحصل للناس في بيت المقدس منه شدة[2]. ثم قدم بعده الأمير آقبردي الدوادار لتجهيز الرجال من جبل نابلس والقدس لقتال بايزيد بن عثمان ملك الروم، وصار يتنقل من مكان إلى آخر لجمع الرجال ودفع النفقات لهم. فتارة ينزل بأرض قاقون وتارة بأرض اللجون[3] وتارة بالرملة، وأثناء إقامته في جبل

---

(١) ابن أياس: المصدر نفسه، ص٥٢٩.

(٢) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٣٣٥.

(٣) قاقون: حصن يقع في فلسطين بجوار طولكرم، وكان يتبع لإقليم قيسارية الواقعة على الشاطئ، وورد ذكره في المصادر الصليبية كاكو، شاكر. (لي سترانج، ص٤٣٨).

اللجون: بلدة تقع في حد فلسطين مع الأردن على بعد ٢٠ ميلاً عن طبرياأو ٤٠ ميلاً عن الرملة. وهناك اللجون الواقعة في البلقاء بشرقي الأردن على طريق الحج. (لي سترانج، ص٤٦٣، ٤٦٤).

نابلس أبقى الشيخ خليل بن إسماعيل في مشيخة جبل نابلس على عادته[1].

ولكن الصراع مع ابن عثمان والمماليك أخذ يزداد ويستشري، ففي سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٨م) أمر السلطان إعداد القوات لمحاربة ابن عثمان، فأرسل الأمير آقبردي الدوادار والقاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر إلى جبل نابلس والقدس لتجهيز القوات للاشتراك في التجريدة[2]. وحضر أعيان بيت المقدس للقائهما في الرملة، فسلم الأمير آقبردي لنائب القدس وقاضيها مبلغ خمسة آلاف دينار ليصرفها على الرجال المعينين من جبل القدس والخليل[3]. وعند تمام استعدادهم غادرت القوات بيت المقدس، في مستهل رجب، وانضمت إلى قوات جبل نابلس. ومنها سارت العساكر المقدسية والنابلسية لمحاربة ابن

---

(١) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٣٣٥. ويذكر ابن أياس إن آقبردي حضر لخماد الفتن التي حدثت بين عربان جبل نابلس والتي قتل فيها العديد من الأمراء ونذكر منهم الأمير آقيردي بن بخشايش إلا ينالي استادار الأغوار.

(بدائع الزهور، ط الشعب، ص ٥٣١).

(٢) ابن أياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٤٧.

(٣) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤٢.

عثمان وحصلت (الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس إلى بلاد الروم)[1].

وقد عاد بعض رجال هذه التجريدة إلى بلادهم دون إذن من قادتهم، فعمد السلطان إلى إرسال الأمير آقبردي الدوادار إلى جبل نابلس والقدس وطلب من نائب القدس دقماق استرجاع مال التجريدة ممن دفع إليه من الرجال. فاسترجع دقماق الأموال بالضرب والحبس بالضرب والحبس والتعذيب (وفعل بهم فعلاً لم يسمع بمثله في الجاهلية، حتى إن بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق، وتفاحش الأمر وبقي الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالأرض المقدسة من قبل)[2]. ومع ذلك فإن تجهيز المحاربين من القدس ونابلس بقي قائماً، ففي سنة ٨٩٥هـ (١٤٩٠م) أرسل السلطان الأمير أزبك لجمع الرجال من جبل القدس وجبل الخليل ونابلس وغيرها من المناطق الفلسطينية للاشتراك في حرب بايزيد ابن عثمان، وحصل للناس شدة بسبب ذلك[3]. ثم انضمت هذه القوات إلى قوات الجيش المملوكي القادم من القاهرة، وقد

---

(١) الحنبلي: المصدر نفسه، ج٢ ص٣٤٣.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص٣٤٨.

وصف ابن أياس هذه التجريدة بأنها من نوادر التجاريد لكثرة ما اشترك فيها من الأمراء والأجناد[١]. وتؤكد المصادر إن الطاعون الذي اجتاح البلاد سبع سنوات أفنى عدداً كبيراً من الجيش المملوكي[٢]، لذا عمد المماليك إلى تجنيد الرجال من نيابة بيت المقدس بسبب كثافتها السكانية ولما عرف عن رجالها من البأس والقوة.

وكان جيش نيابة بيت المقدس كغيره من جيوش النيابات الأخرى في بلاد الشام، يشتمل على امراء وأجناد ومماليك، وهو جيش إقطاعي، لذا وزعت على الأمراء والأجناد الإقطاعات في أنحاء النيابة. وكان هذا الجيش يصغر ويكبر حسب الظروف، فهو في تقديرنا ألف فارس نظامي ما عدا الرجالة (المشاة) ومماليك الأمراء، ويبلغ أحياناً الألوف ويضم عندئذ رجال القبائل والعشير في جبل القدس والخليل وجبل نابلس، وكان السلطان يصرف لهم النفقات والجوامك كما رأينا.

* * *

---

(١) ابن أياس، بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٥٩.

(٢) Kedar, Merchants In Crisis, Yele, U. S.A. 1976, P. 14.

(٥)
خامساً: القلعة

قلعة بيت المقدس قلعة إسلامية ذكرها الجغرافيون العرب كالأصطخري والمقدسي وابن حوقل، وأشاروا إلى أنها بناء مستطيل مبني من الحجر، فالقادم إلى القدس من جهة الرملة تكون القلعة أول بناء يقع نظره عليه، فهي مرتفعة شامخة[١]. وتقع القلعة في الجهة الغربية ضمن أسوار المدينة[٢]، وفوق باب الخليل مباشرة. وقد بنيت في هذا المكان كي تدافع عن أحد

---

(١) لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ص ١٨٨، وأنظر: ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م، ص٥٦.

(٢) كانت بعض القلاع تبني ضمن أسوار المدينة وتشكل جدرانها جانباً من الأسوار وتلاحظ ذلك في (القدس، والكرك، وعسقلان، وبانياس)، وبعضها يبني مستقلاً عن أسوار المدينة، كما في (قيسارية، وعكا، والقاهرة) .Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land. P. 273.

المداخل الرئيسية للمدينة المقدسة ولتؤكد أهميتها الدفاعية بجلاء أثناء الحصار[1]. وهي قلعة حصينة كبيرة ظلت تؤدي دورها في العصور المختلفة، وكانت مكان إقامة والي بيت المقدس، وحتى أثناء الاحتلال الفرنجي للقدس بقيت القلعة تلعب دورها العسكري، وعندما احتل صلاح الدين الأيوبي القدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، أعاد ترميم هذه القلعة وشحنها بالرجال والعتاد، ورتّب فيها والياً يساعده بعض الأجناد[2]. وفي سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) أعاد المعظم عيسى صاحب دمشق ترميم القلعة وزاد في أبراجها برجاً وأثبت ذلك على لوحة تأسيسية نقش عليها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله خير نصر المؤمنين عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبي المظفر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي وتولى عمارته عز الدين عمر بن يغمر

---

(١) Ibid.. P. 274.

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص١٤٥.

المعظمي في شهور سنة عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين ويشد الفقير إلى رحمة الله خطلخ المعظمي(١).

ثم إن القلعة تعرضت للهدم من قبل المعظم عيسى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، من قبيل الحيطة كي لا يحتلها الفرنج ويتحصنوا خلف أسوارها. فهدم القلعة وأسوار القدس، وأبقى على برج داود أحد أبراج هذه القلعة(٢). ونتيجة لذلك غادر العديد من السكان المدينة، فقسم اتجه إلى دمشق، وآخر إلى الكرك وثالث إلى مصر(٣).

---

(١) Van Berchem, Corpus Inscriptionum, Derusalem), P. 132. وورد في النقش اسم (خطلخ المعظمي)، وهو مبارز الدين بن خطلخ) أحد أمراء المعظم عيسى، وقد ساءت العلاقة بينه وبين سيده المعظم، فأرسله إلى مصر سنة ٦١٦هـ نجده لأخيه الكامل محمد أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، ورافقه الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي.
(ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤ ص٢٣, ٢٤).

(٢) Bracles, Recueil des Historiens, H. occ. Vol. 2, P. 379. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٢٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢، المقريزي، السلوك، ج١ ص٢٠٤.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ص٣٩٥، السلامي، مختصر التواريخ، لوحة ٣٢٢ (مخطوط)، وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٠١.

وفي سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) سلَّم الكامل محمد سلطان مصر المدينة المقدسة إلى الإمبراطور فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة، ونصَّت شروط المعاهدة المعقودة بين الطرفين أن تبقى أسوار القدس وقلعتها خرابا. إلا أن الفرنج انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بخلافاتهم الداخلية فعمدوا إلى بناء القلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها. ولكن الملك الناصر داود أمير الكرك هاجم الفرنج في بيت المقدس وحرَّره من سيطرتهم وذلك في سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، فتحصَّن الفرنج في برج داود، فحاصرته قواته حتى تمكنوا منه فهدم الناصر هذا البرج وسوَّاه بالأرض(١). أما القلعة نفسها، فقد أرسل للخليفة في بغداد يستشيره أيهدمها أم يبقيها لتكون معقلاً لبيت المقدس وموئلاً للمجاورين فيه؟(٢)، والظاهر أنَّ الناصر داود أبقى القلعة ولكنه بنى مكان برج داود مسجداً وجعل فيه القُوَّام والمؤذنين(٣).

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٣٢، وانظر:

. Van Berchern, Corpus inscriptionum Derusalem). P. 134.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٣٢. وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٥٨.

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٢٣.

ثم إن الناصر محمد بن قلاوون جدَّد بناء هذه القلعة بعد أن انهدمت بعض أجزائها[١]، وبني فيها الجامع الحالي سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) وأثبت ذلك على لوحة تأسيسية عليها النقش التالي :

بسمله... أنشأ هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاون أعز الله نصره في تأريخ سنة عشرة وسبعمائة حسبنا الله ونعم الوكيل[٢].

وبقيت القلعة تؤدي دورها في حماية المدينة المقدسة ومكاناً لإقامة الوالي حتى العصر المملوكي، فأصبح في القدس نائبان ووالي. والذي كان يقيم في القلعة سمي (نائب القلعة) أو والي القلعة[٣]، وكان التعيين فيها يتم من قبل نائب القدس[٤]، أما

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٠١.

(٢) Van Berchem, Corpus inscriptionum (Jerusalem). P. 160. أشرنا إلى إن الناصر داود هو الذي بنى الجامع مكان برج داود، ولكن هذه اللوحة تروي أنَّ هذا الجامع هو من بناء الناصر محمد بن قلاوون، لذا فاننا نرى أنَّ محمد بن قلاوون جدد بناءه وأثبت ذلك في هذا النقش.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩، ج١٢ ص٣٢٥، الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.

نائب السلطنة فكان يقيم في (دار النيابة). وكان لدى نائب القلعة الأجناد لمساعدته في حفظ الأمن والنظام والدفاع عن المدينة المقدسة، بالإضافة إلى أنَّ القلعة كانت مخزناً للمؤن والذخائر والأسلحة. ويتبع نائب القلعة عادة البريد، فكانت هناك أبراج للحمام الزاجل ولا يأتمر البريدي إلا بأوامر نائب القلعة. ووجد في قلعة القدس الطبلخاناه التي كانت تدق ليلاً لتعلم الناس بأوقات الليل، وكانت تشترك في الاحتفالات وكذا أثناء خروج النائب من المدينة أو عند استقبال زائر أو تعيين نائب جديد. وممن تولى نيابة هذه القلعة نذكر: شرف الدين موسى الردادي تولى هذا المنصب من قبل السلطان في القاهرة، والظاهر أنَّ التولية فيها أصبحت فيما بعد من قبل السلطان[1]. وبقيت القلعة تؤدي دورها في العصر العثماني، فرممها السلطان سليمان الثاني في سنة ٩٣٨هـ(١٥٣١م)، وأثبت ذلك في نقش كتابي نقله إلينا برشيم في كتابه[2].

* * *

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢ ص ٣٢٥، وأنظر نص التوقيع في الملاحق.

(٢) Van Berchem, P. 147.

(٦)
سادساً: ولاية نابلس والرملة والخليل

اتسعت نيابة بيت المقدس فاشتملت على كل من: الرملة ونابلس والخليل، وكان طبيعيا أن تكون الخليل تابعة للقدس، إذ إن نائبها في أحيان كثيرة كان يتولى نيابة بيت المقدس ونظر الحرمين في القدس والخليل. أما الرملة فكانت موضع نزاع بين نيابة غزة ونيابة بيت المقدس، ففي أحيان تتبع غزة وفي أخرى تكون تابعة للقدس، ولكن في أواخر دولة المماليك الثانية صدر المرسوم السلطاني بضم كشف الرملة إلى نيابة بيت المقدس[1].

أما في اوائل دولة المماليك الأولى فإن اللد والرملة كان يتولاها الأمير غرس الدين بن شاور وذلك سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م)[2].

وكانت نابلس أيضاً ضمن أملاك نيابة بيت المقدس، فالمرسوم

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧٣, ٣٧٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٧١٥.

السلطاني كان ينص على تولية نائب بيت المقدس (نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس)[1]. وجرت العادة أن يعيّن النائب في كل من الرملة ونابلس (كاشفاً) ينوب عنه في حكم الولاية[2]. ويذكر الخالدي أنّ متولي نيابة بيت المقدس يكون من الأبواب الشريفة في القاهرة، ويضاف إليه نظر القدس والخليل وربما أضيفت إليه الرملة ونابلس[3]. ووجد في كل من الرملة ونابلس قوات كانت تساعد الوالي في نشر الأمن في ربوع الولاية، وربما كلفت تلك القوات في مهمات خارج الولاية كالقضاء على الفتن والخارجين على الدولة[4].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢ ص٩٧٥،
ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ص٣٤٨.
وفي سنة ٨٤٠هـ ولى السلطان برسباي الأمير طوغان العثماني نظر الحرمين الشريفين ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولي الصلت وعجلون واستادار الأغوار.
(الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٥).

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧٤. ومن الذين تولوا كشف الرملة (الجمالي يوسف).

(٣) الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

(٤) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٤٤٦.

أ- نابلس:

ونابلس من مدن فلسطين المشهورة، ذكرها الجغرافيون والمؤرخون العرب والمسلمون، وتبعد عن القدس مسافة ٧٥كم، وحولها معاملة جميلة كثيرة الخيرات، وتكثر فيها المياه الجارية والحمامات والمساجد والمدارس، نذكر منها المدرسة الفخرية التي بناها القاضي فخر الدين أبو عبدالله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بالديار المصرية في عهد الناصر محمد بن قلاوون[١].

ويذكر ابن بطوطة الذي زارها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أنّها تشتهر بالأشجار وخصوصا أشجار الزيتون، ويصدَّر زيت الزيتون إلى دمشق والقاهرة وإلى جزر البحر المتوسط، ويصنعون منه الصابون الجيد[٢]، لذا انتشرت المصابن في نابلس لصنع الصابون[٣]. ويذكر الدمشقي أنَّ قسماً من هذا الزيت كان يرسل إلى دمشق لإضاءة الجامع الأموي وبلغ ألف قنطار شامي سنوياً[٤]. وفي نابلس كانت تصنع حلواء الخروف

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٢٩٦.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦. Benvenisti, The erusaders In the Holy Land, P. 161.

(٣) Van Berchem. Corpus insciptionum, (Ierusalem), P. 11.

(٤) لي سترانج، ص ٤٨٧.

وتصدر إلى دمشق ومصر وغيرها[1]، كما كثرت فيها أماكن صنع الورق (الوراقة)[2] واستخدموا حلفاء الأغوار لهذه الغاية.

ولكثرة مايخص السلطان من زيت نابلس فقد كان يفرض بيعه على أهالي وتجار الرملة والقدس والخليل وغزة بأسعار باهظة مما يسبب تذمر واستياء الأهالي[3].

وقد لعبت منطقة جبل نابلس دوراً له أهميته في أواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة)، فللكثافة السكانية التي كانت تتمتع بها أصبحت مصدراً لجمع الرجال وتجنيدهم لحرب ابن عثمان بعدما أصبحت القوة المملوكية تضعف تدريجياً بسبب قلة مواردها الاقتصادية وتحول طرق التجارة العالمية عن ممتلكاتها في مصر والشام.

وكان يحكم نابلس أمير أو كاشف يعيَّن من قبل نائب بيت المقدس يساعده بعض الأجناد في حفظ الأمن والنظام في الولاية، رتبته أمير طبلخاناه ومن أمراء الطبلخاناه الذين تولوا نابلس الأمير أبو القاسم بن عثمان بن أبي القاسم التميمي

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦، ٥٧.

(٢) Van Berchem, Corpus. P. 214.

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧٣, ٣٧٤.

(ت٧٦٠هـ)[1] وفي أحيان يتولاها أمير برتبة أمير عشرين أو أمير عشرة[2]. إلا أنَّ التعيين في ولاية نابلس أصبح فيما بعد من السلطان في القاهرة، وقد نقل إلينا القلقشندي نسخة توقيع بولاية نابلس من إنشاء ابن نباتة، طلب السلطان فيه من الوالي مراقبة الأمن والمحافظة على أرواح وأرزاق المواطنين وإصلاح أمور العشير في جبال نابلس[3].

ب - الرملة:

الرملة مدينة قديمة وجدت في العصر البيزنطي ونالت إهتمام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك فجدد بناءها عندما

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص٢٠٠.

أمير عشرة: والجمع أمراء العشرات، وهم الطبقة الثالثة في صفوف الأمراء المماليك، ولكل أمير عشرة عشرة فوارس. أما أمراء العشرين فهم الطبقة الثانية في صفوف الأمراء المماليك وكل أمير عشرين له عشرون فارساً. وطبقة أمراء العشرة هم أكثر طبقة في الجيش المملوكي.

(القلقشندي. صبح الأعشى. ج٤ ص١٥).

وللباحث، غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، جمعية المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١، ص ٣٤ هامش رقم٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٢٢، وأنظر نص التوقيع في الملاحق.

كان أميراً على فلسطين واتخذها حاضرة جنده[1]، فهو أول من مصرَّها وجعلها من المدن الفلسطينية الهامة. وتبعد الرملة عن القدس مسافة ١٨ ميلاً، وتقع في منطقة خصبة تحيط بها المزارع والحقول، وقد أطنب الجغرافيون العرب في وصف حسنها وجمالها ونظافة شوارعها وكثرة فنادقها وإتساع مساجدها، وأنَّها ذات تجارة رائجة وأسواق مملؤة بالسلع والبضائع المختلفة[2].

. وذكر ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أنَّ معظم بيوت الرملة زينت بالرخام المنقوش الكثير الزينة والذي اشتهرت به المنطقة المحيطة، وهو أنواع منه: الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض[3]. أما ابن بطوطة فقد زارها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فذكر أنها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض الذي بناه الخليفة سليمان ابن عبد الملك، وهو جامع كبير في غاية الحسن والجمال[4].

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص١٨١.

(٢) الأدريسي، نزهة المشتاق (القسم الخاص ببلاد الشام)، ص٤.

لي سترانج، ص٢٥٣.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٤, ٥٥.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦.

وكان يحيط بمدينة الرملة سور متين ولها قلعة حصينة هدمها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد أن حررها من الفرنج، وكانت عادة هدم أسوار المدن والقلاع منتشرة في العصر الأيوبي، وفعل بعض السلاطين المماليك ذلك منهم الأشرف خليل بحجة منع الفرنج من إعادة احتلالها والتحصن خلف أسوارها. فالعادل هدم قلعة الطور وكوكب الهواء، والمعظم عيسى هدم أسوار القدس، أما الأشرف خليل فهدم أسوار عكا وصيدا وبيروت وصور وحيفا وعثليت وانطرسوس[1]. وقد تلاشت أسوار الرملة وقلعتها في العصر المملوكي، ولكن أسواقها بقيت عامرة كثيرة متشعبة نذكر منها: سوق القماحين، وسوق البصالين، وسوق القطانين، وسوق المشاطين الذين يمشطون الكتان، وسوق العطارين، وسوق الحبابين، وسوق الخرازين، وسوق البقالين، وسوق الصياقلة، وسوق السراجية[2]. وقد اهتم السلاطين المماليك بمدينة الرملة وأقاموا فيها بعض المنشآت نذكر منهم: الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والظاهر جقمق وغيرهم.

---

(١) Prawer. The Latin Kingdom. P. 379.

وللباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص١٣٥، ١٤١.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٩٨.

وكان يتولى مدينة الرملة واللد أمير وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس، وبقي الأمر كذلك حتى عهد السلطان قلاوون، ففي سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) ألقى السلطان قلاوون القبض على الأمير غرس الدين بن شاور متولي الرملة، ولد، وولى عوضه الأمير علم الدين سنجر الصالحي[١]. وبقيت ولاية الرملة حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون ولاية صغيرة، إلا أنَّ السلطان برقوق رفع رتبة متوليها فأصبح (كاشفاً) طبلخاناه[٢]، وأضيفت إليه اللد، وممن أصدر السلطان لهم توقيعاً بكشف الرملة الأمير أبو بكر أمير علم[٣]. وباعتقادنا أنَّ الظاهر برقوق رفع رتبة متولي الرملة في نفس الوقت الذي جعل من القدس نيابة مستقلة. وكان كاشف الرملة في سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) الأمير تغري برمش[٤]، وفي سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) اشترك كاشف الرملة مع نائب القدس وغيره في نجدة نائب الكرك ضد قبائل بني عقبة الثائرة هناك[٥].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣ ص٧١٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.

(٣) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١٢ ص٣١٥.
وأنظر نص التوقيع في الملاحق.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٣ ص٧٥.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص٤٤٦، ٤٥١.

وتحولت الرملة فيما بعد إلى استادارية تماماً كاستادارية الأغوار لأهميتها وأصبح متوليها أمير برتبة استادار. وممن تولى استادارية الرملة الأمير شاهين الكيالي الذي بني فيها منارة ومسجداً وأوقف عليه أوقافاً كثيرة وذلك سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٠م) في عهد السلطان جقمق(١). ومع ذلك بقيت استادارية الرملة تابعة لنيابة بيت المقدس، إذ كان المرسوم يصدر من القاهرة بأن يكون لنائب القدس حق الكشف على الرملة ونابلس كما حدث سنة ٨٣٩هـ (١٤٣٥م) فقد عين السلطان الأشرف برسباي الأمير طوغان نائباً لبيت المقدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس(٢). وهناك نقش حجري محفوظ في المتحف الإسلامي في القدس عليه مرسوم صادر عن السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) لكاشف الرملة يطلب منه عدم معارضة التركمان هذا نصه:

١- المراسيم بالأمر الشريف السلطاني الملكي الأشرفي.

٢ - أبو النصر قايتباي عز نصره إلى كاشف الرملة ...

٣ - كاشف أنه لا يعارض التركمان الفرات ولا يطلب منهم.

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٦٩، ٧٠.

(٢) المقريزي، السوك، ج٤ ق٢ ص٩٧٥، وأنظر: الخالدي، المقصد الرفيع، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

٤ - بإخارة ولا يطفهم الدرهم الفرد كل من خالف ذلك يخالف.

٥ - الأمر الشريف بتاريخ تاسع صفر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة[١].

ولكن الرملة كانت في أحيان أخرى تابعة لنيابة غزة مما يسبب نزاعاً وخلافاً بين النيابتين فعمد السلطان قايتباي سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م) إلى نقل كشف الرملة نهائياً إلى نيابة بيت المقدس وأصدر مرسوماً بذلك بأن جعل التكلم على كشف الرملة للأجير جان بلاط ناظر الحرمين ونائب القدس وأخرجت عن الأمير قاني بك نائب غزة[٢].

جـ - الخليل:

تقع الخليل إلى الجنوب من بيت المقدس في واد بين الجبال، وذكر الجغرافيون العرب والمسلمون كالأصطخري والمقدسي وناصر خسرو والإدريسي وياقوت أنها تشتهر بالأشجار الكثيرة المتنوعة كالزيتون والتين والجميز والعنب والتفاح والخروب، وفاكهتها لا مثيل لها ويصدر قسم كبير منها إلى مصر والبلاد

---

(١) Levant. Vol. XI, 1979. P. 135.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧٣.

المجاورة[1]، كما تجود فيها زراعة القمح والشعير[2]، وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل الذي دفن في مغارة تحت الأرض، وله مسجد وزوار، وقد وقفت بلد الخليل مع قرى أخرى كثيرة على هذا المشهد[3].

وأصبح بلد الخليل في العصر المملوكي إقطاعاً لنائب الكرك، ففي سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) منح الملك الظاهر بيبرس الأمير عز الدين أيدمر الظاهري بلد الخليل اقطاعاً له، ثم انتزعه منه ومنحه لنائب الكرك الجديد الأمير علاء الدين أيدكين الفخري[4]. ومن المعروف أنّ الخليل كانت في العصر الصليبي تقع تحت سلطة لوردات بارونية شرقي الأردن (الكرك)[5].

---

(١) لي سترانج، ص٢٥٧.

(٢) ناصر خسرو، سفرتامه. ص ٧٣.

(٣) ناصر خسرو. سفرتامة. ص٧١. ياقوت، معجم البلدان، ج٣ ص٤٢٦.

ابن بطوطة، الرحلة، ص٥١.

(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة. ج٣ ص٢٤٢، وللباحث، شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى القسم الحضاري، ص٧.

(٥) Benvenisti, op. cit.. p. 13.

وكان في بلد الخليل قلعة حصينة مبنية بحجارة ضخمة مربعة ملاصقة للمسجد من جهته الغربية، إلا أنَّ السلطان الناصر حوَّل هذه القلعة إلى مدرسة ووقف عليها أوقافاً عديدة[1]. ويؤم الخليل العديد من الزوار وقد أعد لهؤلاء الضيوف والزائرين والمسافرين (مضيف) يقوم على خدمتهم وتقديم الطعام إليهم. لذا أقيمت الطواحين التي تدار بواسطة البغال والثيران لطحن الدقيق، وأعدت الخادمات في هذا المضيف لخبز الأرغفة طوال اليوم. ويقدم لكل شخص يومياً رغيف مستدير وطبق من العدس المطبوخ بالزيت وشيء من الزبيب، ويذكر ناصر خسرو أنَّ الزوار كانوا يبلغون في بعض الأيام خمسمائة زائر[2]. وقد توقفت هذه الخدمة في فترة الصراع الصليبي في الأراضي المقدسة، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أعادها كما كانت سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) كما رتب الرواتب للمقيمين والواردين إلى مدينة الخليل[3].

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٣ ص٤٢٦، الأنس الجليل، ج٢ ص٧٨، لي سترانج، ص٢٥٧.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٧٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٠٥.

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) زار ابن بطوطة الخليل فذكر أنها مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار، حسنة المنظر، في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل[١]، ومن أسواقها تذكر: سوق الحصرية، وسوق الزياتين، وسوق الغزل[٢].

وقد عمد الناصر محمد بن قلاوون إلى جعلها ولاية وعين فيها والياً مستقلاً وبقيت كذلك حتى تحول القدس إلى نيابة مستقلة، فأضيفت بلد الخليل إلى نيابة بيت المقدس، وصار النائب يتولى -بالإضافة إلى بيت المقدس- نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل[٣]. وكانت مدينة الخليل في العصر المملوكي تحتوي على حارات عديدة منها: حارة الأكراد وتقع شرقي المسجد، ثم حارة الجبارية، وحارة المشرفية، وحارة السواكنة، وحارة النصارى، وحارة اليهود، وحارة الزجاجين، أما حارة الدارية فتقع غربي المسجد وهي أحسن الحارات وفيها معظم أسواق البلد[٤].

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥١.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩.

(٤) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٨.

وأقيم في الخليل في العصر المملوكي العديد من المدارس كمدرسة السلطان حسن. والمدرسة الفخرية نسبة إلى القاضي فخر الدين أبو عبدالله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)[١]، والمدرسة القيمرية وتقع قرب عين الطواش وبجانب باب المسجد الشمالي[٢]. وهناك العديد من الزوايا والأربطة والمساجد التي أقامها المماليك في الخليل منها: زاوية القواسمة، والزاوية البسطامية، والزاوية السمانية، وزاوية شيخون، والزاوية القادرية، ورباط مكي ويقع غربي المدينة، ورباط الجماعيلي بحارة النصارى، والرباط المنصوري نسبة إلى السلطان قلاوون ويقع تجاه باب القلعة. ومسجد ابن عثمان الواقع بسوق الحصرية والزياتين، والمسجد الجاولي نسبة إلى الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ومسجد مسعود وغيرها كثير[٣]. ومن المعالم الهامة في الخليل البيمارستان المنصوري، بناه السلطان قلاوون سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ووقف

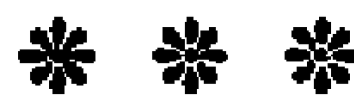
(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٩، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ١٩٦١م، ص٢٤٦.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٨.

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٩, ٢٧٢.

عليه الأوقاف العديدة، ورتب فيه الأطباء لخدمة سكان بلد الخليل[1].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري كانت الدولة المملوكية في طور الإنحدار والضعف، ولم تقو على الصمود أمام ضغط العثمانيين، فعمد السلاطين إلى تجنيد الرجال من جبل الخليل لقتال ابن عثمان ملك الروم[2]، وهذا دلالة على أنّ الديموغرافية السكانية في الخليل ومعاملتها كانت كبيرة وكثيفة، لذا عمد السلاطين المماليك إلى تجنيد الرجال وتسخيرهم للقتال في صفوف قواتهم. ولم تذكر المصادر عن وجود والي مستقل لمدينة الخليل، كما كان في كل من الرملة ونابلس فكان في كل كاشف يعين من نائب القدس، أما الخليل فكانت تتبع نائب القدس مباشرة، وناظر الحرمين فيهما ناظر واحد.



(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٧٩.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤٨.

الفصل الثالث

الحياة الإقتصادية في نيابة بيت المقدّس

١ - الزراعة واقطاع الأراضي

٢ - التجارة الداخلية والخارجية

٣ - المكاييل والأوزان

٤ - السكة

٥ - الموارد المالية

٦ - الأوقاف

(١)
الزراعة واقطاع الأراضي

كانت أراضي نيابة بيت المقدس اقطاعات عسكرية شأنها في ذلك شأن بقية الأراضي الشامية والمصرية معاً، ويرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري أنَّ تحولاً هاماً دخل إلى العراق بعد التغلب البويهي في القرن الرابع الهجري وذلك بمنح الجند (اقطاعات) بدل العطاء، وشمل هذا الاقطاع أنواع الأراضي كلها، وهذا ما يسمى (الإقطاع العسكري)[١]، وتطوَّر هذا الإقطاع في العصر السلجوقي فأتموا ما بدأه البويهيون، فمنح السلاجقة الإقطاع لجنودهم بدل العطاء، وكانت سعة الإقطاع تتناسب وعدد المقاتلين الذين يقدمهم المقْطَع، وهو على هذا يتمتع بنفوذ محلي في إقطاعه[٢]. وعن السلاجقة نقل الزنكيون

---

(١) عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، فصلة من مجلة المجمع العراقي، بغداد. ١٩٧٠، ص ٤ , ١٥.

(٢) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص ٢١، وانظر : السبكي، طبقات الشافعية، ج٣ ص ١٣٩.

والأيوبيون والمماليك نظام الإقطاع العسكري، ونشروه في مصر وبلاد الشام.

ودخل النظام الإقطاعي العسكري للأراضي الفلسطينية منذ دخول السلاجقة إلى بلاد الشام في القرن الخامس الهجري، حتى أن بيت المقدس كان اقطاعاً للأراتقة ثم تمكن الأفضل شاهنشاه وزير مصر الفاطمية فيما بعد من انتزاع بيت المقدس من سكمان وايلغازي ولدي ارتق بن أكسب وولى عليه من قبله في نفس الوقت الذي كانت فيه جموع الحملة الصليبية الأولى في طريقها إلى بيت المقدس[1]، حيث استولوا عليه في سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩) وأقاموا فيه مملكة بيت المقدس اللاتينية. وقد نقل الفرنج إلى بلاد الشام بعض النظم الإقطاعية الأوروبية، وكان معظم السكان في الأراضي الفلسطينية مرتبطين بالزراعة، لأنها كانت تشكل القواعد الاقتصادية للنظام الفرنجي[2]. وقبل مجيء الفرنج إلى بلاد الشام، انعدمت الزراعة في بعض المناطق الفلسطينية نتيجة للصراع الذي نشب بين السلاجقة والفاطميين، وبعد الهجمة الصليبية الأولى هجر الآلاف من السكان قراهم في

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان، ج٢ ص ١٠٤، للباحث، بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى، بحيث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عاماً، ١٩٨٠، ص ١٢، ١٣.

(٢) Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land. p.231

فلسطين، فأدى ذلك إلى خراب العديد من الحقول الزراعية [١]. وعند تحرير بيت المقدس من الفرنج سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) اضطر صلاح الدين الأيوبي إلى تزويد بيت المقدس والمدن الفلسطينية الأخرى بالغلال من البلقاء والصلت في منطقة شرقي الأردن[٢].

أما في العصر الأيوبي، فقد أقطعت مدن وقرى عديدة من فلسطين إلى بعض الأمراء والملوك الأيوبيين، فالكامل محمد أقطع الناصر داود الكرك وعجلون والبلقاء ونابلس والخليل وبيت جبريل وأعمال القدس، لأنَّ القدس منحه لفردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م). أما الصالح نجم الدين أيوب فقد أقطع في سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) بيت المقدس للخوارزمية وبقيت بأيديهم لفترة قصيرة[٣]. وأقطع الناصر يوسف صاحب دمشق الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري خبز مائة فارس منها: نابلس وجنين وزرعين، كما

---

(١) Ibid..213.

(٢) العماد الكاتب. الفتح القسي في الفتح القدسي، ج٢ ص٦١١، أبو شامة، الروضتين، ج٢ ص ١٩٧.

(٣) ابن واصل. مفرج الكروب. القاهرة. ١٩٧٧، ج ٥ ص ٣٣٧.
Robert Iqtâ, and the end of the Crusader Staatesm from the Eastern Mediterranean lands Edited by: Holt, England, 1977, P.64.

أقطع بعض الأمراء البحرية أجزاء من الساحل الفلسطيني[1]. وهناك قرى عديدة أقطعت لبعض الأمراء بعد عزلهم، فكانوا يذهبون للإقامة قرب إقطاعاتهم، ففي سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) أقطع كل من الأميرين طيبرس الوزيري وسنجر الحموي قرية في منطقة يافا واللد، كما أعطى الأمير علاء الدين الحجي الركني قريتين في فلسطين عندما عزل من منصبه[2].

وفي العصر المملوكي كانت مدينة الخليل إقطاعاً لنائب الكرك[3]، وفي سنة ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) أقطع الأمير شيخ الصفوي نصف بيت لحم وبيت جاله، إلى جانب إقطاعه[4]، وكان إذ ذاك مقيماً في بيت المقدس. ومن أوائل من أدخل (الإقطاع العسكري) إلى فلسطين في العصر المملوكي، الملك الظاهر بيبرس البندقداري. فبعد فتح أرسوف من الفرنج سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) كشف بلاد قيسارية ووزع الإقطاعات على امرائه وكتب قاضي دمشق شمس الدين بن خلكان مرسوم التملك لهذه الإقطاعات على الشكل التالي:

---

(١) النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٩٧، ٩٩، .Robert, Iqtâ, P. 64
وللباحث. إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٩٥.

(٢) .Robert, Iqtâ, P. 68

(٣) ابن شداد الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص ٢٤٢. .Robert, Iqtâ, P. 65

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق ٢ ص ٨٨٩.

أ - القرى المقطعة بكمالها لأمير من الأمراء وهي:

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
عتيل	فارس الدين اقطاي	بكمالها
أفراسين	ركن الدين خاص ترك الكبر الصالحي	بكمالها
باقة الشرقية [1]	علاء الدين ابدكين البندقدار الصالحي	بكمالها
أم الفحم[2]	جمال الدين آقوش النجمي (نائب السلطنة بالشام)	بكمالها
تبان (من قيسارية)	علم الدين سنجر الحلبي	بكمالها
دير الغصون[3]	ناصر الدين محمد بن بركتخان	بكمالها
علاّر	سيف الدين قشتمر العجمي	بكمالها
أقتابة	علم الدين طرطج الأسدي[4]	بكمالها
خان سيدا [5]	حسام الدين أيتمش ابن أطلس	بكمالها
الصفرا	علاء الدين كندغدي الظاهري	بكمالها
القصير	عز الدين أيبك الفخري[6]	بكمالها

(١) تقع بين نابلس وقلقيلية

(٢) تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا

(٣) في المقريزي (دير الغصون) والاسم هو (بدر الدين محمدي ولد الأمير حسام الدين بركة خان). السلوك، ج١ ق ٢ ص ٥٣٣.

(٤) ورد اسمه في كتاب حسن المناقب السرية، (علم الدين طروح الآمدي والقرية (أسناتا) ص ٩٦).

(٥) أرى أنه (خان زيتا)، حيث يوجد قرية اسمها زيتا شمال طولكرم.

(٦) ورد الاسم في السلوك (عز الدين الأتابك الفخري) ج١ ق٢ ص ٣٣.

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
أخصاص	علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري	بكمالها
فرديسيا (من قيسارية)	سيف الدين بيدغان الركني	بكمالها

ب - القرى المقطعة لأكثر من أمير وهي:

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
زيتا	جمال الدين ايدغدي العزيزي	نصفها
زيتا	شمس الدين الدكز الركني [1]	نصفها
زيتا	سيف الدين قليج البغدادي	نصفها
طولكرم	بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي	نصفها
طولكرم	بدر الدين بيليك الخزندار	نصفها
قلنسوة	عز الدين أيدمر الحلبي الصالحي	نصفها
قلنسوة	شمس الدين سنقر الرومي الصالحي	نصفها
طيبة الاسم	سيف الدين قلاوون الالفي الصالحي	نصفها
طيبة الاسم	عز الدين ايغان سم الموت الركني	نصفها
بورين	جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي	نصفها
بورين	فخر الدين الطنبا الحمصي	نصفها

(١) ورد الاسم في المقريزي (شمس الدين الذكر الكركي)، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٣٢.

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
بيزين	فخر الدين بيليك الايدمري الصالحي	نصفها
بيزين [1]	جمال الدين ايدغدي الخاصّي الناصري	نصفها
حكمة	فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث	تلثها
حكمة	شمس الدين سلار البغدادي	ثلثها
حكمة [2]	صارم الدين صراغان	ثلثها
البرج الأحمر	ناصر الدين القيمري	نصفها
البرج الأحمر	سيف الدين بلبان الزيني الصالحي	نصفها
يمّا	سيف الدين ايتامش السعدي	نصفها
يمّا	شمس الدين آق سنقر السلحدار الظاهري	نصفها
دنابّه	الملك المجاهد ابن صاحب الموصل [3]	نصفها
دنابّه	الملك المظفر صاحب سنجار	نصفها
الشويكة (قرب طولكرم)	عز الدين أيبك الافرم الصالحي	نصفها

(١) أرى أنها بير زيت القريبة من القدس.

(٢) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ٩٥. وحكمة بلدة في شمال الأردن الحالية قرب مدينة اربد.

(٣) ورد الاسم في المقريزي (الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة)، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٣٣.

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
الشويكة	سيف الدين كرمون أغا التتري	نصفها
طبرس	بدر الدين الوزيري	نصفها
طبرس	ركن الدين منكورس المهمندار [1]	نصفها
عرعرا	علاء الدين كور قبشاق [2]	نصفها
عرعرا	سيف الدين قفجق البغدادي	نصفها
فرعون	سيف الدين دكجل البغدادي	نصفها
فرعون	علم الدين سنجر الازكشي	نصفها
أرتاح	عز الدين أيبك الحموي الظاهري	نصفها
أرتاح	شمس الدين سنقر الألفي	نصفها
باقة الغربية	علاء الدين طبيرس الظاهري [3]	نصفها
باقة الغربية	علاء الدين علي التنكزي	نصفها
قفّين	ركن الدين بيبرس المعزّي [4]	نصفها
كفر راعي	علاء الدين كندغدي الحبيشي مقدم الامراء	نصفها

(١) في المقريزي (ركن الدين منكورس الدويدلري). السلوك ، ج١ ق٢ ط ٥٣٣ .
(٢) في المقريزي (الأمير علاء الدين أخو الدويدلر). السلوك ، ج١ ق٢ ط ٥٣٣ .
(٣) الاسم في السلوك (علم الدين بيبرس الظاهري)، ج١ ق٢ ص ٥٣٣
(٤) في السلوك (ركن الدين بيبرس المغربي)، ج ١ ق٢ ص ٥٣٣ . ولم تذكر المصادر لمن أعطي النصف الثاني.

القرية	الأمير المقطع	مقدار الاقطاع
كفر راعي	شجاع الدين طغريل الشبلي أمير مهمندار	نصفها
كستا	شرف الدين بن أبي القاسم [1]	نصفها
كستا	بهاء الدين يعقوب الشهرزوري	نصفها
برنيكية	جمال الدين موسى بن يغمور الاستادار	نصفها
برنيكية	علم الدين سنجر العزازي [2]	نصفها
حانوتا (من أرسوف)	علم الدين سنجر أمير جاندار [3]	نصفها
حبلة (من أرسوف)	عزالدين ايدمر الظاهري نائب الكرك	ثلثها
حبلة	شمس الدين سنقرجاه الظاهري	ثلثها
حبلة	جمال الدين آقوش السلاح دار الرومي	ثلثها
جلجولية	بدر الدين بكتاش الفخري	ثلثها
جلجولية	علاء الدين كشدغدي الشمسي	ثلثها
جلجولية	بدر الدين بكتوت كجكا الرومي	ثلثها [1]

(١) ورد الاسم في مفضل بن أبي الفضائل (شرف الدين عيسى الهكاري). النهج السديد، ج١ ص ١٤٣.

(٢) ورد الاسم في السلوك (علم الدين سنجر الحلي الغزاوي)، ج١ ق٢ ص٥٣٣.

(٣) لم تذكر المصادر لمن أعطي النصف الثاني من حانوتا

وهكذا فـإن البـويهـيين هم الذين بدأوا خط الاقطاع العسكري، والسلاجقة هم الذين نشروه وأعطوه أبعاداً جديدة، فاتخذ الاقطاعيون لأنفسهم حقوق السيادة على الفلاحين والزراع، وفرضوا عليهم رسوماً وقيوداً شلّت حركتهم وحدّت من حريتهم[1]، ونتيجة لتطور الأحداث اضطرت الدولة إلى الاعتراف بتلك التطورات فأصبح الاقطاع الأرض ثم صار وراثياً يصاحبه سلطة شاملة على الزراع، كل هذا مقابل تقديم الجند للدولة [2].

أما الإقطاع العسكري في الدولة المملوكية فلم يكن وراثياً، فهو ينتهي بموت صاحبه، وربما انتزع منه ومنح لأمير آخر، ولكننا نجد حالات خاصة لبعض (إقطاعات التمليك) التي تنتقل للورثة الأبناء أو الإخوان [3]. وهنا نتساءل على الاقطاعات السالفة

---

(١) وردت قائمة هذه الإقطاعات في كل من:
شافع بن علي عباس الكاتب، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٩٤-٩٦، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس ١٩٢٠م، ج ١ ص ١٣٩-١٤٤. المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص ٥٣٠ - ٥٣٤.

(٢) نظام الملك الطوسي، سياست نامة، ترجمة الدكتور يوسف بكار، دار القدس، بيروت، ١٩٨١م.

(٣) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص ٢١.

(٤) Robert, Iqtâ, P. 68.

الذكر التي منحها الظاهر بيبرس لأمرائه إقطاعات تمليك أم إقطاعات عسكرية؟ فمفضل بن أبي الفضائل ذكر أن الظاهر بيبرس (أمر أن تملك الأمراء المجاهدين للبلاد التي فتحها الله عز وجل على أيديهم وكتب التواقيع بذلك)[1]، أما شافع بن على فقال: (وخرج الأمر العالي، لايزال يشتمل الأعقاب والذراري وينير إنارة الأنجم الدراري أن يملك جماعة أمرائه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكنون الشريف يسطرون، مما يعين من البلاد والضياع)[2]. وأورد المقريزي نص كتاب التمليك للأمراء جميعهم ومما جاء فيه (رأى ألاّ ينفرد عنهم بنعمة، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ، وبعزائمهم تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه، ويبق للولد منهم وولد الولد، ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته، كما عاش الآباء، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري أن يملك أمراؤه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب يسطرون، ما يعيّن من البلاد والضياع، على ما يشرح ويبين من الأوضاع)[3].

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد، ج١ ص ١٣٨ .
(٢) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ٩٤ .
(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص ٥٣٠ . ٥٣١ .

فإذا ناقشنا ما ورد في النصوص السابقة رأينا أن الظاهر بيبرس كافأ امراءه بمنحهم هذه القرى في فلسطين وشرقي الأردن (إقطاعات تمليك)، وكان من حق هذه الإقطاعات الانتقال إلى الورثة بعد الموت، ويختلف هذا النوع من الإقطاع عن الإقطاع العسكري أو الحربي المملوكي الذي كان أكثر انتشاراً.

هذا النمط من الإقطاع الذي وزّعه الظاهر بيبرس كان متأثراً بالنظم الإقطاعية السلجوقية والأيوبية والفرنجية في فلسطين وبلاد الشام عامة، إذ جعلت من الإقطاعيين حكاماً وراثيين في مقاطعاتهم. وقد كافح السلاطين المماليك فيما بعد كي يجعلوا من مالكي الإقطاعات أكثر اعتماداً على السلطة المركزية في القاهرة، ولكي يعملوا على إنهاء هذا النظام قاموا (بالروك)، وهو تقسيم البلاد بين السلطان والإقطاعيين من الأمراء[(١)]، وبموجب هذا الروك أخذ الإقطاعيون إقطاعات تحتوي على أجزاء متفرقة في أماكن متعددة[(٢)]، ففي السابق كان الإقطاعي يعطى من قرية إلى عشر قرى، وبعد سنة ٧١٣هـ(١٣١٣م) صار يعطى حصصاً أو أجزاء من قرى مختلفة أو حصصاً صغيرة لعدة قرى

---

(١) Cohen &Lewis, op. ct., p. 23.

(٢) Cohen &Lewis, op. ct., p. 25.

متباعدة بدلاً من حصة كبيرة في قرية واحدة[1]. وكان هدف السلطات المملوكية من ذلك الحد من نفوذ الأمراء الاقطاعيين والتقليل من قوتهم، ليصبح الأمراء غرباء في تلك الأماكن. وعبَّر أبو المحاسن عن وجهة النظر هذه المتمثلة في ازدياد نفوذ الأمراء بأنَّ الناصر محمد بن قلاوون أخذ أخباز هؤلاء الأمراء وخشي الفتنة[2]، إذ كان خبز الواحد منهم يتراوح ما بين ألف مثقال إلى ٣٠٠ مثقال من الذهب سنوياً[3]، لذا عهد إلى الأمير سنجر الجاولي في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) بعمل الروك في البلاد الشامية، أما في مصر فراكها سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م)[4] وأعاد توزيع الأراضي بين الأمراء الإقطاعيين.

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، أصبحت الأراضي المنزرعة مملوكة تمليكاً جماعياً، وانتشر هذا النوع من التمليك في جميع أنحاء بلاد الشام، ففي وقت اقتسام الأراضي السنوي، توزع أراضي القرية بين رجال القبيلة طبقاً لعدد ماشيتهم التي تقوم بالأعمال الزراعية، وهو ما كان يعبر عنه

(١) Poliak, Feudalim in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, London, 1939, P.19.
(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص ٣٦.
(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص ٤٢.
(٤) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص ٣٦, ٤٢.

بـ (الفدان) فكل يأخذ أرضاً بمقدار ما لديه من هذه الحيوانات. أما الفلاحون الذين لا يملكون الماشية فيصبحون تلقائياً غير مالكين (الفلاحون البطالون)(١).

وكان الفلاحون يدفعون الضريبة من المحصول، وما تبقى لديهم كانوا يقومون ببيعه بأنفسهم، فهم دوماً بحاجة إلى أصناف أخرى ليست من انتاجهم، لذا يبيعون الفائض من انتاجهم ليحصلوا على حاجاتهم من تلك الأصناف. وفي العادة كان الفلاح يحتفظ ١٠٪ من المحصول للبذار، ويحتفظ لطعام كل فرد ١٥٠-٢٠٠ كغم من القمح سنوياً، وما زاد على ذلك يخصص للبيع، ويحدث هذا في القرى الواقعة في السهول، أما المناطق الجبلية المرتفعة في الكرك ومؤاب وجبال نابلس والقدس فإنتاجها من القمح قليل، لذا يحدث تبادل إقليمي في المنتجات بين المناطق، بطريقة مباشرة أو عن طريق الأسواق الموجودة في المدن كالكرك والقدس ونابلس والرملة والخليل وعمان وغيرها(٢).

وفي العصر الصليبي بلغ عدد قرى منطقة القدس ١٠٤ قرى، أما منطقة نابلس فكان عدد قراها ٩٠ قرية، وأشغلت قرى بيت المقدس مساحة ٢٠٠٠كم٢، أما قرى نابلس فأشغلت مساحة

---

(١) Cohen &Lewis, op. ct., p. 69.

(٢) Hütteroth, Historical Geography of Palestinc. 1977. pp. 108-110

١٥٠٠كم٢، فمعدل مساحة القرية في القدس ٢٤,٠٠٠دونم أما في نابلس فكان ١٦,٠٠٠ دونم[1]، ولكن عدد القرى ارتفع في العصر المملوكي في كل من القدس ونابلس، فوجد في منطقة نابلس ٣٠٠ قرية[2]، وبذا أصبح معدل مساحة القرية ٥٠٠٠دونم.

أما محاصيل نيابة بيت المقدس الزراعية فهي: الزيتون والكروم والتبن والفواكه والحبوب. وبلغ إنتاج الزيت درجة كبيرة حتى أنّ بعض الأغنياء بلغ إنتاجهم من الزيت ٥٠,٠٠٠مَن[3]، أي ما يعادل ٤٠٩٥٠كغم، ولكثرته كانوا يحتفظون به في الصهاريج والخوابي[4]. أما في نابلس فبلغ متحصل السلطان في بعض السنوات ١٤٠٠ قنطار، كان السلطان يفرضه على التجار في بيت المقدس والخليل والرملة بخمسة عشر ديناراً ذهباً للقنطار الواحد، أي أكثر من ثمنه بستة دنانير، وكان ذلك يسبب خسارة كبيرة للتجار. وفي بعض الأعوام يأتي أمير

---

(١) Cohen &Lewis, op. ct., p. 69.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٤م، ص ٤٦،

(٣) المَنْ: في الشام هو المن الشرعي وزنه ٢٦٠ درهماً ويعادل ٨١٩ غم. (فالتر هتتش، ص ٥٨).
و٥٠,٠٠٠ مَنْ تعادل ٢٧٣٠ تنكة في وقتنا الحاضر.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٦، لي سترانج، ص ٩٩.

كبير من القاهرة خصيصاً ليفرض الزيت على الأهالي المسلمين والنصارى واليهود بطريقة تعسفية تؤذيهم وتظلمهم[1] .

وكان زيت الزيتون والصابون المستخرج منه في كل من القدس ونابلس يصدَّر إلى البلدان المجاورة : الشام ومصر والحجاز ، وإلى أطراف العالم[2] . أما متحصل السلطان من الغلال المنتج في نيابة بيت المقدس ، فكان ينعم قسماً منه على أوقاف المسجد الأقصى والصخرة ، ففي سنة ٨٦٥هـ (١٤٦٠م) أنعم السلطان الظاهر خشقدم على الوقف بستين غرارة من القمح قيمتها ٨٤٠ ديناراً[3] .

أما سكان القرى فكانوا من الفلاحين المسلمين والنصارى[4] ، وقطنت القبائل العربية منطقة القدس ونابلس ، فأقامت قبائل بني زيد وجرم والعايد في منطقة بيت المقدس والرملة وغزة[5] . أما منطقة جبل نابلس فكان لها شيخ سمي (شيخ جبل نابلس) ، كانت له الكلمة الأولى في منطقته ، وأمره

(١) الحنبلي ، الانس الجليل ، ج٢ ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .
(٢) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٥٦ ، لي سترانج ، ص ٢٨٧ ، ٤٨٦ .
(٣) الحنبلي ، الانس الجليل ، ج٢ ص ٢٨٠ .
(٤) السبكي تقي الدين ، التمهيد فيما يجب فيه التحديد ، ص ٧، ٨ ،
Benvenisti, op. cit.,p,215.
(٥) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق ١ ص ٣٤٦ .

نافذ لدى القبائل العربية هناك، وحظي بتأييد السلطان وإنعاماته، وكـان يتقلد هذه المشيـخة بأمر من السلطان في القـاهرة[١]. أما علاقات السلطة الحاكمة مع القبائل العربية فتختلف من فترة إلى أخرى، فكثيراً ما كان الخلاف يدب بين نائب السلطنة بالقدس والقبائل العربية، مما يؤدي إلى إفساد الطرق وإرجاف في المدينة المقدسة، ففي سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) هاجمت القبائل العربية بيت المقدس ودخلوا المسجد الأقصى، فهرب النائب بين أيديهم، فكسروا باب السجن وأخرجوا من به من المساجين، وقتل العديد من الطرفين، وحصل النهب في أسواق بيت المقدس[٢].

وكـان الفـلاحـون يعـانون من الظلم الذي أوجـده النظام الإقطاعي العسكري أو الحربي المملوكي، فلم يكن للفلاح الحق في مغادرة الأرض التي يعمل فيها إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وإن حدث وغادرها يعاد إليها بالقوة[٣]، بالإضافة إلى الالتزامات

(١) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢ ص ٣٢٦، ٣٥٥.
(٢) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢ ص ٢٢٤، ٣٢٧.
(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص حيث يقول: (وقد جرت عادة الشام بأنَّ من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة).
وللباحث، القرية في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، بحث قدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، اكسفورد، ١٩٨٠م.

التي فرضها النظام الإقطاعي نفسه، وعانى الفلاحون الكثير من ظلم العربان، الذين كانوا يفرضون الأموال عليهم فيسببون المعاناة الشديدة إليهم[١]. أضف إلى ذلك ما كانت تسببه السلطة الحاكمة للفلاحين والأهالي، فكثيراً ما كان يعمد نائب القدس إلى جمع الأموال من الفلاحين بالقوة، ففي سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) كان النائب في القدس يجبي من فلاحي الضياع نحواً من أربعة آلاف دينار، وبسبب هذه الجباية خربت معاملة القدس، فأمر السلطان المظفر أحمد بن شيخ بمنع ذلك (ونادى بإبطال هذه المغارم ونقشه على حجر بالمسجد الأقصى)[٢]. وفي نهاية القرن التاسع الهجري كان السلاطين يجندون الرجال من جبل نابلس والقدس ويرسلونهم في التجاريد الذاهبة إلى قتال بايزيد خان ابن عثمان[٣]، كل هذه الأمور مجتمعة، وانتشار الأوبئة والطاعون أدى إلى خراب الريف، ليس في فلسطين فحسب، بل في معظم بلاد الشام. ففي العصر العثماني وصف العديد من القرى بـ(خراب وخالل)[٤]، وذكرت التقارير أن منطقة طرابلس كانت تحتوي على ثلاث آلاف قرية، ولم يبق من هذه القرى مأهولاً في

---

(١) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢ ص ٣٤٧.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق ٢ ص ٣٨٤.
(٣) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢ ص ٣٤٥، ٣٤٧.
(٤) Hütteroth, op. cit., p. 26.

القرن السادس عشر الميلادي سوى ٨٠٠ قرية، وتحول الباقي إلى مزارع وخرب صغيرة غير مأهولة بالسكان [١].

واتبَّع الفلاح الطرق الزراعية التقليسدية، فالمحراث الفلسطيني في العصر الوسيط يشبه المحراث الذي يستخدمه معظم الفلاحين في الوقت الحاضر، فيتكون من هيكل خشبي ينتهي بسكينة حديدية حادة لقلب الجزء العلوي من التربة وإعدادها للبذار، ويجر عادة بواسطة الثور أو الحصان[٢].

وكان الفلاح الفلسطيني يقيس أرضه بالفدان، وتعني الكمية من الأرض التي يمكن زراعتها بواسطة عجلة محراث في فصل زراعي واحد، وقد استعمل الفلاحون في منطقة القدس في العصر الصليبي فداناً يعادل نصف الفدان العربي[٣]. وكان الفدان العربي يعادل ٤٠٠ قصبة مربعة وتساوي ٦٣٦٨ متراً مربعاً[٤].

وغطيت جبال القدس ونابلس والخليل بالأشجار المختلفة، كالسرو والسنديان، والخروب، والسماق، والزيتون، وأشجار

---

(١) Cohen & Lewis, op. cit., p. 24.

(٢) Prawer , op. cit., p 379.

(٣) Ibid., p. 271

(٤) فالترهتش، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٨.

الفواكه كـالتفاح والخوخ واللوز والجوز والتين والكرمة[1] . أما سهولها وأوديتها فانتجت البرتقال والسفرجل والرمان، أما الأغوار التابعة للقدس، فاشتهرت بالسكر، والموز والنخيل . أما غلاتها فأهمها الحنطة والشعير والسمسم والذرة والخضروات[2] . واستخرجوا من الكروم الزبيب والخمور التي صنعها السكان النصارى في قرى القدس ونابلس، أما التين فاستخرجوا منه القطين . واشتهرت نيابة بيت المقدس بالعسل والجبن[3] ، - وجبن الخليل نقل إلى مصر والعقبة لبيعه إلى« الحجاج - مما يدل على وفرة المواشي في النيابة .

---

(١) الادريسي ، نزهة العشاق، القسم الخاص بالشام، ص ٩

(٢) Benvenisti , op,. p. 217.

لي سترانج، ص ٩٧-٩٩، ١٥٧ ، ٤٨٦ .

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤ ، لي سترانج، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢)
التجارة الداخلية والخارجية

أ- التجارة الداخلية:

اشتهر بيت المقدس بأسواقه الكثيرة وأبنيته العالية، وصناعاته العديدة[١]، وكانت أسواقه زاخرة بصنوف السلع المختلفة، منها ثلاث قصبات (قيل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها)[٢]. ومن المعروف أن أسواق المدن الإسلامية في العصور الوسطى متخصصة، فكل سوق اختص بسلعة معينة، فوجد في بيت المقدس: سوق القطانين ويجاور باب المسجد الأقصى من الجهة الغربية -لا مثيل له في كثير من البلاد- ثم هناك أسواق ثلاثة تقع قرب باب الخليل تمتد من الشمال إلي الجنوب، وتتصل

(١) ناصر خسرو، سفر نامة، ص٤٦، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٢، لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ص٩٧.
(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣.

معاً بواسطة بعض المنافذ، وهي مسقفة وفي أعلاها فتحات لدخول النور والشمس، فالغربي منها هو سوق العطارين، وكان صلاح الدين قد وقف هذا السوق على المدرسة الصلاحية، ثم سوق الخضر، أما الثالث فهو سوق القماش وقد وقفهما صلاح الدين الأيوبي على مصالح المسجد الأقصى[1]. وذكرت وثائق بيت المقدس عن وجود أسواق أخرى لم تذكرها المصادر منها: (السوق الأسفل)[2]، (وسوق التجار)[3]، (وسوق الليل)[4]. ثم هناك السوق الكبير الذي يبدأ من باب السلسلة إلى باب الخليل، أي أنه يبدأ من الحرم إلى قلعة بيت المقدس، وهذه الظاهرة نجدها في بعض المدن الشامية حيث يوجد ما يسمى (السوق الكبير)، وذكر ابن جبير هذا السوق في دمشق وكان يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي[5]. ويتفرع من السوق الكبير في بيت المقدس عدة أسواق هي: سوق الصاغة، وسوق القشاش، وسوق المبيضين، وسوق خان الفحم، وسوق الطباخين، وسوق الحريرية، وسوق الزيت الواقع بجوار باب الناظر، ثم سوق الفخر (نسبة إلى فخر

---

(١) الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢ ص٥٠.
(٢) وثيقة رقم ٥٣ سنة ٧٧٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.
(٣) وثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.
(٤) وثيقة وقف رقم ٧٧هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.
(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٢٦٢.

الدين صاحب المدرسة الفخرية) وبه المصابن التي يصنع فيها الصابون[١] . وسويقة باب حطة[٢]، والملاحظ أن هذه التسمية موجودة في بعض المدن الإسلامية الأخرى مثل سويقة مكة .

ووجدت الأسواق المتخصصة في كل من : الرملة، ونابلس، والخليل[٣]، بالإضافة إلى القياسر أو القيساريات[٤] Caesaea، منها قيسارية النصارى في بيت المقدس[٥] والقياسر أبنية تقوم بمهمة الأسواق بها حوانيت تؤجر للتجار متخصصة للبيع والشراء ويخزن التجار بضائعهم فيها[٦] . وكان لهذه القيساريات أبواب كبيرة من الحديد تغلق ليلاً بواسطة ضبّة عريضة من الحديد[٧] . ويراقب المحتسب هذه الأسواق ويحكم

---

(١) الحنبلي : الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢-٥٤ .
(٢) المصدر نفسه، ج٢ ص٤١ .
(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦، ٥٧ . وأنظر : الادريسي، نزهة المشتاق، (القسم الخاص بالشام) ص٤ .
(٤) وثيقة رقم ٥٠ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس .
(٥) Burgoyne& Abul Hajj. Twenty Four Medirval Arabic Inscription feom Jerusalem, Levant, vol, XI 1979, p. 123.
(٦) Goitein, A Mediterranean Socity, Economic Foundations, U.S.A. 1967, vol, p.194.
وللباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٠ .
(٧) ابن جبير : الرحلة، ص٢٦١ .

السيطرة عليها خوفاً من الاحتكار والغش والتدليس. وكان لطائفة التجار رئيس يسمى (رئيس طائفة التجار)[1]، يرعى مصالح التجار في المدينة وفي أحيان يسمى (شيخ التجار)، ويكون من أثرياء تجار المدينة. وقد أطلق على طبقة التجار في العصر المملوكي (بياض العامة)[2]، وذكرت المصادر عن وجود عريف) لكل سوق من أسواق بيت المقدس[3].

ويحيط بمدينة بيت المقدس منطقة خصبة واسعة، تقوم بتزويدها بكل حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت، مثلها في ذلك مثل دمشق التي كانت تعتمد على معظم منتجات الأراضي الشامية كالزيت من نابلس، والصابون من نابلس والقدس وسرمين[4]، والتين من حلب والأرز من بانياس والحليب من بعلبك، والسكر من الأغوار، والفحم من عجلون، والرمان من

---

(١) Goitein, op, cit, p. 192.

(٢) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٠٤.

(٣) وثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٤) سرمين: بلدة مشهورة تقع في منطقة حلب وتشتهر بأشجار الزيتون وصناعة الصابون الذي صدر إلى دمشق والقاهرة، وكان يصنع فيها نوع من الصابون المعطر متعدد الألوان يستعمل لغسل الوجوه والأيدي. (ابن بطوطة، الرحلة، ص٦٣).

الصلت[1]. أما القدس فكان القمح ينقل إليها من الرملة والسهل الساحلي، والزيت من نابلس والخليل، والتين والرمان وزيت السيرج (السمسم) والبطيخ والعنب الدرّي والعينوني من الرملة ونابلس وشرقي الأردن والقرى المحيطة بالقدس، أما الأرز والحصر فمن بيسان، والموز والسكر والنيل فمن أريحا والأغوار[2]. وهكذا فقد كانت هناك حركة تجارية داخلية أو تبادل إقليمي بين بيت المقدس والمناطق المحيطة به، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو بواسطة الأسواق الموجودة في المدن.

ووجد في مدينة بيت المقدس (عرصة للغلال) وتقع قرب باب الخليل[3]، وهي ساحة أو ميدان واسع، كان الفلاحون والقرويون يجلبون إليها غلاتهم الزراعية لبيعها على التجار والأهالي. وكانت الأسواق الأسبوعية التي تقام في المدينة فرصة

---

(1) Lapidus Muslim Cities in the Late Middle agcs, U.S.A 1967, p. 17

أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٢٨.

(٢) الادريسي، نزهة المشتاق (القسم الخاص بالشام) ص٤، ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٧.

Hütt eroth, Hlistorical Geography of Palestine.

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, pp. 361-365.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٣.

للقرويين ورجال القبائل للحصول على ما يحتاجون إليه من سلع، مقابل مقايضتهم لمنتوجاتهم من الحبوب والفواكه والأجبان والبسط والسجاد، والزيت والتين المجفف واللوز والجوز وغيره من السلع المختلفة[1].

وتنشط التجارة الداخلية في بيت المقدس والرملة وبيت لحم والخليل في المواسم، ففي موسم الحج من كل عام، يحتشد في بيت المقدس أعداد كبيرة من مسلمي بلاد الشام وغيرها للاحتفال بالحج وزيارة المسجد الأقصى والصخرة، وقد كانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين ألفاً[2]. وكان للخليل موسم خاص لزيارة الحرم الإبراهيمي، لذا أقام المماليك للفقراء من هؤلاء الزوار والمسافرين (مضيفاً) يوزع الخبز والطعام عليهم مجاناً[3]. ونتيجة للعدد الهائل من الزوار وتنشط الحركة التجارية في أسواق القدس والخليل، ويعم الخير عليهما وعلى المنطقة المجاورة فيهرع الأهالي للاتجار مع وفود الزائرين.

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٩٩،
ابن بطوطة، الرحلة، ص٩٧،
لي سترانج، ص٩٨، ٤٨٦.

(٢) ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص٥٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٠٥.

ولم يقتصر الأمر على هذا الموسم (السياحة الداخلية)، بل يجتمع في بيت المقدس أعداد أخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة أماكنهم المقدسة، وللاحتفال بمواسمهم الدينية[1]. فتقام لهم الأسواق الخاصة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم تعود بالنفع على تجار تلك المدن والمتسببين من أهالي المناطق المحيطة. وكان الحجاج النصارى يأتون من أنحاء مختلفة من العالم لزيارة كنيسة القيامة فمنهم: الشاميون والأوربيون، والمصريون، والأحباش، حتى أن الأحباش بلغوا في سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م) ثلاثة آلاف زائر[2]، وفي سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) بلغوا ٨٠٠ زائر[3].

ويذكر الرحالة فيلكس فابري الذي زار بيت المقدس سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) أن مراكب الحجاج الأوروبيين كانت ترسو في ميناء يافا، ويكون في استقبالهم مندوبون عن نائب القدس ونائب غزة وكاشف الرملة ورئيس دير جبل صهيون، وقد هيأوا لهم كل الترتيبات لحمايتهم وتسهيل مهمتهم في الأراضي المقدسة.

---

(١) ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص٥٥. المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢ ص٦٣٧، ٩٢٨، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القاهرة، ١٩٦٤م، ج١ ص٣٩

(٣) ابن طولون، المصدر نفسه، ج٢ ص٥.

ولاحتياطات الأمن كانت السلطات المملوكية تقوم بتفتيشهم جيداً، ثم يسجلون المعلومات الخاصة عن كل زائر، ويدونون ذلك في سجل خاص كاسم الحاج واسم أبيه إلى غير ذلك من أمور تهمهم. وبا عتقادي أن هذا الإجراء كان ضرورياً لدواعي الأمن وخوفاً من أن يتسلل الفرنج إلى المدينة المقدسة ويعيثوا فيها فساداً، لأن ذلك الأمل ظل يراودهم طيلة الحكم المملوكي. ففي سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) وصل إلى يافا أربع قطع بحرية عليها ٧٠٠ من الفرنج فأسروا عدداً من المسلمين، واستولوا على مركب قادم من مصر فيه تجارة للسلطان[١]. وفي سنة ٨٢٦هـ (١٤٢٣م) تمكن عدد من الفرنج (الكيتلان) من التسلل إلى داخل المدينة المقدسة، فطاردتهم السلطات المملوكية وأسرت منهم نحو مائة شخص. ولكي يسهل المماليك تنقل الحجاج من يافا إلى القدس، قاموا في سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) بتوسيع الطريق وإزالة ما به من الأوعار، وزادوا في سعته (بحيث يمر فيه عشرة فرسان متواكبين)[٢]. أضف إلى ذلك أنّ المماليك سمحوا للنصارى ببناء كنيسة بيت لحم فوق مهد المسيح عليه السلام، وجمعوا الأموال لبنائها من جميع أنحاء العالم المسيحي[٣].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ق١ ص١٦٣.
المقريزي، السلوك، ج ق٢ ص٦٣٧.
وأنظر المصدر نفسه ج٤ ق٢ ص٩٢٨
(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص١٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٤ ق١ ص١٤٤.

وكانت الأسواق تقام في يافا خدمة لهؤلاء الحجاج، فيحضر التجار من القدس والرملة يحملون معهم السلع المختلفة من بلسم ومسك وصابون، وحجارة كريمة، وقماش موصلي، وأنواع الأطعمة والأشربة والفواكه المختلفة. ثم يواصل الحجاج سيرهم إلى القدس فينزلوا في الرملة ويقيموا فيها في (مضيف) أعد لاستقبالهم. وتقام لهم في الرملة سوق موسمية كبيرة فيها الأطعمة والفواكه كالتفاح والتين والبرتقال والبطيخ واللوز والعسل والتين المجفف والسكر فيشتري هؤلاء الحجاج ما يحتاجونه من هذه السلع، ثم يواصلون سيرهم إلى القدس.

وقد خصصت الدولة لهؤلاء الحجاج تراجمة (أدلاء سياحيون) يساعدونهم على زيارة الأماكن المقدسة وحمايتهم وحراستهم واستئجار البيوت اللازمة لهم في القدس. فتعم الفائدة معظم سكان المدينة وتجارها، وكان الأدلاء من المسلمين والنصارى ويطلق عليهم (المكاريون ومفردها (مكاري)[1]. إلا أنَّ قسماً من هؤلاء الحجاج كان يفضل الإقامة في دير جبل صهيون أو نزل القديس يوحنا. ووجد تراجمة خاصون بالحجاج اليهود، ويشترط في هؤلاء التراجمة معرفة اللغات الأوروبية وفي

---

(١) ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٢٠.

المقابل فإن رئيس التراجمة يتقاضى أجرة من الحجاج له ولمساعديه[1]. وزيادة في سلامة هؤلاء الحجاج أمَّنت الدولة لهم العلاج في البيمارستان الصلاحي فكانوا يستوفون من كل حاج (بنيان فينيسيان) يحصل مرة واحدة (كتأمين صحي) مقابل الخدمات الصحية التي يقدمها البيمارستان. ولا شروط على المدة التي يقيمها المريض في البيمارستان فله حق الإقامة من يوم إلى سنة كاملة ولا يحصل منه أي مبلغ إضافي مهما كانت المدة[2].

ومن هنا يظهر لنا مقدار العناية التي كان يوليها المماليك للحجاج أو (السياح)، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ الدولة المملوكية هي أول دولة شجعت السياحة وأصدرت المنشورات الدعائية السياحية لتشجيع زيارة بلادهم، ويعتبر السلطان قلاوون أول من أصدر مثل هذه المنشورات السياحية، وبذا سبق عصره بمئات

---

(١) نقولا زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

محمود زايد، دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين من خلال رحلة دي لابروكييه ١٤٣٢م، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠.

(٢) Hume Medical Work of the Knlghts Hospitallers of Saint John of Jerusalem, Baltimore, 1940, p. 18.

السنين[١]، كما أن نظام التأمين الصحي على السياح سبقوا به غيرهم من الأمم بقرون عديدة.

وأقام المماليك الخانات في المدن وعلى الطرق الرئيسية لخدمة التجارة الداخلية والسياحية وحركة التنقل في الداخل، من ذلك الخان الذي أنشأه الأمير طاجار الدوادار في جنين وبنى فيه دكاكين وحماماً وحوضاً للسباحة[٢]. والخانات أو الفنادق منشآت هامة واكبت حركة التجارة المملوكية التي كانت سبباً في أن تتمتع بلاد مصر والشام بدرجة كبيرة من الازدهار والثراء[٣]، نذكر من تلك الخانات:

خان الظاهر بيبرس:

ففي سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) أمر الظاهر بيبرس انشاء خان للسبيل في بيت المقدس، وفوَّض بناءه إلى الأمير جمال الدين محمد بن نهار، وأقيم هذا الخان خارج أسوار القدس[٤]، وهناك

---

(١) أنظر نص المنشور السياحي في: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٢٢٦-٢٣٧.
والقلشندي، صبح الأعشى ج١٣ ص٣٤٠-٢٤٢.

(٢) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص٨٠.

(٣) Lapidus, Muslim Cities in the Later Middle ages, U>S>A> 1967, p. 16.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٤٩١.

لوحة تأسيسة من الرخام أثبت عليها الظاهر بيبرس إنشاء هذا الخان، وجدت هذه اللوحة أثناء ترميم قبة الصخرة سنة ١٩٦٠م ويحتفظ بها المتحف الإسلامي في القدس وقد فقدت أجزاء من النقش بسبب تحطيم الرخامة إلى جزئين أما النقش الباقي فهو:

١- بسم الله الرحمن الرحيم... وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

٢- مما أمر بانشاء هذا الخان المبارك... وأيه الجسيم(؟)

٣- مولانا السلطان الأعظم... مالك رقاب الأمم ملك.

٤- العرب والعجم والترك... الملك الظاهر.

٥- ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي... قسيم أمير المؤمنين.

٦- ضاعف الله اقتداره... وأعزّ نصره،

٧- وكتب في آخر... سنة اثنتين وستين وستمائة.

٨- والحمد لله وحده... واله وسلم(١).

---

(١) Levant, vol, XI, 1979, p. 126.

ومن الملاحظ أن العبارة (ركن الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين) نجدها في معظم نقوش الظاهر بيبرس كما في مقام أبي عبيدة وقلعة الكرك. أنظر: للباحث (تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص٨٨، ٨٩).

وبعد تمام بنائه وقف عليه عدة قرى ببلاد الشام والقدس منها: قيراط ونصف في قرية الطرة الواقعة قرب مدينة أربد شمالي الأردن، وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بصرى، ونصف قرية لفتا على بعد ٣كم شمال غربي القدس. ويصرف ربع الوقف في ثمن خبز ونعال لمن يريد إلى القدس من المسافرين المشاة. ثم بنى طاحوناً وفرناً برسم هذا الخان كي يقوم بطحن الدقيق وخبز الأرغفة، وجعل كل ذلك سبيلاً[1]. ونقل إليه من القاهرة باب دهليز القصر الموصل إلى البيمارستان المعروف بباب العيد[2] وأثبت هذا الوقف على قطعة رخامية يوجد جزء منها في المتحف الإسلامي بالقدس والنص الباقي من النقش كمايلي:

١ - (هذا) الخان المبارك أربعة عشر قراطاً من جميع الضيعة.

٢ - (من) أعمال بصرى والحصة الثانية والنصف من لفتا من ضياع القدس.

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٢١.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧ ص١٢١. وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٣٢١.
ويذكر ابن شداد أن الوقف كان ثلاثة قراريط بالطرة من أعمال دمشق وثلث وربع قرية المشارفة، ونصف قرية من أعمار القدس. (الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٣٧).

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٣٧.
المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٤٩١.

٣- ثلاثة أسهم وثلث، ثمن عشر سهم من أربعة وعشرين سهماً.

٤- (لأجل) إطعام الواردين من الفقر (أ) والمساكين تقبل الله منه وضاعف حسناته[١].

وقد اندثرت معالم هذا الخان، ولكن البعثة الفرنسية التي حفرت في الجزء الشمالي الغربي من زاوية المدينة القديمة تمكنت من العثور على أساسات هذا الخان سنة ١٩١٢م[٢].

ومن الخانات الأخرى الموجودة في بيت المقدس نذكر: خان الفحم، وخان المصرف، ويقعان في الشارع الأعظم الواصل بين باب السلسلة وباب الخليل، ثم خان الجبيلي الواقع في خط مرزبان[٣]. وخان تنكز بن عبد الله نائب دمشق ويقع بين حمام الشفا وحمام العين في سوق القطانين بناه سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م). وذكرت وثائق بيت المقدس عن وجود (خان العناية)

---

(١) هذا الحجر موجود في المتحف الإسلامي بالقدس تحت رقم زم ١٤.
وكان الظاهر بيبرس قد بنى مقام أبي عبيدة بغور الأردن ووقف عليه الوقوف وأثبت في نقش كتابي.
(راجع للباحث: تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص٨٨).

(٢) Levant, vol, XI, p. 126.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢، ٥٣.

الواقع بالقرب من باب حطة، وكان وقفاً على المدرسة الصلاحية بالقدس[1].

وكانت المعاملات التجارية الداخلية تتم عن طريق المقايضة أو بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية المسكوكة في أنحاء مختلفة من دولة المماليك.

ب - التجارة الخارجية:

تمتعت بلاد الشام في العصر المملوكي بفترة متألقة من تاريخها الوسيط، وبلغت مصر والشام درجة من الازدهار والثراء لا نظير لها، بسبب النشاط التجاري الذي بلغ أوج تقدمه وازدهاره بين مصر والشام وبلاد الرافدين والجزيرة العربية. لذا قام المماليك ببناء الجسور وتعبيد الطرق وبناء الخانات أو الفنادق على الدروب والطرق خدمة للقوافل التجارية والمسافرين. وكان المسافرون يأوون إلى هذه الخانات فيجدون مأوى لهم ولدوا بهم، وبخارج كل خان وجدت ساقية للسبيل أو بركة وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته[2]. وقد نشر المماليك الأمن

(١) وثيقة رقم ٤٣ سنة ٧٨٥هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠، وسميت هذه الخانات أو الفنادق: Caravanserais، ويطلق عليها أحياناً مخازن التجار. أنظر: Gotein, op, cit, p. 187.

في ربوع تلك الطرق حتى أن المرأة كانت (تسافر من القاهرة بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء)[1].

أما حركة التبادل التجاري فقد نشطت بين جميع الأقطار، فمنتوجات القدس ونابلس والخليل والكرك والشوبك كالزيت والصابون والخروب والبسط واللوز والجوز والجبن والفواكه، والمصنوعات اليدوية من فضية وخشبية صدرت إلى القاهرة[2]. ومن دمشق نفسها كان ينقل الزجاج والسيراميك والمنسوجات والخزف والسجاد وغيرها من الصناعات، وكانت هذه تصدر عن طريق المواني‌ء الشامية والفلسطينية كطرابلس وصيدا، وعكا، ويافا، وغزة. أو ترسل براً عبر فلسطين وسيناء إلى قطيا على الحدود المصرية ففيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، فيدفع التجار المكوس على بضائعهم بين ٥-١٠٪ وكان متحصل قطيا ألف دينار من الذهب يومياً[3]. ويطلب من المسافرين إبراز تصاريح للدخول إلى مصر والخروج منها، ووجد للتجار

---

(١) المقريزي، الخطوط، ج١ ص٣٦٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣ ص٥٣٠.

وثيقة رقم ٧٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠.

الشاميين والعراقيين في القاهرة والإسكندرية القياسر الخاصة والوكالات لخزن بضائعهم وإقامتهم فيها[١].

وخدم الساحل الشامي حركة التجارة الدولية منذ عصور سحيقة في القدم، فكانت طرق التجارة العالمية عبر الخليج العربي والبحر الأحمر تنتهي في موانئه. وبهذا سيطر العرب في العصر العباسي على التجارة الدولية وفرضوا الأسعار التي يريدونها على السلع المصدرة إلى أوروبا[٢]. ثم إن الساحل الشامي والفلسطيني أصبح في العصر الصليبي والمملوكي باب الشرق على الغرب، وكانت لفلسطين علاقات مباشرة مع أوروبا. وقد تزعم هذه الحركة تجار دويلات المدن الإيطالية والأوروبية، فينيسيا، وبيزا، وجنوا، وفلورنسا، ومرسيليا، وبرشلونة، وكان لهذه المدن وكالات في معظم المدن الهامة في فلسطين وسوريا ومصر[٣].

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣.

Lapdus, Muslim Citles, p. 18.

Thompson, An Economic and social History of the Middle Age(٢) London, 1928, p. 338.

(٣) النويري الإسكنراني، الالمام بالإعلام، ج٢ ص١٣٧، ١٥٦. ويذكر إنه وجد في الإسكندرية فندق الكيتلانيين، وفندق الجنوبيين، وفندق الموزة، وفندق المرسيليين (ج٢ ص١٧١).

Rey, Les Colonies Franques de Syrie, Aux XII Siécles, Paris, 1883, p. 191. Prawer, op. cit, p. 397.

وامتد نشاطهم التجاري إلى المدن الداخلية فوجدت الوكلات أو (دار الطعم) في دمشق، وعجلون في شرقي الأردن، للعناية بالتجار الأجانب وتجاراتهم[1]. ووجد في بيت المقدس وكالة خصصت للتجار الأجانب[2]، بالإضافة إلى الخانات والقياسر التي كانت تؤجر للتجار وتباع فيها السلع المختلفة. وخصصت فيها أحياء وقنصليات لرعايا الدويلات الإيطالية، فالخليفة الفاطمي المستنصر بالله سمح لتجار أمالفي بين سنتي ١٠٤٨ و١٠٧٠م ببناء مقر لهم في القدس يحتوي على كنيسة ومكان لسكنى مواطنيهم من التجار والحجاج[3]. وأطلق بعضهم على تلك الأبنية الخاصة (الفنادق)Fondouk، ووجدت في معظم المدن الشامية والمصرية مثل: عكا، وطرابلس، ويافا، وصور، وبيروت، ودمشق، وعجلون. وإلى جانب تلك الفنادق وجد القناصل الذين يرعون مصالح بلادهم التجارية والسياسية لدى دولة المماليك[4]، ففي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) أقيمت قنصلية للبنادقة في بيت المقدس في عهد السلطان المؤيد سيف الدين، أما

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١ لوحة ٩١ (مخطوط). والباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٧، ٢٤١.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢.

(٣) Hume, op. cit, p. 4.

(٤) Rey, Les Colonies, pp. 70, 73,74.

جنوه فقد حصلت على حق إقامة قنصلية في بيت المقدس سنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م) بموافقة من السلطان الأشرف برسباي(١).

وكانت لبعض الشركات الإيطالية فروع في أنحاء مختلفة من المدن والبلاد، فالشركة الفلورنسيةBardi كان لها فروع في ايطالية وخارجها. ففي الخارج وجدت فروعها في: برشلونة، وقبرص، وارغون، والقسطنطينية، والقدس، ولندن، ومرسيليا، ونيس، وباريس، وتونس(٢). ثم إن الوجود الأوروبي في بيت المقدس كان يتمثل في أعداد كبيرة من القسوس والرهبان في كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والأديرة(٣). وكان لبيت المقدس علاقاته التجارية مع المناطق المجاورة، فالصناعات من كل أنحاء المدن الشامية والعراقية والفلسطينية والأرمينية والمصرية كانت تأتي إلى القدس والموانيء الفلسطينية، بالإضافة إلى الصناعات والسلع الخاصة بالمدن الداخلية في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا حيث يصدر قسم إلى أوروبا عبر يافا وعكا(٤).

---

(١) رشاد الإمام، مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م، ص٨٢.

(٢) Sapori (Amande), The Italian Merchant in the Middle Ages, New York, 1970, p. 51.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٤٣.

(٤) Rey, Les Colonles, pp. 222-225.

وكانت سلع بيت المقدس ومنتوجاته تصدر إلى الأسواق الخارجية، فبعض هذه السلع كانت تصل إلى أوروبا بواسطة الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المقدسة، حيث يقومون بشرائها ونقلها إلى بلادهم بقصد الريح، أو عن طريق تصديرها بواسطة الموانيء الفلسطينية كعكا ويافا -فقد وصفت يافا بأنها فرضة بيت المقدس على البحر[1]- وتصل السلع إلى القدس عن طريق القوافل التي كانت تنقلها من ايلة (العقبة) ميناء دمشق على البحر الأحمر، ومنها إلى الكرك ثم أريحا وبيت المقدس[2]. نذكر من تلك السلع: التوابل والأحجار الكريمة والصمغ العربي، القادمة من الهند والصين عبر البحر الأحمر والجنوب العربي[3]، والبلسم من أريحا، والحمّر من البحر الميت، والزيت والصابون من نابلس والقدس، والنبيذ من القدس والخليل، والنيل والقطن من وادي الأردن. والمسابح والقماش الدمقس والحرير من دمشق[4]، والسكر من الأغوار والكرك والشوبك الذي وصف بأنه من أجود الأصناف. وكان السكر يصدر للأسواق الأوروبية على شكل عسل السكر، أو بلورات أو مسحوق أو قطع كبيرةLoaf Sugar

---

(١) الأدريسي، نزهة المشتاق، القسم الخاص بالشام، ص٥.

(٢) Rey, Les Colonles, pp. 202-203.

(٣) Ibid; p. 190.

(٤) Thmpson, op. cit; p. 360.

والمنسوجات الصوفية من الرملة، وزيت السمسم وغيرها من السلع الأخرى(١). ومن المنشآت التي خدمت حركة التجارة الخارجية في بيت المقدس (الوكالة).

دار الوكالة:

أقيمت الوكالات في معظم المدن العامة في مصر والشام لخدمة التجارة الخارجية، وأطلق عليها في دمشق (دار الطعم)(٢) وسميت (مخزن التجار). فالتاجر الذي لا يصحب تجارته ولم يرتبط بصديق تاجر يقوم بأعماله، عليه خزن بضاعته لدى وكيل يهتم بتسويقها. فالوظيفة المزدوجة الخزن والتسويق هي من اختصاص (دار الوكالة)، وإن حدث وامتلك الوكيل داراً خاصة به فيطلق عليه (صاحب دار الوكالة(٣). وعلى ذلك فإن وكيل التجار يقوم بمهمة الخازن للسلع (أو المودع لها)، وهو المسؤول عن التجار الأجانب الذي لا يستطيعون الاشراف على أعمالها

---

(١) Rey, Les Colonles, p190.

Prawer, op cit; pp. 394-395.

(٢) دار الطعم بدمشق، وهي بمثابة الوكالة بالديار المصرية، ويتولاها شخص يدعى (شاد دار الطعم) يقوم بجبي المكوس من التجار وولايتها من النائب).

(القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٨٧).

(٣) Goltein, , op. cit; p. 187.

شخصياً[1]. ويتقاضى وكيل التجار عمولة نظير خدماته التي يقدمها لزبائنه، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الأوروبيين المقيمين في بعض المدن في مصر والشام[2]. وجرت العادة أن تباع السلع القادمة من الخارج إما نقداً أو نسيئة، فإذا أحضر التاجر شيئاً من السلع كالثياب مثلاً تسلمته السماسرة وباعته في النداء (الحراج)، أو باعته على التجار نسيئة لأجل، وبذلك يزداد ثمنها فينال صاحب السلعة ربحاً آخر[3]، ولكن المستهلك يدفع ثمناً أكثر لمثل هذه السلعة، وكان السلاطين يمنعون مثل هذا البيع لأن فيه زيادة للأسعار[4].

ووجد في بيت المقدس دار الوكالة التي وصفتها المصادر بأنها خان عظيم يباع فيه أصناف البضائع[5]. إلا أنَّ بعض وثائق بيت المقدس نعتها بـ (الوكالة المرعية) وأطلقت على الطريق المؤدية إليها بـ (طريق الوكالة)[6]. وتسمى دار الوكالة في الوقت الحاضر بـ (خان السلطان). وكانت دار الوكالة وقفاً على مصالح المسجد

---

(١) Ibid; p. 192.

(٢) Ibid; p. 192.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢ ص٦١١.

(٤) المصدر نفسه، ج٤ ق٢ ص٦١١.

(٥) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢.

(٦) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢ هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

الأقصى، ويذكر الحنبلي أن أجرتها السنوية بلغت أربعمائة دينار[1]. وفي العادة وجد (شاد دار الوكالة)، يعين هذا الموظف من قبل النائب في بيت المقدس، ومهمته التحدث في استخراج المكوس من دار الوكالة، وهذه الوظيفة كان يتولاها في دمشق أمير عشرة أو مقدم حلقة، وجندي[2]، وهناك أيضاً (شاد دار الطعم) في مدينة عجلون[3]. وقد جدد بناء دار الوكالة في القدس السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) وأثبت ذلك على لوح رخامي ونقل برشيم نص ذلك النقش كمايلي:

بسملة ... جدد هذه القيسارية المباركة وقف حرم القدس الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله ملكه بنيابة مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام عز الله أنصاره وإنشاء الفقير إلى الله تعالى السيفي اصيغان بلاط ناظر الحرمين الشريفين في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة[4].

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٨٧.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣١ لوحة ٩١ (مخطوط) وللباحث تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٧.

(٤) van Berchem, Corpus insriptionum (Jerusalem), p. 300 وورد اسم بيدمر نائب الشام، وهو سيف الدين بيدمر الخوارزمي تقلد عدة نيابات =

وما زالت آثار وكالة بيت المقدس باقية للآن، ويتوصل إليها عن طريق باب السلسلة بعد أن تتجه يميناً مسافة ٢٠٠ متر. ويحف بدار الوكالة من الغرب سوق الخواجات، ثم يليه سوق العطارين، ثم سوق الحدادين. أما من الشرق فيحف بها (طريق القرمي)[١]، ومن الجنوب ممر يؤدي بك إلى طريق السلسلة.

ويؤدي المدخل إلى دهليز واسع يفضي إلى ساحة سماوية مكشوفة، يحيط بها الحواصل والبوائك والقاعات التي أعدت لخزن البضائع وإقامة المسؤولين عن الوكالة. وهي من طابقين

= منها حلب ودمشق، وفي سنة ٧٨٨هـ القى السلطان برقوق القبض عليه، أي في السنة التي جدد فيها دار الوكالة في القدس، وعين بدلاً منه الأمير استقتمر الماردني، وكان إذ ذاك يقيم في القدس بطالا، حيث عزله السلطان في سنة ٧٨٤هـ عن نيابة دمشق وعيّن بدله الأمير بيدمر الخوارزمي، إلا أن استقتمر عزل عن نيابة دمشق سنة ٧٨٩هـ بالأمير الطنبغا الجوباني، فأقام استقتمر في القدس حتى توفي سنة ٧٨١هـ (المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢ ص٤٦٦، ٥٤٩، ٥٦٠، ٦٨٧).

(١) سميت بطريق القرمي، نسبة إلى شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان القرمي أحد الزهاد الورعين، كان يسكن القدس وعرف بورعه وتلاوته للقرآن الكريم، حتى أنه ختم القرآن الكريم في اليوم والليلة ثماني مرات توفي في بيت المقدس سنة ٧٨٨هـ.
(المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢ ص٥٥٧).

علوي وسفلي، ويتوصل إلى الطابق العلوي من ثلاثة مسالك: الأول درج يقع في صدر الساحة في الركن الشمالي الغربي منها. والدرج الثاني يكون عن يمين الداخل، أما الثالث فهو في الركن الجنوبي الغربي في مواجهة الدرج الأول. ويوجد في الطابق العلوي الغرف والبوائك التي أعدت للإقامة وخزن السلع، وهي ذات أبواب مستطيلة بأعتاب مستقيمة، ويدور بهذا الطابق ممشى مكشوف يطوف بدائرة ويطل على ساحة الوكالة القائمة في الوسط، وتتزود دار الوكالة بالمياه من بئر تقع في صدر ساحتها.

أما البوائك السفلية فهي قاعات كبيرة ضخمة واسعة، تقوم على عدة عقود قائمة على دعامات مربعة الشكل، ويشغل إحدى هذه القاعات في الوقت الحاضر مصنع للنسيج. ويوجد مسجد صغير في الطابق العلوي يقع في الركن الشمالي الغربي، وهو بحالة جيدة فقد رُمِّم حديثاً. وبنيت دار الوكالة بالحجارة المدقوقة المشهرة واستخدم الملاط في بنائها، وأبواب قاعاتها وبوائكها السفلى واسعة ذات عقود مدببة، ونمط بنائها وتوزيعها يشبه بناء الخانات المملوكية الموجودة في منطقة شرقي الأردن كالحسا وضبعة[1].

---

(١) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٢٠١.

وعلى العموم فدار الوكالة في حالة حسنة، وتحتاج إلى ترميم في بعض أجزائها وقاعاتها وغرفها. وقد رممت هذه الوكالة في سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م)، ومرة أخرى في العصر العثماني سنة ١١٧٧هـ (١٧٦٣م)، ويطلقون عليها الآن (الخان السلطاني).

* * *

(٣)

المكاييل والأوزان

وأما المكاييل التي كانت مستخدمة في نيابة بيت المقدس فهي: الغرارة والغرارة تساوي ١٢ كيلاً، والكيل يعادل ٦ أمداد[١]. وكانت غرارة القدس تعادل ٣ غرائر دمشقية أي حوالي ٦١٣,٥كغم قمح أو ما يعادل ٧٩٥ لتراً[٢]. وذكرت المصادر أن بيت المقدس وعمان انفردتا (بالمدى)[٣]، وهو غير (المد) وقد وقع

(١) ابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان، القاهرة، ١٩٧٦ ص٥١, ٨٢. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٨١، ١٩٨، ١٩٩. والغرارة مد ونصف =ثلاثة أرادب مصرية (صبح الأعشى، ج٤ ص١٨١). ويقول ابن قاضي شهبة إنّ غرارة القدس كانت تعادل غرارتين دمشقيتين (ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م، ج٣ ص٥٨١).

(٢) فالتر هنتش، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٦٤.

(٣) المدى: مكيال استخدم في الشام وهو غير المد جمع أمداد (محيط المحيط، مادة مدى).

فالتر هنتش في لبس فخلط بين المد والمدى[1]. وكان مدى بيت المقدس يعادل $\frac{٢}{٣}$ القفيز، والقفيز يعادل ٤ ويبات أو ٣٦ صاعاً، إذن فمدى القدس = ٢٤ صاعاً = ١٠٠ لتر[2].

واستخدمت مدينة الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، فالويبة في الرملة تعادل $\frac{١}{٤}$ قفيز =٨, ٣٧ لتراً، أما المكوك $\frac{١}{٢}$ فيعادل القفيز ويساوي ١٩ لتراً[3].

وشاع استخدام الرطل في أوزان نيابة بيت المقدس، وذكرت المصادر الرطل المقدسي، والرطل النابلسي، والرطل الخليلي، وجميع هذه الأرطال كانت متساوية فالرطل في كل يعادل ٨٠٠ درهم، أما الأوقية المقدسية والنابلسية والخليلية فكانت تساوي $\frac{٢}{٣}$٦٦ درهم=٣٣, ٨, ٢غم، أما رطل الرملة فكان يعادل ٧٣٢ درهماً=٣٣١, ٢كغم[4]. وكانت الأرطال في بلاد الشام تختلف في وزنها من نيابة إلى أخرى،

---

(١) فالتر هنتش، المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١. لي سترانج، ص٦٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١، فالتر هنتش، المرجع السابق، ص٧٩. وللباحث، عمان حضارتها وتاريخها، عمان، ١٩٧٩، ص١٦٩. ولمزيد من التفاصيل عن الأوزان انظر: ابن سلام، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٦٨م، ٦٨٨-٦٩٩.

(٤) فالتر هنتش، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٢٠، ٣٣.

فرطل دمشق كان يعادل ٦٠٠درهم =١٢ أوقية والأوقية تعادل ٥٠ درهماً =١٦٦ , ١٥٤غم . أما رطل غزة فهو ٧٢٠ درهماً ورطل الكرك ٩٠٠ درهم، أما رطل عجلون فيعادل ١٢٠٠ درهم[١] . واستخدم الأهالي في القدس والخليل والرملة ونابلس القنطار ويساوي ١٠٠ رطل، وكانوا يزنون به زيت الزيتون .

أما المقاييس فاستخدم في نيابة بيت المقدس ذراع القماش[٢]، أو ذراع البز=٧٧ , ٦٤سم[٣]، وكانت ذراع القماش الشامي تزيد عن ذراع القماش المصري بمقدار نصف سدس ذراع، وتعادل ٦٣سم . أما الدور فقد أشارت وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس أن قياسها يتم بذراع العمل وتعادل ٨ , ٧٩سم . فالوثيقة رقم ٧٧ ذكرت وقف عشرة حوانيت بسوق الليل معقودة بالحجر والجير . ارتفاعها ستة أذرعها ستة أذرع بالعمل، وقفت هذه الحوانيت على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[٤]، وأذراع العمل هذه طولها ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل[٥].

---

(١) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٨١ ، ١٩٨ .
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٩ .
(٣) فالتر هنتش، المرجع السابق، ص٨٦ .
(٤) وثيقة رقم ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس .
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص١٨١ .

(٤)
السكة

كانت المعاملات التجارية تتم في نيابة بيت المقدس عن طريق المقايضة أو بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية المسكوكة في دمشق أو القاهرة أو في أنحاء أخرى من دولة المماليك[١]. وذكرت المصادر عن وجود دار السكة في بيت المقدس، إلا أننا لم نعثر على ما يشير إلى استمرارها في أداء دورها في العصر المملوكي. فدار السكة في بيت المقدس واصلت ضرب السكة في العصر الأموي، والذي وصلنا من ضرب بيت المقدس فلوس تحمل (ايليا) إحدى أسماء بيت المقدس. ويحتفظ المتحف الإسلامي بالقدس بعدد من هذه الفلوس النحاسية التي تعتبر الأنماط الأولى للسكة الاسلامية، وقد ضربت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عندما عرّب

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص ١٩٩ .

السكة. فالفلس رقم س $\frac{٥١}{٢٥٢}$ عليه صورة الخليفة عبد الملك يرتدي جبة طويلة ويغطي رأسه بكفية تتدلى على كتفيه، ويقبض بيده اليمني على سيفه. وعن شمال صورة الخليفة هذه كلمة (محمود)، وفي الجهة اليمنى من الصورة إلي الأعلى كلمة (رسول الله)، أما الظهر فعليه حرف (=) ومن اليمين (فلسطين) وعن شمالها (بالليليا) وكذا الفلس رقم س $\frac{٨٥}{٢٥٢}$ يحمل نفس النقش.

وبعد أن ألغي هذا النمط من السكة -الذي يحمل صورة الخليفة - لأن الاسلام يقف موقفاً سلبياً من التصوير ابطلت الصورة واكتفي بنقش بعض العبارات فقط. ومن أنماط هذه السكة التي ضربت في بيت المقدس الفلس رقم ن ق $\frac{٩}{٢٥٠}$ الموجود في المتحف الإسلامي بالقدس والنقش الموجود عليه:

الوجه	الظهر
لا إله إلا	محمد رسول اللّه
اللّه وحده	الإطار
(ضمن ثلاث دوائر)	(بسم اللّه ضرب هذا الفلس بايليا)

وهناك فلوس مشابهة لما سبق منها الفلس رقم س $\frac{٥٥}{٢٥٢}$،

س $\frac{٢١}{٢٥٠}$، ويوجد فلوس مشابهة لهذه الفلوس محفوظة في بعض المتاحف ولدى المجموعات الخاصة[١] . ولم نعثر على سكة ضربت في بيت المقدس بعد العصر الأموي، وعلى هذا النحو فإنّ دار السكة بالقدس بطل استخدامها بعد سقوط الدولة الأموية في بلاد الشام .

أما دار السكة التي بقيت تؤدي دورها طيلة العصور الاسلامية الأخرى فهي دار سكة مدينة الرملة، وكثيراً ما أشير إليها (بفلسطين) باعتبارها حاضرة فلسطين منذ عهد سليمان بن عبد الملك، ودار سكتها ضربت إلى جانب الفلوس النحاسية الدراهم الفضية، والدنانير الذهبية . وفي العادة فإنّ سنة الضرب على الفلوس الأموية لم تكن موجودة، إلا أن المتحف الاسلامي بالقدس يحتفظ بفلس نادر عليه سنة الضرب ١١٧ هـ ويعود لعهد الخليفة هشام بن عبد الملك رقمه س $\frac{٧٣}{٢٥١}$، والنقش كما يلي :

الوجه	الظهر
لا إله إلا	محمد
الله وحده	رسول
لا شريك له	الله

(١) سمير شما، النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين، ١٩٨٠م، ص٨٠ .

ضرب هذا الفلس بالرملة سنة سبع عشرة ومئة. وفي إطار الوجه يوجد غصن نخيل بشكل سلسلة مجدولة، أما إطار الظهر فعليه مكان وسنة الضرب[1].

وقد استمرت دار السكة في مدينة الرملة تؤدي وظيفتها في ضرب السكة الذهبية والفضية في العصور الاسلامية المختلفة. وهناك مجموعات من سكة الرملة ذهبية وفضية محفوظة في المتاحف العالمية المختلفة وفي المجموعات الشخصية. وقد أورد الأستاذ سمير شما إحصائية لمعظمها وأكثرها ذكر فيه مكان الضرب (فلسطين)، وفلسطين كانت تعني إذ ذاك الرملة[2]. والظاهر أنَّ دار السكة في الرملة توقفت بعد استيلاء الفرنج عليها في الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م)، وبقيت بيد الفرنج حتى حررها صلاح الدين مع بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)[3]. أما العصر المملوكي فلا يوجد لدينا ما يثبت ضرب السكة في الرملة، فمعظم السكة كانت تضرب في دمشق

(١) هناك ثلاثة فلوس أخرى ضرب الرملة عليها تاريخ: ١٠١هـ، ١١٦هـ، ١٠١هـ، في المتحف البريطاني والمكتبة الأهلية في باريس. (انظر: سمير شما، النقود الاسلامية، ص ٨١).

(٢) انظر سمير شما، النقود الاسلامية التي ضربت في فلسطين، ص ٩١-١٥٩.

(٣) ولديَّ تحفظ على ما أورده الأستاذ سمير شما في كتابه (النقود الاسلامية ص ١٥٩) عن فلس نحاسي ضرب في الرملة في العصر الأيوبي سنة ٥٨٠هـ، =

والقاهرة والاسكندرية، وقد أشار القلقشندي إلى أنَّ المعاملة في نيابة بيت المقدس تتم بالذهب والفضة والفلوس على نحو ما يتم في نيابة دمشق[1] .

وقد تعامل الناس في العصر المملوكي بثلاثة أصناف من الذهب، فالأول هو الذهب الهرجه، وهذا الصنف هو الذهب الإسلامي الخالص، وهو مستدير الشكل نقش على الوجه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأنَّ محمداً رسول اللّه، وعلى الظهر: اسم السلطان وتاريخ الضرب ومدينة الضرب[2] . أما الصنف الثاني فهو الذهب الافرنتي والافلوري والبندقي والدوكات، وهذه الدنانير كانت تجلب من بلاد الافرنج، فالافرنتي نسبة إلى فرنسا، والافلوري نسبة إلى فلورنسا، أما البندقي والدوكات فترجع في نسبتها إلى البندقية، فحاكم البندقية يدعى دوقاً ومن هنا جاءت النسبة للدوكات. ويشير المقريزي أن هذا الصنف من الدنانير صار نقداً رائجاً في الدولة المملوكية منذ سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) ، يذكر

= وهذا الفلس من مجموعة أحمد توحيد ويحتفظ به متحف الآثار باستنبول.
فالرملة في هذا التاريخ كانت تحت السيطرة الصليبية، فلم تتحرر الرملة إلا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م)، بعد معركة حطين، لذا فان إعادة التدقيق والتأكيد من تاريخ الفلس أمر ضروري.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ص ١٩٩ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق١ ص٣٠٤ .

أن على وجه هذه الدنانير يوجد صورة إنسان في دائرة مكتوبة بخطهم، أما الظهر فعليه صورتان في دائرة مكتوبة[(١)]. ويفسر القلقشندي هذه الصور فيذكر أن الصورة الأولى هي صورة الملك الذي ضربت السكة في عهده، أما الصورتان اللتان على الظهر فهما لبطرس وبولس الحواريين[(٢)]. وقد أشارت المصادر إلى وجود (الدنانير المصورة) في بيت المقدس[(٣)]، وهذه الدنانير هي التي أشرنا إليها سابقاً، وكان التداول بها مسموحاً في العصر المملوكي. ومصدرها من الدويلات الأوروبية يحضرها الحجاج أو تصل إلى القدس عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تتم بين بيت المقدس وأوروبا عبر ميناء يافا على ساحل البحر المتوسط[(٤)]. وقد أقيمت المصارف لخدمة التجار الايطاليين، فكان لكل دولة مصرف أو بنك Banque لخدمة مصالحهم وتسهيل صفقاتهم التجارية مثل: جنوا وفينيسيا، وفلورنسا، وبيزا[(٥)]. أما الصنف الثالث من الذهب الذي تعامل به الناس في العصر

---

(١) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق ١ ص ٣٠٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص ٤٣٧.

(٣) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢ ص ٣٠٥. ابن أياس، بدائع الزهور، ط الشعب، ص ٥٤٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق ١ ص ١٤٣.

(٥) Rey, Les Colonies Franques, p. 192.

المملوكي فهو ذهب أقل في عياره من الصنف الأول، وفي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) سموه (الذهب الناصري) نسبة إلى السلطان الناصر فرج [١].

وجرت العادة أيضاً أن يتعامل الناس في بلاد الشام بالفلوس والقراطيس، أما القرطيس فيعادل ستة فلوس، أما الدرهم فيعادل ٢٤ قرطيساً، وقد أبطل الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) التعامل بتلك القراطيس في بلاد الشام، وجعل التعامل بالفلوس فقط، بحيث يساوي الدرهم ٢٤ فلساً[٢].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق ١ ص ٣٠٦.

(٢) ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، لوحة ٥٢٣ (مخطوط).

(٥)
الموارد المالية في النيابة

وما دمنا بصدد الحديث عن الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس فلا بد أن ننوّه بموارد النيابة المالية، فالمعروف أن النيابات في بلاد الشام كانت ترسل قسماً من دخلها إلى السلطان في القاهرة. ونيابة بيت المقدس كانت ترسل قسماً من مواردها إلى السلطان، ففي دولة المماليك الثانية (الجراكسة) كان المتحصل من جبل نابلس والقدس من زيت الزيتون كميات كبيرة. وكان السلطان في القاهرة يفرض هذا الزيت على التجار والأهالي في القدس والخليل والرملة بأسعار عالية[1]، وكان بعض النواب يفرضون الأموال على أهالي القدس بالقوة، ففي سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) قرر نائبها الأمير حسن على الناس مالاً كثيراً، فأبوا دفعه، فقاتلهم في المسجد الأقصى وحصّل منهم الأموال بعد

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٣٥٦، ٣٥٨.

أن قتل بضعة عشر رجلاً[١] . أما أهم الموارد المالية للنيابة فتتمثل بما يلي :

١ - المكوس:

وهي ضريبة كانت تحصلها نيابة بيت المقدس على التجارة والصناعة، وخصوصاً على السلع المجلوبة إلى دار الوكالة في بيت المقدس، وقد عيّن شاد دار الوكالة ليجمع هذه الضريبة من التجار والبضائع المباعة في دار الوكالة، وكان المكوس يفرض على السلع القادمة من البحر إلى ميناء يافا أو المصدرة منه، فيؤخذ من أولئك التجار العشر مع لواحق أخرى[٢]، وفي أحيان كان يؤخذ الخمس وربما زاد على ذلك[٣] . وكان هناك مكس الغلة، فيؤخذ من ثمن كل غرارة ثلاثة دراهم ونصف فضة، وكان المتحصل منها مبلغاً كبيراً، فسبب ضيقاً للفلاحين. عندئذ عمد الناصر محمد بن قلاوون إلى إبطال مكوس الغلة بالشام كلها[٤] . ويؤخذ المكوس من البضائع والسلع الواردة إلى أسواق القدس والخليل الداخلية والخارجة. ونعتت المصادر هذه الضرائب

---

(١) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق ٣ ص ١١٥٣ .
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٦٦ .
(٣) المصدر نفسه، ج ٣ ص ٤٥٩ .
(٤) ابن بهادر، فتوح النصر ، لوحة ٥٣٢ (مخطوط).

الإضافية بالمظالم، وكثيراً ما ألغى السلاطين هذه المظالم، فالسلطان الأشرف قايتباي ألغى المظالم في جبل القدس والخليل والمكوس المفروضة على البضائع المجلوبة إليهما ونقش ذلك على رخامة يحتفظ بها المتحف الإسلامي في القدس تحت رقم م ز ٢٢ هذا نصه:

١ - بسم اللّه الرحمن الرحيم برسم مولانا السلطان المالك الملك.

٢ - الأشرف أبو النصر قايتباي عزَّ نصره بإبطال ما أحدث.

٣ - من المظالم بجبل القدس الشريف وجبل الخليل عليه السلام من الإقامة وما على.

٤ - البضائع المجلوبة إلى بلد سيدنا الخليل من المكي المسمى

٥ - بالطعم وغيرها وأن لا يتعرض المحتسب ولا غيره ببلد الخليل لشيء

٦ - من ذلك في تاسع عشر المحرم سنة أحد وثمانين وثمانمائة.

٢ - الخراج:

ويدعى المال الخراجي، ويحصل من الأراضي المرصدة

للزراعة بأنواعها، ومن كروم العنب والزيتون والنيلة والأرز والكبريت، ومن الطواحين التي تدور أحجارها بمياه السيول.
وكذلك ما يستأدي من الفلاحين، وكان يسمى في بلاد الشام في العصر المملوكي (رسم الأعياد والخميس)، ويتكون من أغنام ودجاج وكشك وبيض، ويكون على النواحي الإقطاعية غالباً[1].
وكان المتبع في بلاد الشام أن يتم تحصيل الخراج بعد تمام المحصول، فإن كانت حبوباً يخرج المباشرون إلى البيادر ويحصلون ما يخص الديوان من الخراج. وكان شيوخ القرية وفلاحوها يعرفون عدد الأفدنة في قراهم، ولدى ديوان الأمير المقطع سجلات بعدد الأفدنة ومتحصلها، وعلى المقوّم تقع مهمة تقدير ما يجب تحصيله لبيت المال[2]. ويحدث الشيء نفسه لموسم الزيتون فيحضر المباشرون إلى المعاصر ويستوفون حقوق السلطان، ثم يعهد السلطان إلى نائب بيت المقدس بيع المتحصل وإرسال ثمنه إلى القاهرة، وإذا كانت مزارع الزيتون قديمة (رومي) فيحصل $\frac{٥١}{٢٥٢}$ محصولة للدولة، وإن كانت أشجار الزيتون إسلامية فيحصل منها ضريبة الخراج على أساس عدد الأشجار وسعر الزيت، وكان يطلق عليه (محصول الزيتون

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٨ ص ٢٤٥.
(٢) السبكي تقي الدين، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، ص ٨.

الإسلامي)[1]. ويحدث مثل ذلك إلى الخروب والسماق والجوز واللوز والأرز، والكروم والبساتين والمقاثي ويسمى (خراج العين)[2].

وجرت العادة أن تكون هناك جهات مضمنة على أربابها بشيء معلوم يؤخذ منهم عند إدراك المغلّ دون توكيل أو مقاسمة[3]. أما السكر فتؤخذ الضريبة منه بعد تمام عصر القصب وجفافه، وكان المباشرون يراقبون عملية استخراج السكر ويسجلون ذلك في سجلات خاصة، وبعد تمام جفافه ونقائه يأخذون الضريبة المستحقة عليه[4]. وكان نائب بيت المقدس يجبي من فلاحي الضياع في نيابته أربعة آلاف دينار سنوياً، فخرج مرسوم سلطاني سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) أبطل هذه المغارم، ونقش هذا الأمر على لوح رخامي أثبت في جدران المسجد الأقصى[5].

٣ - الجوالي:

هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، وبلغت قيمة ما يؤديه الفرد في العصر المملوكي مبلغاً

---

(١) Hütteroth, op cit., pp, 66,69.
(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ٨ ص ٢٤٥.
(٣) النويري، المصدر نفسه، ج ٨ ص ٢٦٠.
(٤) النويري، المصدر نفسه، ج ٨ ص ٢٧٢، ٢٧٣.
(٥) المقريزي، السلوك، ج ٤ ق ٢ ص ٥٨٤.

يتراوح بين ٢٥-١٠ دراهم سنوياً، تحصل في شهر رمضان، ويحمل قدر معين منها إلى بيت المال. ويقوم نائب بيت المقدس بتحصيل ذلك[١]، من النصارى واليهود في نيابته والسامرة في نابلس. وكان يعين شاد لجمع الجوالي، ويلزم مباشر الجوالي في كل سنة رئيس اليهود، ورئيس السامرة، وبطرك النصارى أو أسقفهم بكتابة رقاع فيها أسماء طائفته، ويسجل فيها أيضاً ما يستجد على تلك الطائفة بالطوارىء والنوابت والموت وغيره[٢].

وكانت الجوالي المحصلة من بعض القرى في منطقة القدس والخليل تخصص أحياناً لأحد أمراء المماليك في دمشق، فالجوالي المحصلة من قرية (مجدل فضيل) بمنطقة الخليل كانت ترسل للأمير سعد الدين مسعود بن محمد السراي أحد أمراء العشرات في دمشق. انتزع هذا الحق من خدام الحرم الشريف بالقدس، ولكن الناصر محمد بن قلاوون أصدر مرسوماً في سنة ٧٠٠هـ

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ٨ ص ٢٤٢، ٢٤٣، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢ ص ٣١٠ عن مباشر الجوالي في دمشق.
القواريء: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه.
النوابت: أي النشيء الصغار عندما يصلون سن البلوغ.

(١٣٠٠م) أبطل هذا الإجراء، وأعاد المتحصل من جوالي قرية مجدل فضيل إلى خدام الحرم الشريف بالقدس[١].

واعتاد بعض النواب جمع ضريبة أخرى من أهل الذمة من القدس عند قدوم خلعة السلطان أو تعيين نائب جديد. ولكن السلطان جقمق أبطل هذه الضريبة وأصدر مرسوماً بذلك سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) نقشه على لوحة رخامية أثبتها في الحرم الشريف. وقد وصل إلينا هذا النقش المكون من خمسة أسطر ويحتفظ به المتحف الإسلامي بالقدس تحت رقم م ز ١٦ نصه:

١ - برز المرسوم الشريف السلطان المالكي الظاهري أبو سعيد جقمق.

٢ - عز نصره بأن يبطل ما على الذمة بالقدس الشريف من الخدمة والقدوم عند

٣ - حضور النائب الجديد من عند (البابن) خلعة وأن لا يكلفوا الجزية

٤ - الشرعية ومنع التقدمة (من السلاطين) من التعرض لهم وأن يكون

---

(١) وثيقة رقم ٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس. وانظر نص المرسوم في الملاحق.

٥ - ناظر الحرمين الشريفين متكلما عليهم بتاريخ شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثمان ماية .

والظاهر أن نصارى بيت المقدس نالوا حظوة خاصة لدى السلطان جقمق ، ففي السنة التالية ٨٥٤هـ (١٤٥٠م) أصدر مرسوماً نقشه على قطعة من الرخام أبطل فيه الضمان الذي كان يؤخذ من رهبان دير الأرمن بالقدس ونص المرسوم :

برز مرسوم مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد محمد جقمق عزَّ نصره بإبطال ما أحدثه أبو الخير ابن النحاس من ضمان مار يعقوب دير الأرمن بالقدس الشريف على ما رده (؟) سيف الدين المقر الشرفي الأنصاري وسأل في إبطال ذلك ليسطر في الصحائف الشريفة بتاريخ أربع وخمسين وثمانمائة من الهجرة الشريفة ملعون ابن ملعون وعليه لعنة اللّه تعالى من أحدث ضماناً، أو جدد مظلمة[١] .

---

(١) Van Berchem, Corpus inscriptionum, (Jerusalem), pp, 332-333.

ورد في النقش اسم أبو الخير ابن النحاس ، وهو وكيل بيت المال في القاهرة ، قال أبو المحاسن أنه شخص من الباعة . عينه السلطان جقمق سنة ٨٥١هـ في هذا المنصب وهو الذي أحدث هذه الضريبة على رهبان دير الأرمن بالقدس . (النجوم الزاهرة، ج١٥ ص ٣٧٥).

٤ - الرسوم المفروضة على الفرنج (الحجاج):

كانت حركة السياحة وزيارة الأماكن المقدسة في نيابة بيت المقدس سهلة وميسرة للفرنج، فينزل الزائرون والحجاج القادمون من أوروبا في ميناء يافا بندر بيت المقدس على البحر المتوسط. ويقدم لهم النائب كل التسهيلات الممكنة، ويعين عدداً من الجند لحمايتهم وإيصالهم إلى بيت المقدس عن طريق الرملة. وبالمقابل كانت الدولة المملوكية تستوفي رسوماً خاصة منهم، يدفعونها حال نزولهم إلى البر[1]. وكان السلطان يرتب شخصاً من قبله لجمع هذه الضريبة، فقد تولاها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) شرف الدين قاسم، وبهاء الدين أبو بكر بن غانم، وتم ذلك بتوقيع شريف سلطاني من القاهرة، ولكن المصادر لم تذكر قيمة ما يحصل من كل حاج.

---

(١) ذكر الرحالة الذين زاروا القدس في القرن الخامس عشر الميلادي هذه الضريبة.
انظر: نقولا زيادة. رحلة فيلكس فابري، بحث ألقي في موتمر بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠، ص ٨.
ومحمود زايد، دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين، بحث ألقي في مؤتمر بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م، ص ٧.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٤٦، ٤٧.

٥ ـ متحصل كنيسة القيامة:

وتؤخذ هذه الضريبة من الزائرين لكنيسة القيامة ومن القاطنين فيها من رجال الدين، وعيِّن لها موظف خاص سمي (شاد متحصل قمامة)، وكان يتولاها بتوقيع خاص من السلطان في القاهرة[١]. وقد أورد القلقشندي صورة هذا التوقيع، يطلب السلطان من متوليها استعمال الشدة واللين والدقة في جمع هذه الضريبة، والرأفة بالضعفاء وغير القادرين من القس والرهبان. وكانت هذه الضريبة تؤخذ على الرأس، وهي تختلف عن الرسوم المفروضة على الحجاج القادمين لزيارة القدس عن طريق يافا وغيرها. وكان جزء من متحصل الكنيسة يرصد للانفاق على بناء القلاع والمهمات الأخرى، ففي سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) خصص نصف متحصل كنيسة القيامة إعمار قلعة دمشق[٢].

* * *

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢ ص ٣٣٦، وانظر نص التوقيع في الملاحق.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٣ ص١٠٦٦.

(٦)
الأوقاف

الوقف لغة الحبس، ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية أو للمجاهدين والفقراء، أو لليتامى وفك رقاب العبيد، وإما لبناء المساجد والحصون والبيمارستانات والمدارس والزوايا والأربطة والخانات أو لغيرها من المنافع العامة[1]. والأوقاف خاصة ورسمية، فالخاصة يوقفها بعض الأتقياء والأمراءوالأغنياء وربما بعض العامة. والرسمي يكون من قبل الخليفة أو السلطان أو الحاكم للنفقة على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة[2].

---

(١) السبكي تقي الدين، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦م ص٨.

(٢) محمد عبيد الكبيسي، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، بغداد، ١٩٧٧، ج١ ص٣٨، وللباحث، القرية الأردنية الفلسطينية في العصر المملوكي في ضوء وقفية قرية آدر، بحث قدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، اكسفورد، ١٩٨٠م، ص١٤.

ووجد في نيابة بيت المقدس العديد من المؤسسات العامة، فالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمدارس الكثيرة، والخانقاوات والأربطة، والحرم الإبراهيمي في الخليل والمؤسسات الأخرى في نابلس والرملة، كل تلك المنشآت وقف عليها المسلمون الأوقاف العديدة في مصر والشام. وكان ريع تلك الأوقاف يرصد للنفقة على تلك المؤسسات، وشكّل هذا دخلاً جيداً لنيابة بيت المقدس. وعيّن لكل وقف ناظراً يشرف على شؤون وقفه، فناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل كان من مهامه الإشراف على أوقاف الحرمين من نفقة وترميم وتعمير وإصلاح.

ونصّت الوثائق على وقف العديد من دور بيت المقدس على مصالح المسجد الأقصى أو الخانقاه الصلاحية، أو البيمارستان الصلاحي. ولدينا في المتحف الإسلامي في بيت المقدس ٧٥٠ وثيقة معظمها وقفيات وقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية في بيت المقدس والخليل. من ذلك الوثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ واقفها جعفر بن محمد بن أبي بكر من القدس الشريف، وقف عمارة الدار الكائنة بالقدس بخط باب العامود بعد مماته على مصالح البيمارستان الصلاحي في بيت المقدس، ونصّت الوثيقة (بأنه وقف صحيح شرعي مؤبد. وحبس

دائم محلل لا يباع ولا يوهب ولا يملك ما دامت الأرض والسماوات)[1].

أماالوثيقة رقم ٥٤ تاريخ ٧٨٣هـ فواقفها جمال بن عبد اللّه. وقف داره الكائنة في القدس على الخانقاه الصلاحية، يصرف ريعها على الفقراء المقيمين بها والواردين إليها وقفاً صحيحاً مؤيداً، على ألا تباع أو توهب ولا ترهن[2].

ونصت الوثيقة رقم ٤٣ على وقف (خان العناية) الكائن بباب حطة على المدرسة الصلاحية في القدس[3]. ومن الأوقاف الهامة التي وقفت على مصالح المسجد الأقصى (دار الوكالة) التي كانت تؤجر بمبلغ ٤٠٠ دينار سنوياً تورّد إلى ناظر الحرمين بالقدس[4].

وهناك المئات من الوقوف في القدس والخليل حبست لصالح المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية السالفة الذكر. من ذلك سوق العطارين، وقفه صلاح الدين على شؤون المدرسة الصلاحية، وسوق الخضروات وسوق القماش الواقعة قرب باب

---

(١) وثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٢) وثيقة رقم ٥٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٣) وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢.

الخليل، وقفها صلاح الدين الأيوبي على مصالح المسجد الأقصى. ومنها الوقف الذي وقفه الأمير عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري سنجر الدواداري الصالحي على الخانقاه الدويدارية في القدس سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م)، وشمل هذا الوقف أماكن متعددة في فلسطين والشام، منها قرية بير نبالا[١]، وقرية حجلا من أعمال أريحا، ودار ومصبنة وستة حوانيت، ووراقة وحمّام الملكة في مدينة نابلس، وثلاثة بساتين، وثلاثة حوانيت في بيسان، وقرية طبرس من أعمال قاقون[٢]. وفي سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) وقف السلطان حسام الدين لاجين ضيعة الأقسّا من عمل يافا والرملة على مصالح جامع ابن طولون في القاهرة، وقد استثنى من هذا الوقف المسجد والطريق والمقبرة[٣]. ولم تكن الأوقاف محصورة في القدس بل نصّت الوثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧هـ على وقف إحدى القرى في معاملة القدس يصرف ريعها في جامكية (راتب) الخطيب والمؤذن ومصالح السقاية في القدس الشريف[٤]. ونصت الوثيقة رقم ٥٠ على وقف أحكار على الحرم

---

(١) وتسمى الآن (بيرنبالا) وهي قرب القبيبة.

(٢) van Berchem, Copus inscriptionum, (Jerusalem), p. 214.

(٣) السبكي تقي الدين، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، ص٣١.

(٤) وثيقة رقم ٢٢ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

الخليلي[1]. أما الوثيقة رقم ٧٧ فنصت على وقف عشرة حوانيت في سوق الليل معقودة بالحجر والجير ارتفاعها ستة أذرع بالعمل، ومعها بئر ماء عمقها أربعون ذراعاً، وقفت على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[2]. ونصّت وثيقة أخرى مؤرخة في سنة ٧٥٢هـ على وقف الحانوتين الكائنين بطريق الوكالة على مصالح الرباط الركني الصلاحي.

ولم تكن الأوقاف حكراً على المؤسسات الدينية الإسلامية، بل وجدت أوقاف للنصارى وقفوها على كنيسة القيامة أو البطركية، فالوثيقة رقم ٤٦ هو سند إيجار تاريخه ١٩ محرم ٧٤٧هـ، استأجر بموجبه الشقيقان داود بن نصر وأحمد بن نصر (حمام البطريرك) في القدس الشريف، من أوقاف البطركية المقدسية، بإيجاز قدره ١٣ درهم فضه نقرة يومياً، عشرة دراهم أجرة الحمام وثلاثة لتنظيفه. واستلم المؤجر منهم سلفاً مبلغ ٣٠٠ درهم أجرة شهر كامل، ونصّت وثيقة الإيجار أن على المستأجر نزح البركة من المياه[3]. وذكر مجير الدين الحنبلي أن اليهود امتلكوا كنيساً في القدس وأوقافاً خاصة بهم[4].

---

(١) وثيقة رقم ٥٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٢) وثيقة رقم ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٣) وثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢.

ومن الطريف أن هناك وثيقة رقم ٨٤ وقف صاحبها ممتلكاته على مصالح المسلمين، وهي ممتلكات بسيطة تشتمل على كمية من البرغل، وطراحة بوجه قدسي، وبساط وعسلية بها قمح، وكوز من شحم مذاب[١].

والوقف في الإسلام أدَّى خدمات دينية وإنسانية وإجتماعية واقتصادية وثقافية كبيرة، وهو أسمى ما وصل إليه المجتمع الإنساني من تعاون وتآلف وتحابب. فمن جملة الأوقاف ذات النفع العام، ما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، فذكر أنَّ الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها منها: (أوقاف على العاجزين عن الحج)، تصرف لمن يحج عن هؤلاء العاجزين. ثم (أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن)، يرصد ريعها للفتيات اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن للزواج، ومنها (أوقاف لأبناء السبيل)، وهم المنقطعون عن بلادهم، فيعطون ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم. ومنها (أوقاف على تعديل الطريق ورصفها)، ترصد لرصف أزقة وشوارع مدينة دمشق حتى يسهل السير والمرور فيها[٢].

ومن الأوقاف الجديرة بالاهتمام ما سمي بدمشق (أوقاف

---

(١) وثيقة رقم ٨٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص٩٩.

الأواني)، فذكر ابن بطوطة أنه شاهد مملوكاً سقط من يده صحفة من الفخار الصيني، فجمع شقفها وحملها لصاحب أوقاف الأواني، فدفع الناظر له ما اشترى به مثل ذلك الصحن (وهذا من أحسن الأفعال فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه عن كسر الصحن أو ينهره، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب[1].

وحظيت الأوقاف في بيت المقدس باهتمام السلاطين المماليك، فعينوا من يشرف عليها ويعمرها ويحميها، فالظاهر بيبرس عند زيارته للقدس سنة (٦٦١هـ-١٢٦٢م) كشف أحوال البلد وما يحتاج إليه المسجد الأقصى من العمارة. ثم نظر في الأوقاف، وكتب بحمايتها، ورتَّب خمسة آلاف درهم، تصرف سنوياً برسم مصالح المسجد الأقصى[2]. ووقف عدة قرى من أعمال الشام والقدس، يصرف ريعها في ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة. ثم بنى خاناً خارج القدس وقفه لخدمة المسافرين والزائرين إلى المدينة المقدسة[3]، وأعاد ترتيب السماط بمدينة الخليل، لإطعام زوار الحرم الخليلي[4]. أما في سنة

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٠٠.
(٢) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٤٩١.
(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٢١.
(٤) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢ ص٥٠٥.
ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٤.

١٨١٢هـ (١٤٠٩م) فقد زار السلطان فرج بن برقوق بيت المقدس وتصدَّق بخمسة آلاف دينار ذهباً، وبعشرين ألف درهم فضة على الأهالي والأوقاف[١].

وجرت العادة أن يرسل السلطان كاشفاً لينظر في أحوال بيت المقدس، وكان نظار تلك الأوقاف يجمعون له مبلغاً من المال، فبلغ هذا المبلغ في سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) ١٢٠٠ دينار فجمعوا من أوقاف المسلمين ٩٠٠ دينار، و٣٠٠ دينار من أوقاف أهل الذمة[٢].

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص١٠٨.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٣ ص٨٩.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٣١٨ وأنظر ص ٨٦٤.

الفصل الرّابع

النشاط السكّاني والمؤسّسَات الإجتماعيّة

١ - الديموغرافية وعناصر السكان.

٢ - الدور والحارات وطبوغرافية المدينة.

٣ - المؤسسات الاجتماعية في النيابة

(١)

الديموغرافية وعناصر السكان

تدل الدراسات الديموغرافية أنّ سكان بيت المقدس بلغ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ٢٠,٠٠٠ نسمة[١]، ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري (الثاني والثالث عشر الميلادي) فبلغ ٣٠,٠٠٠ نسمة[٢]. وبلغت مساحة المدينة المقدسة ٧٢٠ دونماً، فكثافتها السكانية إذن ٤٢ شخصاً للدونم الواحد[٣]. ومن الملاحظ أنّ الكثافة السكانية في بيت المقدس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا، التي بلغت كثافتها السكانية ٥٠ شخصاً للدونم الواحد[٤].

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٦.
لي سترانج، ص٩٩.

(٢) Benvenisti, The crusader in the Holy Land, p. 26.

(٣) Ibid; p. 26.

(٤) Ibid; p. 27.

وبلغ عدد السكان في المدينة المقدسة أوجه في القرن السابع والثامن الهجري (الثالث والرابع عشر الميلادي)، فبلغ سكان المدينة المقدسة آنذاك ٤٠,٠٠٠ نسمة، فكثافتها السكانية كانت ٥٦ شخصاً للدونم الواحد، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى.

ثم أخذت الكثافة السكانية في التدني، فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ١٦,٠٠٠ نسمة، ثم تدنى إلى النصف، فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري (١٥م) ٨,٠٠٠ نسمة، ثم أصبح في أوائل القرن العاشر الهجري (١٦م) ٣,٠٠٠ نسمة. ثم أخذ في الصعود، ففي منتصف القرن ١٦م بلغ ٨,٠٠٠ نسمة، ثم أخذ في الهبوط مرة أخرى، ولكن سرعان ما عاد للإرتفاع ثانية في العصر العثماني[١].

(١) في نهاية القرن العاشر الهجري (١٦م) لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية فديموغرافيتها كانت على الشكل التالي: =

صفد أكبر المدن الفلسطينية	١٢,٠٠٠ نسمة.
القدس	٨٠٠٠ نسمة
غزة	٦٠٠٠ نسمة
نابلس	٤٣٠٠ نسمة
الخليل	٣٥٠٠ نسمة
كفر كنا	٢٨٥٠ نسمة
مجدل	٢٨٠٠ نسمة
لد	٢٥٠٠ نسمة

وقد حدث تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين أثناء الغزوة الصليبية على بلاد الشام، فهجر السكان المدن الساحلية(١)، أما المدن الداخلية فهجرها بعض سكانها، ومع ذلك بقيت مأهولة بالعرب الوطنيين، وهذا التخلخل حدث في الرملة وبيسان والخليل، أما بيت المقدس ففقد الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية، فالمصادر اللاتينية تذكر أن الفرنجة قتلوا في المدينة المقدسة عشرين ألفاً، بينما قدرت المصادر الإسلامية العدد بسبعين ألفاً(٢). ولم يسمحوا بادئ الأمر لغير(٣) المسلمين بسكنى المدينة المقدسة، فأصبحت المدينة خالية من السكان، إذ أن الموجودين فيها لم يملأوا شارعاً واحداً من شوارعها(٤).

وازداد سكان بيت المقدس في العصر الأيوبي، ولكن الزيادة بلغت أقصاها في العصر المملوكي، فقد استقبلت المدينة المقدسة أعداداً من المهاجرين، من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم أمام الضغط التتاري، فلاذوا بمدن الشام: حلب

= أنظر Hütteroth & Abdu;fattah Historical Geography of Palestine, 1977, pp. 45, 52.

(١) William of Tyre, Vol. I, p. 426.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨ ص١٨٩ Fulcher of chartres, A History of tge expedition to Jerusalem, New York, 1973, p. 121. Benvenisti, op. cit; p. 146.

(٣) أعتقد أنّ الصحح لم يسمحوا بادئ الأمر للمسلمين.

(٤) William of Tyre, Vol. I, p. 507.

وحـمـاه ودمـشق والقـدس الذي استـأثر بالعـديد من هؤلاء المهاجرين(١). كما أن الاستقرار والهدوء الذي نعمت به المدينة المقدسة كغيرها من مدن بلاد الشام جعلها تنعم بدرجة من الثروة والازدهار والأمن(٢). ثم للأهمية الخاصة التي أولاها إياها السلاطين المماليك، زادها نمواً وعمراناً، فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ سكان القدس ٠٠٠ , ٤٠ نسمة، وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط.

ولكن الكثافة السكانية أخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري (النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي)، فقد أصاب بلاد الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالفناء العظيم (الطاعون)(٣)، وأفنى هذا الطاعون أعداداً كبيرة من بلاد الشام، وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين(٤). فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن

(١) السلوك، ج٤ ق٢ ص٦١١، ١٠٢٩.
ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣ ص٦١.

(٢) Lapidus, op. vit; p. 16.

(٣) وبسبب هذا الطاعون فقدت فرنسا ٣/٤ سكانها، وإيطاليا نصف سكانها وإلمانيا فقدت مليون وربع شخص، والطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر كل عشر سنوات منع السكاني.
Nohl, The Black Death, London, 1924, p.40.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢ ص٧٧٤.
يوسف غوانمه: تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص٢٦٩، ٢٧٠.

الرابع عشر اقترب من التوقف، ليس في بلاد الشام ومصر فحسب، بل في العالم كله[1]. وقد شاهد ابن بطوطه ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام، كدمشق التي كانت تفقد يومياً ألفي شخصاً[2]، أما غزة ففقدت معظم سكانها. وتسبب الوباء في موت أعداد كبيرة من سكان بيت المقدس، ومنذ ذلك الحين أخذت الكثافة السكانية في بيت المقدس في التدني، حتى بلغت أشدها في أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل السادس عشر الميلادي).

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والقحط والجفاف التي ضربت المنطقة في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). فالمقريزي يذكر أن تيمورلنك خرب بلاد الشام ومدنها وقتل من أهلها ما لا يحصى عدده (بحيث أقامت القدس مدة إذا أقيمت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الإمام سوى رجلين[3]. ويذكر المقريزي أيضاً في سنة ٨٢٥هـ (١٤٢١)، أنَّ

---

(١) Lopez, R. The Commercial revolution, in the Middle Ages, U.S.a; 1976, p. 29. Kedar, Merchants in crisi, Yele, U.S.A, 1976, pp. 1, 5.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٩٦.

(٣) السلوك، ج٤ ق١ ص٢٢٥.

القحط والجدب أصاب حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر، ونتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم[1].

ومنذ عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) عاد الطاعون مرة أخرى للمنطقة فأصاب غزة والقدس والرملة وصفد ودمشق، وحمص وحماه وحلب، وهلك فيه خلائق لا يحصى عددها[2]. ويقول المقريزي في حوادث هذه السنة، إن الوباء والنزلات فتكت بالناس إذ كانت (تنحدر من الدماغ إلى الصدر فيموت الإنسان في أقل من ساعة بغير تقدم مرض، وكان أكثر هذا في الأطفال والشباب)[3] ولعل هذا الوباء الذي وصفه المقريزي هو نوع من أنواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير[4]. ثم عاد الوباء فضرب المنطقة في سنة ٨٤١هـ

---

(١) المصدر نفسه، ج٤ ق١ ص٦٠٩، ويقول Lopez إن من العوامل الهامة في عدم تزايد السكان العوامل الطبيعية كالطقس وكثرة الأمراض وانتشارها. (Lopez, op. cit; p.29)

(٢) السلوك، ج٤ ق٢ ص٨٢٢، ٨٣٦،
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤ ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢ ص٨٢٤.

(٤) وربما كان هذا الوباء هو ما نسميه اليوم بالحمى الشوكية.

(١٤٣٧م) فمات من جرائه خلق كثير، في دمشق وغزة والرملة والأغوار[1].

وهكذا نرى أنَّ بيت المقدس نتيجة للطاعون الذي أصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف الرابع عشر الميلادي)، فقد نصف سكانه، أي ما يقارب ٢٠,٠٠٠ نسمة، ثم أخذت الديموغرافية تتدنى في بيت المقدس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م)[2] وزاد في تدنيها القحط والجفاف الذي أصاب المدينة المقدسة والمناطق المجاورة سنة ٨٢٥هـ (١٤٢١م) بحيث هجرها كثير من سكانها[3]. أضف إلى ذلك الطاعون والوباء (الحمى) التي داهمت القدس والعديد من المدن الشامية سنة ٨٣٣هـ (١٤٢٩م)، و٨٤١هـ (١٤٣٧م) أدى إلى هلاك خلائق لا يحصى عددها[4]. ونتيجة لذلك فقد القدس نصف سكانه، فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ٨٠٠٠ نسمة. وفي أواخر القرن التاسع

---

(١) السلوك، ج٤ ق٢ ص١٠٢٩، ١٠٣١، ١٠٣٤.
(٢) السلوك، ج٤ ق١ ص٢٢٥.
(٣) السلوك، ج٤ ق٢ ص٦٠٩.
(٤) السلوك، ج٤ ق٢ ص٨٢٢، ٨٢٤، ٨٣٦، ١٠٢٩، ١٠٣١، ١٠٣٤.
النجوم الزاهرة، ج١٤ ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨.

الهجري أصاب الطاعون بيت المقدس في السنوات ٨٧٣هـ (١٤٦٨م)، و٨٨١هـ (١٤٧٦م) و٨٩٧هـ (١٤٩١م) وأفنى ثلثي سكانه أي حوالي ٥٠٠٠ نسمة[١]، ففي أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، لم يبق في القدس سوى ٣٠٠٠ نسمة[٢]. ثم بدأت الديموغرافية في الصعود، حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٨٠٠٠ نسمة[٣].

وكان سكان بيت المقدس أخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود، أما النصارى فكانوا يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي، وأضاف أنهم كانوا أصحاب السلطة في البيت المقدس[٤]. وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، وإن أعداداً كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة

---

(١) وقد استنتجت ذلك من خلال دراسة قمت بها لعدد الوفيات في بيت المقدس في هذه السنوات.
أنظر: الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨٦، ٣١٨، ٣٦١.

(٢) Hütteroth, op cit; pp. 45, 52.

(٣) Ibid; p. 52.

(٤) المقدسي، التقاسم، ص١٦٧.
لي سترانج، ص٩٧، ٩٨.

والكنيس[1]. وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة، فقد قتل الصليبيون الآلاف من سكان القدس المسلمين، كما هجره أعداد من سكانه العرب النصارى فوليم الصوري يقول: إن مواطني المدينة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب حتى أن عددهم لم يكن شيئاً في المدينة[2]. وشجَّع الصليبيون أيضاً هجرة النصارى الوطنيين إلى القدس، فتذكر المصادر أنَّ قسماً من نصارى الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمان نزحوا إلى القدس[3]، بعد أن طلب الفرنج منهم ذلك بالإغراء والإكراه ووعدوهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم[4]. وخصص لهم هناك حي عرف (بمحلة المشارقة)، لأنهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس. وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) عاد السكان المسلمون للقدس

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٥.

(٢) William of Tyre, Vol. I, p. 507.

(٣) المقفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٤٨،
يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١١٥،
وعمان حضارتها وتاريخها، ص١٨٤.
وأنظر الأنس الجليل، ج٢ ص٥٤.

(٤) William of Tyre, Vol. I, p. 507 Rey, Les Colonies, p. 77.

فزادت نسبتهم في العصر الأيوبي ومن ثم في العصر المملوكي، حتى أصبحوا يشكلون نسبة ٧٠-٨٠٪ من السكان[١].

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من أصل عربي، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والأحباش[٢]. أما أهم الطوائف المسيحية التي وجدت في القدس في القرن السادس الهجري (الثامن عشر الميلادي): اللاتين، والسوريون (السريان) -والمقصود بهم طائفة اليعاقبة، والأرمن واليونان (الأرثوذكس) والنساطرة- ثم الهنود، والأحباش، والجيورجيون[٣]. وقدر الرحالة فيلكس فابري عدد النصارى في القدس سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) بألف شخص[٤].

وقد حظي النصارى العرب (الملكانية) واليعاقبة والقبط في نيابة بيت المقدس بالتسامح والمعاملة الحسنة، فمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة. ثم إنَّ السلطان فرج بن برقوق سمح

---

(١) Benvenisti, op. cit; p. 215.

(٢) ناصر خسرو، ص٧٠.

ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١ ص٣٩، ج٢ ص٥.

Benjamin, Early Travels in palestine, p.83.

(٣) Rey, Les Colonies, pp.76- 77.

(٤) نقولا زيادة، فيلكس فأبري في فلسطين، بحث ألقي في المؤتمر الثالث لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م ص٩.

للنصارى في سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) ببناء كنيسة بيت لحم، فأحضروا الأخشاب من أوروبا لأجل ذلك، ونقلوها من يافا إلى بيت لحم[١]. وفي سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة، وألغى ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة، أو عند دخولهم إلى فلسطين عن طريق يافا أو غزة. ونقل إلينا برشيم نص هذا المرسوم كمايلي:

بسملة ... المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرّفه وأنفذه وصرفه أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والجيوش[٢] ولا عند دخولهم إلى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا في مدينة غزة ولا في رملة، ولد الواردين من الرهبان والرهبانيات من المذكورين في البر والبحر، وكل ناحية لزيارة بيت

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١ ص١٤٣، ١٤٤.
(٢) ربما كانت الحبوش. ذ

المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير أحداث حادث ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك أو في كنيرهم (؟) وهي تربتهم التي يدفنوا بها، ولا يتعرض أحد إلى موتاهم ولا لنوابهم، ومسامحة الرهبان والرهبانيات من طائفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة في البِسط والموسم على جاري عادتهم، ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة والمربّع الشريف الأشرفي الذي بيدهم عند إنهاءهم أنهم رهبان وأهل ذمة ، منقطعين، وأن بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك، وسألوا كتابة هذا المرسوم الشريف بذلك جميعه وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عزّ نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند تمثّل القس صفرونس(؟) الراهب الملكي ورفعته لدى المواقف الشريفة، فرسم لهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالخط الشريف حسب الأمر الشريف شرفه اللّه تعالى وعظمه بتأريخ اليوم

المبارك التاسع من شهر اللّه المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة والحمد للّه وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده[1].

وسكن النصارى الأديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة، أكبرها كنيسة القيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص[2]. ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل[3].

أما اليهود فكانوا قلة في العصر الإسلامي، ففي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وجد في بيت المقدس عدد من اليهود، كما وجد فيها كنيس (كنيش) وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من العالم[4]، وسكنوا في حارة خاصة أطلق عليها (حارة اليهود)[5]. وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة ومعظم أنحاء فلسطين[6]، وامتد تعسف الفرنج

(١) Van Berchem, Corpus inacriptionum (Jerusalem), p. 379.

(٢) ناصر خسرو، ص٧٥.

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٥٣.

(٤) ناصر خسرو، ص٥٥.

(٥) الأنس الجليل، ج٢ ص٥٢، ٥٦.

(٦) Martin, E. The Crusades, p. 127.

لمقابر اليهود، فدمروا مقابرهم الثلاثة، واستخدموا حجارتهم في بناء بيوتهم(١). وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، قدم الرحالة بنيامين اليهودي الأندلسي Benjamin of Tudelu إلى فلسطين، وزار معظم مدنها وقدم لنا إحصائية ديموغرافية لليهود. فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و١٢ يهودياً في بيت لحم، وفي الرملة ٣ يهود، وفي يافا يهودي واحد، وعسقلان ٢٠٠ يهودي، وفي طبرية ٥٠ يهودياً. أما بيت المقدس ونابلس فلم يجد فيهما يهودياً واحداً، وكانت دمشق آنذاك تمثل أكبر تجمع يهودي في بلاد الشام، فوجد فيها ٣٠٠٠ يهودي(٢). ثم بدأ اليهود يتسللون إلى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي، وامتهنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم(٣)، ولم يكن عددهم كبيراً ففي القرن التاسع الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانوا زهاء ٥٠٠ يهودي فقط(٤). ولكنهم تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما لديهم من ثروات طائلة، ففي سنة ٨٧٨هـ (١٤٧٣م) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول

---

(١) Benjamin, Early Travels in Palestine, pp. 81, 82, 84.

(٢) Ibid; p. 91.

(٣) Ibid; pp. 85-87.

الأنس الجليل، ج٢ ص٥٣.

(٤) نقولا زيادة، فيلكس فأبري في فلسطين، ص٩.

كنيس اليهود الموجود في حارتهم، فقد ثبت لدى القضاة أن الكنيس محدث في دار الإسلام، فأغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه[1]. ولكن في بيت المقدس بزعامة كبيرهم يعقوب، رفعوا أمرهم للسلطان في القاهرة، فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة النظر في هذا الأمر، وحدث خلاف في الرأي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم. إلا أنَّ السلطان أرسل مرسوماً في سنة ٨٧٩هـ (١٤٧٤م) إلى ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي بتمكين اليهود من كنيسهم، وعدم معارضتهم، فمكنوا منه[2]. وقد أشيع في بيت المقدس أنَّ اليهود بذلوا مبلغاً كبيراً من الدنانير المصوّرة إلى الخزائن الشريفة حتى مكَّنهم من كنيسهم[3]. ولما ورد ذلك لمسامع السلطان، أمر إعادة النظر في الأمور والتحقق من مسألة الكنيس، فعقد القضاة مجلساً آخر في المدرسة التنكزية وكان رأي شيخ الإسلام كمال الدين بن أبي شريف أن لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي، وأن من شهد بحدوث الكنيس في دار الإسلام عليه أن يثبت ذلك بسند شرعي[4]. إلا أن القاضي

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٠٢.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٠٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص٣٠٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٧.

الشافعي تمكن من إثبات وجهة نظره بالشهود، وأصدر أمره بمنع اليهود من كنيسهم مرة أخرى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل توجه بعض العلماء إلى الكنيس وأمروا بهدمه، فهدموا غالبه، فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة للشكوى[1]. فأرسل السلطان الأشرف قايتباي مرسوماً بالقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رأيه، ووضعوا في الحديد وأرسلوا إلى القاهرة[2]، فأهانهم السلطان وضربهم. ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير لعقد مجلس حضره القضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء، ودار البحث في أمر الكنيس، ووصف ذلك اليوم بأنه (كان يوماً مهولاً بنصرة اليهود على المسلمين)[3]، وقد استعمل الدوادار يشبك سلطاته واستخدم القوة لإرهاب الحضور، فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين، ألقى القبض عليهما وأشهرهما ووضعهما في الزنجير[4]. ثم أخذ الأمير يشبك يهدد ويتوعد، عندئذ أصدر قاضي القضاة الشافعي في الديار المصرية ولي الدين الأسيوطي أمراً بعدم جواز المنع الصادر من القدس لفساده،

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٠٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٩.

ثـم أفتى بعض العلمـاء في الديار المصريـة بجـواز إعـادة الكنيس أمـا قـضـاة بيت المـقـدس فـأمـر السـلطان بعـزلـهم ومنعـهـم من سكنى القدس[1].

ونتيجة لهذه الفتاوي التي حصل عليها اليهود، تقدموا يطلبـون من السلطان بتمكينهم من إعـادة كنيسهم، وكـان أكبـر المساعدين لهم الأمير يشبك الدوادار الكبير بسبب ما بذلوه له من أموال طائلة[2]. وأخيراً تمكن الأمير يشبك إقناع السلطان بإعادة كنيسهم، فأصدر مرسوماً بذلك، فشرعوا بإعادة بنائه في ١١ ربيع الآخر سنة ٨٨٠هـ. إن إعـادة بناء الكنيسـة اليـهـودي يدل على النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المقدس ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الأموال الطائلة وبذلهم الأموال للأمراء ورجال الدولة، وقد سمّوا اليوم الذي أعادوا فيه كنيسهم (عيد النصر)[3]. ومن هنا نرى أن اليهود في بيت المقدس رغم عددهم القليل إلا أنهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام، ونفوذ مادي بسبب اشتغالهم بالتجارة والصناعة.

مما تقدم نستطيع القول بأن أهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر المملوكي بتسامح ديني، ومارسوا حقوقهم كاملة

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣١٣.

دون تعصب، وزاولوا مهنهم بحرية تامة، وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى. وإن كما نجد بعض النصارى يعيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق، مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرقي الأردن، والقدس والناصرة وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين(١).

ولم يكن النصارى بمنأى عن الأحداث السياسية في المنطقة، فنجد أن نصارى الكرك والشوبك وقفوا إلى جانب السلاطين المماليك، فأيدوا الناصر محمد بن قلاوون في ثورته بالكرك، وقدّم أحد التجار النصارى الشوابكة إلى الظاهر برقوق مائة ألف دينار لينفقها في إعداد القوات والعساكر. لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة، فنجد أن محمد بن قلاوون أصدر مرسوماً في سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠م) حدد بموجبه زي النصارى واليهود، فألزم النصارى بلبس العمائم الزرقاء، واليهود الصفراء، والسامرة العمائم الحمراء، ولكنه استثنى من ذلك نصارى الكرك والشوبك لما لهم من مكانة خاصة في نفسه، فبقوا يلبسون العمائم البيضاء أسوة بالمسلمين(٢). وفي عهد برقوق نال

---

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٧. Hutteroth, op, cit; p. 54.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص٩١٢. ماير: الملابس المملوكية، ص١٢١. يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١١٦.

نصارى الكرك والشوبك حظوة لديه، فأعفاهم من الضرائب والمصادرات اكراماً لموقفهم، ومساعدتهم إياه[١].

وكان للنصارى في بلاد الشام بطركان اثنان الأول في انطاكية والثاني في القدس وكانت بطريركية بيت المقدس تحكم نصارى فلسطين وشرق بالأردن[٢]. وفي العصر المملوكي ذكرت المصادر وجود هذا البطرك في دمشق وإليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم والفصل بينهم بحكم مذهبهم في مواريثهم وانكحتهم، وإليه أمر الكنائس والديارات والرهبان ورعاية شؤونهم[٣]. أما اليهود فكان لهم رئيس يتكفل أمورهم وإقامة حدود التوراة بينهم مركزه دمشق أيضاً، أما السامرة فرئيسهم في نابلس[٤].

وعاش الناس في بيت المقدس حياة الرغد والثراء، فامتهن عدد منهم التجارة والصناعة التي درّت عليهم الأرباح الطائلة، ونستدل على عظم تجارته بكثرة أسواقه وتشعبها. وكان للقدس موارده من المواسم والأعياد، فالحجاج المسلمون كانوا يبلغون

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٩ ص٢٦٠.

(٢) Rey, Les Colonies, p. 89.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص١٩٤، ج١٢ ص٤٢٥، ٤٢٦.

(٤) المصدر السابق، ج٤ ص١٩٤، ج١٢ ص٤٢٨

عشرين ألفا، وكذا الحجاج النصارى واليهود. وكان أهالي القدس والمنطقة المجاورة يكسبون الكثير في تلك المواسم. ثم هناك الأموال التي خصصت للأوقاف وطلبة العلم وتلك التي كان يتصدق بها السلاطين على بيت المقدس وأهله، كل هذه الأمور مجتمعة ساعدت على تكوين طبقة ثرية في القدس. ونستدل على ذلك من امتلاك الموسرين للقصور (المصايف) خارج القدس في (البقعة) الواقعة غربي القدس، حيث يقضون فصل الصيف في تلك القصور وينفقون الأموال الطائلة عن سعة[١].

ومع ما للمدينة المقدسة من مكانة روحية ولكثرة المؤسسات الدينية والعلمية، إلا أن هذا لم يمنع من وجود بعض العادات السيئة التي اعتادها بعض الأهالي في بيت المقدس. من ذلك تعاطي نبات الحشيش، فذكر ابن صرصري أن السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد زار المدينة المقدسة سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) في طريقة إلى القاهرة، بعد أن امتلك تيمورلنك بغداد وهروب ابن أويس منها[٢]. وذكر شرف الدين المرجاني والي بين المقدس أن

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٦٠.
(٢) ابن صرصري، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريز، كاليفورنيا، ١٩٦٣، ص١٤٠.

(جماعته باعوا الحشيش في القدس وفي دمشق، ومقدار ما باعوه في القدس من الحشيش ١٢٠٠ درهم)[١].

وأقام الأهالي في بيت المقدس الاحتفالات في المواسم والأعياد وعند تجديد ولاية النائب أو قاضي القضاة، فيلبس الأمير أو القاضي خلعة التجديد أو الولاية ويدخل المدينة بعد أن يخرج الجميع لاستقباله، وينتهي هذا الموكب إلى المسجد الأقصى حيث يتلى على المجتمعين مرسوم السلطان. وأقيمت الاحتفالات عند خروج الحجاج إلى الحجاز، ولم يكن لنيابة بيت المقدس ركب خاص، بل يخرج الحجاج من القدس والخليل والرملة ونابلس وبلاد الساحل إلى غزة وينضمون إلى (الركب الغزاوي)[٢].

* * *

(١) ابن صرصري، المصدر السابق، ص١٤٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٣ ص١٠٧٠.

(٢)

الدور والحارات وطبوغرافية المدينة

كان سكان بيت المقدس يعيشون في بيوت مبنية من الحجر والجير، يتألف بعضها من طابق واحد، وأخرى من طابقين أو أكثر، ولا زالت معظم بيوت بيت المقدس الحالية مملوكية البناء، حتى يمكننا وصفها (القدس المملوكية). وتتكون المدينة من أحياء أو حارات متعددة، ويحيط بالجميع سور مرتفع قوي، وقلعة حصينة في الجهة الغربية من المدينة قرب باب الخليل. ويقع الحرم الشريف في الجهة الشرقية والجنوبية من المدينة، ويشغل مساحة كبيرة تبلغ ١٤٣٠٠٠ متراً مسطحاً أو ما يعادل ١٣٦ دونماً، والأسوار الجنوبية والشرقية للحرم تشكل جزءاً من سور المدينة الكبير. أما أطوال أضلاعه فالشرقي يبلغ ٤٧٤ متراً، والجنوبي ٢٨٣ متراً، والغربي ٤٩٠ متراً، أما الشمالي فهو ٣٢١ متراً. وتحتوي ساحة الحرم على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبعض

المنشآت الأخرى، وتحف به من الجهة الغربية والشمالية الأروقة والأبنية التي أنشئت في العصر الأيوبي والمملوكي، وتشتمل هذه الأروقة على عدة مدارس. أما أبواب الحرم فهي من الشمال: باب الأسباط، وباب حطة، وباب العتم، وباب الغوانمة، وباب الناظر، وباب الحديد، وباب القطانين، وباب المطهرة، وباب السلسلة، وباب السكينة، وباب المغاربة، ولا يوجد للحرم أبواب من الجهتين الجنوبية والشرقية.

ويحيط بالحرم الشريف الأسواق والحارات والأحياء والأزقة، وأسواق القدس متخصصة سقف بعضها، فقد خصص كل سوق لسلعة معينة، أما الحوانيت فأقيمت على جانبي تلك الأسواق. والحوانيت معقودة بالحجر والجير ارتفاع بعضها ستة أذرع بذراع العمل[1]، وتساوي نحو ٤,٨ متراً. واشتملت المدينة المقدسة على أحياء أو حارات سميت إما باسم طائفة معينة كحارة النصارى القريبة من كنيسة القيامة وباب الخليل، أو حارة اليهود القريبة من الحرم، أو حارة المشارقة نسبة للنصارى المشرقيين القادمين من منطقة شرقي الأردن، وتقع شمال باب حطة، ثم حارة صهيون الواقعة غربي حارة اليهود. أو نسبة إلى عائلة مثل

---

(١) وذراع العمل تعادل ٦٦,٥ سم. انظر: فالترهنتش، المكاييل والأوزان الاسلامية، ص ٨٩.

حارة الغوانمة نسبة لبني غانم شيوخ الخانقاه الصلاحية والمسجد الأقصى، وتقع إلى الغرب من المسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة، ويتوصل إليها من باب الغوانمة. وحارة بني مرة قرب سوق الفخر، وبقربها حارة الزراعنة، وحارة المغاربة وسميت كذلك لكونها موقوفة عليهم وسكنهم فيها، وحارة بني الحارث وتقع خارج البلد قرى القلعة، وقد نصت الوثيقة رقم ١٢٤ على وجود (دار السريان) في هذه الحارة وكانت موقوفة على الحرم الإبراهيمي في الخليل[١]، وحارة الجوالقة إلى الغرب من حارة النصارى. أو نسبة إلى مكان أو شخص معين، مثل حارة حمام علاء الدين بخط مرزبان أو حارة الشيخ محمد القرمي، وحارة ابن الشنتر، وحارة باب الحديد، وحارة باب الناظر، وحارة باب العامود، وحارة باب الزاهرة، وحارة باب حطة، وحارة باب شرف الأنبياء، وحارة الغورية وتمتد من باب الأسباط وتنتهي إلى سور المدينة الشمالي، وحارة الحيادرة، وحارة العلم، وحارة الشرف غربي حارة المغاربة. أو نسبة إلى ذوي مهنة معينة مثل حارة الحصرية[٢]. وحارات بيت المقدس جميعها ضيقة متعرجة، وبعضها يتطرق إليه بواسطة درج بسبب طبوغرافية الأرض

---

(١) وثيقة رقم ١٢٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢ ص ٥٢-٥٤.

الجبلية. وبلطت شوارع القدس بالحجارة[1] وهذا الطابع الفريد يمكن مشاهدة بقاياه في شوارع القدس القديمة وأزقتها. وكان لهذه الدروب والحارات حراس خاصون، يقومون على حراستها وحمايتها من اللصوص، وينبِّهون سكانها ليلاً إذا شب حريق لديهم وهم نيام ويقدمون لهم المساعدة اللازمة [2].

وكانت دور بيت المقدس تتألف من طابق واحد أو أكثر، في وسطها ساحة سماوية تشتمل على بئر ماء وبعض الأشجار وأحواض الزهور، وقد روعي في هذا النمط من البناء بحيث تجد المرأة في داخل الدار المتعة والراحة. أما نوافذ الدار المطلة على الشارع فوجد فيها المشربيات [3]، التي من خلالها تستطيع المرأة النظر إلى الشارع دون أن يراها أحد. ولدينا وصف لإحدى دور

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٦، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت، ١٩٦٩م، ص ١٦٠.
(٢) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٤٥.
(٣) المشربيات: هي شرفات بارزة عن سمت البناء، ترتكز على دعائم وكوابيل، مصنوعة من الخشب بطريقة هندسية جميلة، بحيث يمكن للجالس فيها مشاهدة ما في الخارج دون أن يراه أحد، إمعاناً في حجاب السيدات. وغالباً ما كانت تزود مشربيات النوافذ بحنيات خارجة لوضع أباريق من الفخار لتبريد الماء. ولا زالت بعض دور القدس ودمشق والقاهرة ومكة تحتوي على تلك المشربيات الخشبية. (ديماند، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م، ص١٢٣).

بيت المقدس، فالوثيقة رقم ٣٥ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس وصفت دار (ابن اللونين) بحارة النصارى بالقرب من طاحونة الهولي. وتشتمل هذه الدار على ثلاثة بيوت عقود، ومطبخ عقد، ومطهرة عقد. وصحن الدار يتكون من ساحة سماوية، وبهذه الساحة صهريجان للماء، وأشجار مختلفة الأجناس، وتشتمل الدار على قبو أرضي يتوصل إليه من صحن الدار[١]، وهذا الوصف لا يختلف عن تقسيمات الدور الإسلامية في العصر الوسيط[٢]. وكانت قيمة دور بيت المقدس متفاوتة، فلدينا وثيقة مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي، اشترت الدار الكائنة بباب حطة من أخيها محمد سنة ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) بمبلغ ٢٥٠ درهماً، ونصت هذه الوثيقة على حدود تلك الدار[٣].

وما دمنا بصدد الحديث عن طبوغرافية القدس التاريخية، فلا بد من الحديث عن (كنيسة القيامة) التي بناها الامبراطور قسطنطين حوالي سنة ٣٣٥م. وقد ورد ذكرها في كتب الجغرافيين العرب، وهي بناء كبير يتسع لثمانية آلاف شخص، بنيت على أيدي مهرة الصناع، وزينت بالرخام الملون والنقوش الجميلة

---

(١) نوثيقة رقم ٣٥ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٢) عن أقسام البيت انظر، عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤ شباط ١٩٧٩م، ص ١٦٦.
(٣) وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

النفيسة، وتعتبر كنيسة القيامة من أكبر الكنائس في القدس، وهي فوق كل وصف وجمال، بسبب غناها وهندستها الغربية[1] .

وتقع كنيسة القيامة في وسط المدينة تقريباً إلى الغرب من المسجد الأقصى، وأقرب الأبواب إليها باب الخليل. والداخل من هذا الباب يسير في شارع باتجاه الشرق ليصل إلى كنيسة القيامة، ونعتتها المصادر الإسلامية (كنيسة قمامة). ويذكر الإدريسي أنها (الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، فيدخل من باب في غربيها فيجد الداخل نفسه في وسط القبة التي يشتمل على جميع الكنيسة، وهي من عجائب الدنيا، والكنيسة أسفل ذلك الباب، ولا يمكن أحد النزول إليها من هذه الجهة ، ولها باب من جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلثين درجة، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة)[2] .

ويمكن الدخول إلى بيت المقدس من سبعة أبواب ضخمة كبيرة هي على التوالي من الشرق باب الأسباط، ومن الشمال باب الساهرة، وباب الجديد، ومن الغرب باب الخليل، ومن الجنوب باب النبي داود وباب المغاربة.

---

(١) لي سترانج، ص ١٨٥ .
(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق (القسم الخاص بالشام) ص ٦ .

(٣)

المؤسسات الاجتماعية في النيابة

عاشت المدينة المقدسة عصرها الذهبي في العصر المملوكي، فهي تحتوي على الأماكن المقدسة لدي الديانات الثلاثة، وهي مركز اشعاع روحي وحضاري وعلمي وفكري. لذا أمّها الناس من جميع أنحاء العالم للزيارة وأداء مناسك الحج أو امتهنوا التعليم في مدارسها العديدة، وقصدها طلاب العلم من كل فج. واختارها العديد من رجال الدين النصارى من قسس ورهبان، فأقاموا في كنائسها وأديرتها فوجدوا التسامح من السلاطين والأمراء المماليك. حتى أن السلاطين رفعوا المظالم عنهم؛ وأثبتوا ذلك في نقوش رخامية ألصقوها في جدران الحرم القدسي وكنيسة القيامة. فالسلطان جقمق فعل ذلك سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) وأبطل عدة مظالم على نصارى بيت المقدس، ولكي

يضمن تحقيق ذلك جعل المتكلم في تطبيق هذا المرسوم من واجب ناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل[1].

ومن الجدير بالملاحظة أن السلاطين المماليك اختاروا القدس منفى مريحاً لبعض الأمراء الذين لا يشكلون خطراً مباشراً على الدولة، ولا يريدون القسوة عليهم والتشديد. فالذي ينقم عليه السلطان كان يرسله إلى سجن الاسكندرية أو الكرك أو صفد أو غيرها من الأماكن في مصر والشام. أما مرتكب الذنوب البسيطة فكان السلطان يرسله رلي بيت المقدس (بطّالا)، ففي سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) عزل السلطان الظاهر برقوق الأمير بيدمر الخوارزمي عن نيابة دمشق وعيَّن مكانه الأمير استقمر الماردين الذي كان يقيم في بيت المقدس بطالا[2]. وهذا يعني أن الأمير المنفي إلى القدس يمكنه العودة إلى السلطة مرة أخرى وتقلد المناصب الهامة في الدولة وإعادة الاعتبار إليه، فالقدس على هذا النحو (منفى مريح). وقد أشار أستاذي الدكتور سعيد عاشور أن سبب اختيار بيت المقدس منفى للأمراء يعود لأسباب منها أن النفي للقدس لا يعني السجن بل هو تحديد للإقامة، فهو يعيش داخل المدينة حراً طليقاً يمارس أموره بحرية، لكن لا يمكنه

---

(١) راجع نص النقش في الفصل الثالث (موضوع الجوالي).

(٢) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق ٢ ص ٤٦٦، ٥٤٩، ٦٨٧.

مغادرتها إلا باذن سلطاني[1] . ولأن الحياة في القدس أخف وطأة من غيرها من الأماكن التي اعتاد السلاطين نفي الأمراء إليها، ولاعتدال جوها وقربها من القاهرة. ولأنها مدينة دينية، فيقيم الأمير هناك صحبة العلماء والفقهاء، فلا يشعر بقسوة النفي لوجوده في ذلك الرحاب الديني الطاهر. ثم أن الأمير المنفي لن يجد في القدس قوة تقف إلى جانبه فيما لو حاول الثورة أو التمرد، لأن طبيعة المدينة لا تساعد على ذلك. فهي بمركزها الديني والعلمي تختلف عن كل من الكرك ودمشق وحلب وصفد وغزة التي يمكن أن ترفد أية ثورة أو تمردعلى السلطة في القاهرة، فلكل تلك الاعتبارات والامتيازات التي تمتع بها البيت المقدس، تسابق السلاطين والأمراء والأثرياء إلى بناء المؤسسات الاجتماعية ووقفوا عليه الأوقاف العديدة في مصر وبلاد الشام كي تواصل مهمتها في تقديم الخدمات اللازمة لقاصديها (كالبيمارستانات).
كما أقيمت المؤسسات الأخرى التي تقدم خدماتها للمواطنين بأجور معينة، فتدخل السرور والراحة إلى قلوبهم، وتبعث فيهم النشاط (كالحمامات) التي هي في الحقيقة منتديات اجتماعية

---

(١) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠، ص ٣٨ , ٣٩.

يلتقي فيها الرجال[1] والنساء، يتداولون ويتجاذبون أطراف الحديث، وهي أشبه بالصالونات الاجتماعية للتعارف ونقل أخبار المجتمع.

أ - البيمارستانات:

أنشئت البيمارستانات منذ العصر الأموي، وهي من مفاخر الحضارة العربية الاسلامية، وزاد الاهتمام بها في العصر العباسي، ولكن الأيوبيين والمماليك استكثروا من هذه البيمارستانات وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين التي ما فتئت تضرب المنطقة الفينة بعد الأخرى. ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على العلاج، بل أدَّت دوراً تعليمياً، فهي أشبه بكليات للطب، فالطلبة يقسمون إلى فرق، كل فرقة تتخصص بفن معين، فمنهم طبائعية (باطنية) وطائفة مجبِّرين (عظام)، وجرائحية وفريق كحالين (العيون)[2]. ووجد في البيمارستان قسم للصيدلة، يتعلم الطلاب فيه كيفية تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمراهم وغيرها.

ووجد في البيمارستان أزمة (سجلات) يدون فيها أسماء المرضى، والنفقات التي يحتاجونها في أدوية وأغذية. وكان

(١) الأصح الرجال، أو النساء فلا يمكن التقاؤهما معاً. ذ
(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤٥.

الأطباء يبكرون إلى البيمارستان ويتفقدون المرضى، ويأمرون إعداد ما يحتاجونه من من علاج. وهذه المعلومات كانت تسجل في لوح خاص يثبت على سرير كل مريض. ووجد لكل بيمارستان وقف خاص ينفق ريعه على شؤون هذا البيمارستان التي بلغت في إحداها خمسة عشر ديناراً يومياً[1].

وقسم البيمارستان إلى أقسام فهناك قسم خاص للنساء، وآخر للجراحة، وثالث للحميَّات، ورابع للرمد، وخصص في بعضها قسم للأمراض العقلية[2]، ولكل بيمارستان ناظر يشرف على إدارته، ويراقب المرضى والأطباء. ووجد في بيت المقدس بيمارستان منذ العصر الفاطمي، فقد زار ناصر خسرو القدس سنة ٤٣٨هـ(١٠٤٧م)، ووصفه بأنه (مستشفى عظيم)، يصرف لمرضاه العلاج والدواء، وله وقف يأخذ الأطباء مرتباتهم منه[3]. ويقي هذا البيمارستان يقدم خدماته في فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس، ففي سنة ٥٥٥هـ(١١٦٠م) زار الرحالة الألماني: John of Wurzburg بيت المقدس وذكر أن البيمارستان يقع في الجهة الجنوبية المقابلة لكنيسة القيامة، وأنه يقوم بعلاج ألفي

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٥.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٦، وللباحث، تاريخ شرقي الأردن في العصر المملوكي، القسم الحضاري، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٧.

شخص، وله رؤوساء يشرفون عليه[1]. وقد تمكن هذا البيمارستان من استقبال ٧٥٠ جريحاً بعد معركة تل الصافية التي دارت بين الفرنج وصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م)[2].

وفي سنة ٥٥٩هـ (١١٦٦٣م) زار الرحالة الأندلسي بنجامين التطلي بيت المقدس وأشار إلى وجود بيمارستان، الأول يستوعب ٤٠٠ سرير، أما الثاني فهو بيمارستان الملك سليمان ويستطيع علاج نفس العدد، وهولاء المرضى كانوا يأتون إلى القدس من جنيع أنحاء مملكة اللاتين في الشام[3].

ووصف أسقف وزيبرج الذي زار القدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) هذا البيمارستان فقال: تقوم الكنيسة والبيمارستان في الجهة الجنوبية من كنيسة القيامة، ولا يستطيع إنسان وصف جمال هذين المكانين. والبيمارستان مزود بالغرف والأسرة المهيأة لخدمة

---

(١) Hume, (Edgar), Medical Work of the Knights Hospitallers of the Saint John of Jerusalem 1940, pp. 13.14.

(٢) Ibid,. p. 8.

ولمزيد من التفاصيل عن معركة تل الصافية أنظر كتابي (أمارة الكرك الأيوبية) صفحة ١١٩ وما بعدها.

(٣) Beniamin of Tude La, op. cit., P. 83.

. Hume, op. cit., P. 15

المرضى، ولم نتمكن من معرفة عدد المرضى الذين يرقدون فيه، ولكن لاحظنا أن عدد الأسرَّة كان يفوق الألف سرير[1].

وفي نفس هذه السنة ذكرت المصادر العربية أنَّ صلاح الدين حررَّ بيت المقدس بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، فرتب أموره، وجدد بناء أسواره، وعمق خندقه. وبعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، فوّض صلاح الدين ولاية القدس إلى الأمير عز الدين جرديك، وزاد في أوقاف المؤسسات العلمية والاجتماعية التي أسسها في القدس من ذلك رباط الصوفية فزاد في أوقافه[2]. وكان قد جعل كنيسة صند حنا عند باب الأسباط مدرسة للشافعية فزاد في أوقافها أيضاً. أما الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار، جنوب كنيسة القيامة والناحية المجاورة لها، فقد اتخذها بيمارستانا للمرضى فأشغلت مساحة ١٧٠×١٥٠ ياردة، وهيأ فيه العقاقير والأدوية، ووقف عليه الأوقاف العديدة، وجعل النظر في هذه الأوقاف للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد، وسماه البيمارستان الصلاحي[3]. أما دار الاسبتار فإن الأمير شهاب الدين غازي حولها في سنة ٦١٣هـ

---

(١) Theodorich's Description ot the hoiv Land, London. 1896.a.22 .

(٢) العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦١٢.

(٣) العماد الكاتب، المثدر نفسه، ص ٦١٢.

(١٢١٦م) إلى زاوية سماها (زاوية الدركاه)، وكان نواب القدس ينزلون في هذه الزاوية قبل أن يتخذوا المدرسة الجاولية مركزاً لهم[١]. ويقي هذا البيمارستان يؤدي دوره في العصر الأيوبي والمملوكي، فالوثيقة رقم ٢٠ تاريخ ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس نصَّت على أن جعفر بن محمد أبي بكر السعاد من القدس، وقف الدار الكائنة بخط باب العامود على مصالح البيمارستان الصلاحي (يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً، وحبساً دائماً محللاً، لا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه الملكان)[٢]، وهذا يؤكد استمرار البيمارستان الصلاحي يؤدي خدماته للمواطنين في العصر المملوكي علاجاً وتدريساً.

ويؤكد وجهة النظر التي ذهبنا إليها الرحالة الأجانب الذين زاروا القدس وقدموا لنا وصفاً لبيمارستانها، ففي سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢م) زار الرحالة Sir John Maundille بيت المقدس. فذكر قائلاً: على بعد ٢٠٠ خطوة إلى الجنوب من كنيسة القيامة يوجد بيمارستان عظيم، وهو البيمارستان الذي وضع أسسه الفرسان

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص٤٧ . Hume. od.cil. D.6. .

(٢) وثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

(٣) Hume, op. cit., p 16.

الاستبارية، ويداخل هذا البناء يوجد ١٢٤ عاموداً حجرياً، وإلى الشرق من البيمارستان تنهض كنيسة جميلة تسمى كنيسة Our Lady the Great وفي الغرب توجد كنيسة أخرى تدعى Our Lady the Latiu[١].

أما الرحالة الالماني Ludolph von Suchem الذي عاش في فلسطين مدة خمس سنوات ٧٣٧هـ-٧٤٢هـ (١٣٣٦-١٣٤١م)، فذكر أن البيمارستان الصلاحي ظل يؤدي دوره. وأشار إلى أنَّه يقع قرب كنيسة القيامة، وأنه بيمارستان عظيم يتسع لألف مريض. وجرت العادة في العصر المملوكي أن يدفع كل حاج قادم إلى المدينة المقدسة بنيان فينيسيان بدل معالجتهم في المستشفى. ويدفع هذا المبلغ مرة واحدة، بغض النظر عن المدة التي يبقاها الحاج في المستشفى سواء أكانت يوماً واحداً أو سنة كاملة[٢].

وظل هذا البيمارستان مستخدماً لفترة ما في العصر العثماني، ففي سنة ١٨٦٩م زار الأمير فردريك أمير بروسيا بيت المقدس، فمنحه السلطان العثماني عبد العزيز بن محمود الثاني النصف الشرقي من البيمارستان الصلاحي. ثم وضع الجزء الجنوبي من النصف الشرقي تحت تصرف الجماعة الدينية

---

(١) Hume, op. cit., p 16.

(٢) Ibid., pp. 17-18.

الانجليزية British order of Saint John [1] ثم قام الألمان فيما بعد ببناء شارع يمر خارج البيمارستان ويقطعه من الشمال إلى الجنوب وأطلقوا عليه اسم شارع الأمير فردريك Prince Frederick William وفصلوا ممتلكاتهم عن ممتلكات اليونانيين[2]. وأنشأوا بوابة عند مدخل شارع داود تحمل النسر الألماني شعارهم، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا سنة ١٨٩٨م ببناء الكنيسة اللوثرية الحالية Lutheran Church، وجعلوا بناءها على نمط بناء الكنائس القديمة، وذلك برعاية وتشجيع وضغط الامبراطور الألماني نفسه[3].

وهكذا فان البيمارستان الصلاحي اندثرت معظم معالمه وأقيمت مكانه الكنيسة اللوثرية وغيرها من المنشآت الأخرى منذ القرن التاسع عشر، ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تتمثل في أربع قاعات كبيرة تقع بجانب دار الوكالة وجنوب الكنيسة اللوثرية، وهذه القاعات كبيرة الاتساع كانت تستخدم لإقامة المرضى، فالقاعة الأولى والثانية والرابعة تستخدم حالياً لبيع الخضار، أما الثالثة فهي بيزار لبيع التحف الخشبية والصدفية. وتحتوي هذه القاعات على عقود مدببة، وتقوم على دعامات

---

(١) Ibid., p. 6.

(٢) Hume, op. cit., p . 6.

(٣) Ibid., p. 6.

قوية مربعة ضخمة، وبعد الانتهاء من القاعة الرابعة، تأتي إلى دهليز واسع من نفس نمط بناء العقود الأخرى، هو الشارع الذي أقامه اللوثريون ليقسم البيمارستان إلى قسمين ويقود إلى الكنيسة اللوثرية.

ويمكن الوصول إلى البيمارستان الصلاحي عن طريق باب السلسلة، وفي مواجهة البيمارستان يقوم حالياً ما يسمى سوق الحصريين.

وذكرت المصادر عن وجود البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل أنشأه السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ووقف عليه الأوقاف العديدة[١]. والبيمارستان الفخري في مدينة الرملة بناه القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيوش المصرية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قبل سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م)[٢].

٢ - الحمامات:

تعتبر الحمامات من أهم المؤسسات الاجتماعية في الإسلام وكانت ظاهرة تعدد الحمامات في العصور الإسلامية واضحة، فللحمام في العمارة الإسلامية مكانة خاصة، فعادة الاستحمام

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢ ص ٧٩، ٨٩.
(٢) النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٩٦.

من العادات الهامة في المجتمع الإسلامي لأنها مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يحض عليها الإسلام. وروعي في تخطيط تلك الحمامات أن تحتوي على ثلاثة بيوت أو قاعات، فالبيت الأول مبرد مرطب يخلع فيه المرء ملابسه، والثاني مسخن مرّخ، والبيت الثالث مسخّن مجفف[1]. والمقصود من هذا التقسيم التدرج في درجة الحرارة حتى لا يتعرض المستحم للمرض من انتقاله فجأة من الجو البارد إلى الحار وبالعكس.

ووجد في كل حمام قدر كبير من النحاس يسخن فيها الماء، وينقل منها في أنابيب فخارية إلى الأحواض، وتبلط أرضيته ببلاط خاص، وزينت جدران قاعاته بالنقوش الجميلة. ويتزود الحمام بالمياه الباردة من برك خاصة أو بواسطة (السقا) الذي يجلب الماء بالروايا والقرب. وكان في كل حمام قَوَمَة وموظفون يقومون على خدمة المستحمين وتنظيف الحمام كل يوم، ويشرف المحتسب على هذه الحمامات، فيراقب ما يجري فيها حماية للفضيلة والأخلاق ومحافظة على نظافته وطهارته[2].
ويستعملون فيها البخور في اليوم مرتين كي تبقى رائحتها ذكية،

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٢٤٠.
(٢) ابن الأخوة، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

كما يراعي عدم دخول المرضى هذه الحمامات كالمجذوم والأبرص، وعلى كل مستحم أن يغطي عورته بمئزر خاص.

وخصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء، ولكن بعضها كانت تحدد أوقاتاً معينة للرجال وأخرى خاصة بالنساء. وانتشرت هذه الحمامات في المدن الشامية وقراها، فوجدت الحمامات في دمشق وحلب وحمص وحماه وطرابلس وصفد والكرك وعمان وحسبان وعجلون[1]، والرملة، والخليل ونابلس وغيرها من المدن، وذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري أنّ عدد حمامات دمشق مئة حمام[2]. أما بيت المقدس فوجد به عدد من الحمامات نذكر منها: حمام السوق الكائن في سوق العطارين، وحمام علاء الدين البصير في خط مرزبان جوار المدرسة اللؤلؤية، وحمام العين، وحمام الشفا ويعودان للقرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)[3]. وحمام البترك أو البطرك في حارة النصارى، وهو وقف على الخانقاه الصلاحية[4]، وقد أشارت الوثيقة رقم ٤٦ تاريخ ٧٤٧هـ عن سند

(١) للمؤلف، تاريخ شرقي الأردن في العصر المملوكي، القسم الحضاري، ص ١٨٧.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٦١.

(٣) الأرشيف التاريخي لقسم الآثار الإسلامية بالحرم القدسي الشريف.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢ ص ٥٠، ٥٣، ٥٩.

إيجار هذا الحمام إلى داود بن نصر وشقيقه أحمد بمبلغ ثلاثة عشر درهم فضة نقرة يومياً، عشرة دراهم أجرة للحمام وثلاثة ترصد لتنظيفه. وقد دفع المستأجران القسط الأول وقدره ثلاثمائة درهم أجرة شهر كامل، أما الباقي فيقسط ويدفع عند غروب شمس كل يوم[1]، وذكرت المصادر عن وجود (حمام الملكة) في نابلس، وقفه الأمير سنجر الدواداري الصالحي على مصالح الخانقاه الدويدارية التي أنشأها في القدس سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م)[2].

وزودت هذه الحمامات ببرك خاصة لتزويدها بالمياه، أو لجمع المياه القذرة فيها، فحمام علاء الدين كانت له بركة كهذه، وكذا حمام البترك، وقد نصت الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس أنّ على المستأجرين نزح مياه هذه البركة.

---

(٥) وثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٦) Van Berchem, Jerusalem Ville, p. 214.

الفصل الخامس

الحيَاة العلِميّة في النيابَة

١ - ازدهار الحركة العلمية في القدس في العصر المملوكي

٢ - المدارس:

أولاً : نشوء المدرسة في الإسلام وانتشارها.

ثانياً : المدارس الموجودة في أروقة الحرم أو المطلة عليه.

ثالثاً : المدارس الموجودة خارج أروقة الحرم:

أ- المدارس الواقعة في الجهة الشمالية من الحرم.

ب- المدارس الواقعة في الجهة الغربية من الحرم.

رابعاً : الخوانق في بيت المقدس.

(١)

ازدهار الحركة العلمية في القدس في العصر المملوكي

خرجت أول بعثة علمية حجازية إلى بلاد الشام بعد الفتوحات العربية الإسلامية مباشرة لتعلم أهلها وتثقفهم أمور دينهم، وهم: معاذ بن جبل الذي خرج إلى فلسطين ومات في طاعون عمواس ودفن في غور الأردن، وعبادة بن الصامت الذي أقام في حمص أولاً ثم توجه إلى فلسطين والياً على بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب فأقام فيه إلى أن توفي، وأبو الدرداء الخزرجي الذي أقام في دمشق فلم يزل فيها إلى أن مات[1].

---

(١) ابن الجوزي، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق بيروت، ١٩٧٩م، ص١٣٠. محمد كرد علي، خطط الشام، ج٤ ص١٥.
يوسف غوانمة، علماء وفقهاء محافظة أربد في العصر الإسلامي، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٠م ص٣.

وإن استقرار الأمور في بلاد الشام ساعد على قيام حركة ارتبطت بالإسلام فكرياً، وتناولت موضوعاتها الدراسات الإسلامية الممثلة بعلوم القراءات والحديث والتفسير والفقه والدراسات العربية كعلوم النحو والبلاغة والشعر، ثم الاهتمام بالدراسات الإنسانية كالسيرة والمغازي والتاريخ. وكان للدراسات العقلية دورها، فقد ظهرت بوادرها الأولى في العصر الأموي، ولكنها تطورت وازدهرت في العصر العباسي متأثرة بعلوم الأمم القديمة وحضاراتها.

ولما كانت فلسطين إحدى كور الشام، فقد امتدت إليها النهضة العلمية ونبغ من رجالها العديد في شتى العلوم والفنون، فأول من حدث رواية القران بدمشق هشام بن إسماعيل، وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن. ومن علماء فلسطين في القرن الأول الهجري نذكر: أوس بن أوس الصحابي الشاعر الذي سكن بيت المقدس والرملة، وروح بن زنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بالخليفة عبد الملك بن مروان، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث، ومالك بن دينار الذي أقام في القدس. ورجاءبن حيوة الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس الخليفة عمر بن عبد العزيز، ويحيى بن عمرو السيباني من أهل الرملة (وسيبان بطن من حمير).

وكان القرن الثالث الهجري عصر العلوم والإبداع الفكري في العراق، فوصلت بغداد أوج عظمتها العلمية، ولكن الشام لم تصل درجة بغداد والعراق، وإن كنا نرى أعداداً من العلماء ممن ينسبون إلى دمشق وبيروت وصيدا وغزة وطبريا وغيرها من المدن.

ويعتبر القرن الرابع الهجري عصر الإبداع الأدبي والشعري في بلاد الشام، ففيه نبغ فحول الشعراء الشاميين كأبي فراس الحمداني، وأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري، وأبي القاسم الحسن الواساني الدمشقي، وأحمد محمد الطائي الدمشقي، وكشاجم الرملي (ت٣٦٠هـ) وغيرهم كثير. إلا أن هذا الإبداع لم ينسحب على فلسطين وبيت المقدس بشكل خاص، فقد وصف المقدسي مدينة بيت المقدس في كتابه أحسن التقاسيم، بأنها قليلة العلماء، ومسجدها خلا من الجماعات والمجالس[1]، ثم يتعرض إلى فقهائها فيشير إلى قلة البدعة فيهم[2]، والظاهر أن الصبغة التي رآها المقدسي غالبة على طبيعة الحياة الثقافية في القدس هي الصبغة التعبدية، أما حلقات البحث والمناظرة والدرس التي رآها في البلدان الأخرى أثناء تجواله فيها وهو الجغرافي والرحالة والعالم، فلم يجدها في بلده القدس،

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ط٢، بريل ١٩٦٧م، ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٣.

ففقهاؤها كانوا من ذوي الثقافة الدينية المحافظة. ولكن المقدسي يتطرق إلى ناحية أخرى من الحركة العلمية في بيت المقدس، فيشير إلى كثرة الحذاق والأطباء، وهذا يعني تأكيده جانب الثقافة المهنية التي اختارها بعض المثقفين في القدس ورسوخ التراث المهني والطبي والتقني[1]. فبرز في هذا المجال أبو عبد اللّٰه محمد بن سعيد التميمي الطبيب، والمقدسي الجغرافي، وقد شغف هذان العالمان بوطنهما فلسطين، فالمقدسي الجغرافي عرف بلاده بقعة بقعة وتحدث عنها من جميع النواحي العمرانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، فتحس عند قراءة كتابه (أحسن التقاسيم) صدق انتمائه بفلسطين وحبه الكبير إليها[2]. وكذا التميمي النباتي الذي لم يترك بقعة من أرض فلسطين إلا وتعرّف عليها وعلى نباتاتها واستغلها في صنع الأدوية وتركيبها[3].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣، ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٥٤٧.
احسان عباس، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠، ص١٨.

(٢) أحسن التقاسيم، ص١٦٦.

(٣) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة دار الآثار، بيروت، ص٧٤، ٧٥. ابن أبي اصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٥٤٧.

ويشير الدكتور احسان عباس إلى فقر ثقافي في فلسطين في القرن الرابع الهجري، فلم يكن في فلسطين آنذاك أي تميز في النواحي الأدبية، وكل ما هناك نماذج قليلة لبعض الأدباء والشعراء، ولكنها غير كافية لإعطاء رأي قاطع ومصيب في هذه الناحية(١).

ثم يعود الانتعاش إلى الحركة العلمية والثقافية في القرن الخامس الهجري، فالعلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير تتصدر على يد أبناء البلاد أنفسهم. وتصبح فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة قبلة العلماء والفقهاء الوافدين، فتنتعش حلقات الدرس والمناظرة التي افتقدها المقدسي في بلده في القرن الرابع، ويعود للقدس مكانتها العلمية والثقافية(٢). ومن علماء القدس في هذا العصر نذكر: نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، الذي درّس في القدس ودمشق وصور وله عدة تصانيف (ت٤٩٠هـ)(٣)، وسلامة بن إسماعيل بن جماعة المقدسي الضرير، كان كثير الحفظ له عدة تصانيف (ت.٤٨هـ) والحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني الناثر المجيد صاحب

(١) احسان عباس، المرجع السابق، ص٢١، ٢٣.
(٢) ابن عربي، العواصم من القواصم، القاهرة، ١٣٧١هـ، ص ١٤، ١٥.
(٣) ابن عربي، العواصم من القواصم، ص ١٦.
محمد كرد علي، خطط الشام، ج٤ ص٣٣.

الخطب البديعة (ت٤٨٢هـ)[١]، وغيرهم. وحظيت المدينة المقدسة في أواخر القرن الخامس الهجري باستقطاب مجموعات كبيرة من علماء المشرق والمغرب منهم: أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري (ت٥٢٠هـ)، من كبار علماء المالكية الأندلسيين من طلابه في القدس العالم الأندلسي محمد بن عبد الله بن محمد بن عربي الأشبيلي (ت٥٤٣هـ). فابن عربي يقول: (تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة)[٢]. والعالم ابن الكازروني الذي أخذ عنه ابن عربي وقال عنه (تمتعنا به ثلاث سنوات)[٣]، والغزالي الذي اعتكف في إحدى مدارس القدس وبدأ في تأليف كتابه (إحياء علوم الدين). وقد ترافقت هذه الحيوية العلمية بظهور المدارس وانتشار الدرس والمناظرة في المدينة المقدسة. ثم إن المصادر ذكرت وجود بيمارستان عظيم في بيت المقدس، فناصر خسرو الذي زار القدس سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٧م) قال عن البيمارستان إنه (يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف)[٤]، مع العلم أن

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٤ ص٣٢.
(٣) ابن عربي، العواصم من القواصم، ص ١٥.
(٣) ابن عربي، المصدر نفسه، ص ١٥.
(٤) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٧.

للبيمارستان مهمة أخرى تعليمية ففيه يتعلم الطلاب العلوم الطبية والصيدلانية.

ثم كانت الهجمة الصليبية الشرسة التي اجتاحت بلاد الشام واحتلت المدينة المقدسة يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ (١٥ تموز ١٠٩٩م). فقتل الفرنجة كلَّ سكان القدس وبينهم ثلاثة آلاف ما بين عالم وعابد ومعتكف[١]. وباحتلال القدس والساحل الفلسطيني خمدت الحركة العلمية في فلسطين طيلة الاحتلال الفرنجي لها.

وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) على يد صلاح الدين الأيوبي شهدت المدينة المقدسة حياة فكرية وثقافية نشطة، فصلاح الدين لم يدخل القدس إلا صحبة عدد كبير من العلماء الأفاضل بحيث لم يتخلف معروف من الحضور[٢]. وبعد أن رتب أمور المدينة أنشأ فيها مدرسة للشافعية، والخانقاه الصلاحية، البيمارستان الصلاحي.

---

(١) عن الصورة الوحشية لما فعله الفرنج في المدينة المقدسة انظر: Fulcher of Charters, p. 122.

William of Tyre, vol, 1, p. 372.

وللباحث، بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٠م ص١٤ وما بعدها.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٨٢.

وقد تعصب الأيوبيون لمذهب السنة، وحاربوا مذهب الشيعة، فأقاموا المدارس في ربوع مصر والشام لهذه الغاية، وزادهم تعصباً للدين قيام الحروب الصليبية. لذا شجعوا الدراسات الدينية واللغوية، وإن كنا نجد أنَّ بعضهم شجَّع الدراسات العقلية كالمعظم عيسى وابنه الملك الناصر داود. فملوكهم أحاطوا أنفسهم بخيرة العلماء والفقهاء في شتى العلوم والفنون، ووضعت المصنفات في مختلف العلوم الدينية، وعلوم العربية، والعلوم العقلية والطبيعية، والعلوم الإنسانية، واستأثرت المدينة المقدسة بخيرة هؤلاء العلماء.

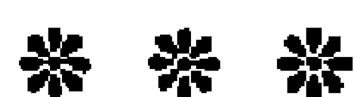
أما في العصر المملوكي فقد بلغت الحياة الفكرية في المدينة المقدسة أزهى أدوارها، فاستقطبت العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب على حد سواء، منهم الإمام الفاضل مسعود ابن خطيب مالقة بالأندلس، نزل في القدس بمدارس المالكية وكان يقرئ العربية وعبارته جيدة (ت٧٨٩هـ). والشيخ الرباني علاء الدين علي العشقي البسطامي (عشق بلدة من أعمال خراسان)، وتلميذه الشيخ جلال الدين الصالح الرباني الذي اشتغل بالتدريس في القدس وصنَّف رسالة مفيدة، وكانت له زاوية في القدس توفي فيها سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م)، والسيد الشريف موسى بن أحمد بن منصور شرف الدين العدوي المغربي المالكي،

اشتغل بالعلم وله اعتراضات وسؤالات واستنباطات حسنة، اقام في القدس مدة وتوفي في الخليل سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م)[١]. بل إن عدداً كبيراً منهم كان يفضل الإقامة في بيت المقدس لاعتدال جوه ووقوعه داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة المملوكية[٢].
وإن كتب التراجم لتزخر بأعداد كبيرة ممن ينتسبون للمدينة المقدسة، أو الوافدين إليها، نجدهم في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، والضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لأبي الفلاح، والأنس الجليل للحنبلي وغيرها من كتب التاريخ المختلفة كالسلوك للمقريزي، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن وبدائع الزهور لابن إياس.

ومن الملاحظ أنَّ المدينة المقدسة أصبحت من مراكز الاشعاع العلمي والفكري والحضاري في العصر المملوكي، خصوصاً بعد سقوط بغداد ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وهجرة علماء العراق إلى مصر والشام وسكناهم في أمهات مدنها كحلب ودمشق وبيت المقدس والقاهرة. وقد تمثل هذا النشاط في عدد كبير من المؤلفات

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م ج٣، ص٢٣٦، ٤٤٢، ٤٩٨.
(٢) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م، ص١٢.

والرسائل ارتبطت ولادتها في المدينة المقدسة، وكان للعلوم الدينية النصيب الأوفر في تلك الدراسات والبحوث، ومع ذلك فقد نبغ العديد في علوم الأدب واللغة والنثر والتاريخ والعلوم العقلية والتجريبية، مما يدل على اتساع دائرة النشاط العلمي في بيت المقدس في العصر المملوكي واستمراره واتصال حلقاته حتى نهاية دولتهم.



(٢)

المدارس

أولاً: نشوء المدرسة في الإسلام وانتشارها:

عرفت بلاد الشام المدارس منذ العصر الهليني والروماني والبيزنطي، وكانت مدرسة بيروت إحدى أربع مدارس مشهورة في الدولة الرومانية، وقد تهدمت هذه المدرسة قبل الإسلام بسبب الزلازل التي ضربت المدينة في القرن السادس الميلادي، ثم إنَّ حريق سنة ٥٦٠م أتى على معظم بيروت ومعاهدها العلمية. وهناك مدارس أخرى اشتهرت في بلاد الشام في ذلك العصر نذكر منها: مدرسة قيسارية، وغزة، وأريحا، وتدمر، وبصرى، وصيدا وجدرا (أم قيس)، وقد تخرج من هذه المدارس العديد من العلماء والخطباء والفلاسفة [١]. وهكذا فإن بلاد الشام عرفت المدارس والمعاهد العلمية قبل مجيء الإسلام.

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤ ص١٢، ١٣.

وقد اختلفت الآراء حول نشوء المدرسة في الإسلام، ولما كان العلم من اختصاص الجماعة الإسلامية، فقد استخدمت الجماعة المساجد معاهد للتعليم. فالتعليم لم يكن من إختصاص الخلفاء والسلاطين، بل كان من اختصاص الأفراد والجماعة، وقد تكفلت الجماعة الإسلامية بمعاش المعلمين سواء أولئك الذين يعلمون الصبيان القراءة والكتابة أو الشيوخ الأجلاء الذين يعلمون الطلاب الكبار في المسجد علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب. ولم تقرر الدولة راتباً لمعلم أو شيخ إلا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، فالتدريس بأجر أو راتب معلوم شاع منذ ذلك القرن [1].

والمعروف أن الدرس والتدريس نشأ بنشأة الإسلام، فروي أن جماعة من الصحابة كانوا يعلمون في مسجد قباء في عهد الرسول. ويذكر ابن خلكان أنَّ أبا عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ (المعروف بربيعة الرأي) كانت له في مسجد الرسول بالمدينة (حلقة وافرة)، وعنه أخذ مالك بن أنس وأشراف أهل المدينة [2]. وقد انتشرت هذه الحلقات في المساجد الجامعة في

---

(١) حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م، ص٣٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ج٥، ص٢٩٥، ٢٩٦.

الحجاز والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية وعواصمها.

وسمي الدرس (حلقة) لأن الطلاب كانوا يتحلقون حول الشيخ أي ينتظمون في حلقة أو دائرة [1]، وهذه الحلقات كانت تتسع أو تضيق تبعاً لعدد الطلاب. وكان كل شيخ يستند إلى سارية أي أسطوانة[2]، ولكل سارية وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس[3]، وتبقى هذه الاسطوانة وقفاً عليه مادام يقوم بمهمة التدريس في المسجد، وفي بعض الأحيان تبقى معروفة بإسمه حتى بعد وفاته [4]. وسمي مجلس الشيخ في بعض الأحيان (طاقا)[5]، وأطلق بعضهم على الحلقة (زاوية)، فابن جبير ذكر في وصفه للجامع الأموي أن (للمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي)[6]. وتبلغ الحلقات في بعض

---

(١) ابن جبير، الرحلة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م، ص٢٤٤.
(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٥.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ ص٢٩٥.
أحمد فكري، مساجد القاهرة مدارسها، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ج٢ ص١٤٤.
(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥ ص٢٩٤.
أحمد فكري، المرجع السابق، ج٢ ص١٤٤.
(٦) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٥.

المساجد أعداداً كبيرة، وقد حظي المسجد الأقصى كغيره من المساجد الجامعة بحلقات العلم والتدريس والمناظرة، وذكر ابن عزاي أنها بلغت في القرن الخامس الهجري ثمان وعشرين حلقة، وكان التركيز يدور في تلك الحلقات على ثلاثة علوم هي: علم الكلام وأصول الفقه، ومسائل الخلاف [1]، وبقي التدريس قائماً في المساجد قروناً طويلة منذ العصر الإسلامي الأول.

وقد اختلف المؤرخون في نشأة المدارس في الإسلام، فأول إشارة للمدارس ذكرها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم الذي ألفه سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م)[2]. فذكر أنه اختلف إلى المدارس عند جمعه مادة كتابه فقال: (وتزهدت وتعبَّدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذَّنت على المنابر وأقمت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت إلي المدارس ودعوت في المحافل)[3]. واعتبر المؤرخون أنَّ نيسابور الموطن الذي نشأت المدارس فيه أو انتشرت منه وذلك بعد (الأربعمائة) من الهجرة (أوائل القرن الحادي عشر الميلادي)، وأنَّ أقدمها عهداً مدرسة ابن

---

(١) إحيان عباس، المرجع السابق، ص٢٧.
(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٤، أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج٢ ص١٥١.

فورك قبيل سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م)(١). ولكن المقريزي ذكر أن (المدارس مما حدث في الإسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية)(٢)، نسبة إلى أبي بكر البيهقي المتوفي سنة ٤٥٨هـ(١٠٦٦م)(٣).

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢ ط٢ فسبادن، ١٩٧٤م ص٣٤٤، وأنظر: السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢ ص٢٥٥.
محمد بن الحسن بن فورك، عالم جليل له تصانيف جمة في الكلام بلغت مصنفاته قريباً من مائة، كان رجلاً صالحاً له مناظرات، استوطن نيسابور وبنى له بها مدرسة، وأحيى الله به أنواعاً من العلوم، كانت وفاته سنة ٤٠٦هـ.
(الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢ ص٣٤٤).
نيسابور: مدينة عظيمة في خراسان، ذات فضائل جسيمة، وصفت بأنها معدن الفضلاء ومنبع العلماء. معجم البلدان، ط. دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ج٥ ص٣٣٢).
(٢) المقريزي، الخطط، ط بولاق سنة ١٢٧٠هـ، صورة بالاوفست عن دار الكتاب اللبناني، ج٣ ص٣١٤. وأنظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٥٥.
(٤) أحمد بن الحسن بن علي بن عبد الله البيهقي النيسابوري، كان أحد الأئمة المسلمين وهداة المؤمنين والدعاة إلى حبل الله المتين، فقيه جليل حافظ كبير، ولد سنة ٣٨٤هـ رحل في طلب العلم، وشيوخه أكثر من مائة، اشتغل بالتصنيف وصف بأنه كان أوحد زمانه وأحذق المحدثين وأحدهم ذهناً وأسرعهم فهماً، بلغت تصانيفه ألف جزء، توفي بنيسابور سنة ٤٥٨هـ.
(السبكي، طبقات الشافعية، ط٢ على الأوفست، دار المعرفة، بيروت، ج٣، ص٤، ٥).

ثم انتشرت المدارس بعد هذا التاريخ على يد نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، فمنذ أن تولى الوزارة في سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) اهتم ببناء المدارس (فبنى ببغداد مدرسة ورباطاً وبنى مدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو، ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال إنّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة)[1]. ويرى السبكي والمقريزي أن المدرسة النظامية ببغداد أشهر ما بني من المدارس قديماً، لأنها أول مدرسة قرَّر بها للفقهاء والطلبة معاليم معينة[2].

وقد أشارت المصادر إلى وجود (المدارس) في بيت المقدس، في الفترة نفسها، فابن عربي ذكر عند زيارته لبيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري عن دخوله إلى (مدارس) الحنفية والشافعية، وميَّز منها مدرستين الأولى مدرسة الشافعية بباب الأسباط ونرى أن هذه المدرسة هي التي أطلق عليها فيما بعد (المدرسة النصرية) أو الناصرية نسبة إلى الشيخ نصر بن ابراهيم بن نصر بن ابراهيم بن داود المقدسي الشافعي

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٣ ص١٣٧.
(٢) السبكي، المصدر نفسه، ج٣ ص١٣٧.
المقريزي، الخطط، ج٣ ص٣١٤.

(ت٤٩٠هـ)، وبهذه المدرسة اعتكف أبو حامد الغزالي سنة ٤٨٨هـ وشرع في كتابه سفره الكبير (أحياء علوم الدين)[١]. والثانية مدرسة أبي عقبة الحنفية جوار كنيسة القيامة[٢].

ولكننا نشير إلى أن بلاد الشام عرفت المدارس قبل ذلك بقرن من الزمان، أي من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي أشار إلى (المدارس) سنة ٣٧٥هـ، ثم أن المدرسة الصادرية بدمشق أسست سنة ٣٩١هـ[٣]. وبذا تكون بلاد الشام قد عرفت المدارس قبل نظام الملك، وكانت هذه المدارس موئل العلماء والفقهاء، يرتادونها من جميع أنحاء العالم الإسلامي، أما عن النظامية في بغداد فذكر السبكي والمقريزي أنها (أشهر ما بني من المدارس) لأنها أول مدرسة قرر فيها للفقهاء والطلاب المعاليم (الرواتب) ولم تكن أقدمها. لذا فإننا نتحفظ على ما أورده المقريزي في خططه من أنَّ أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في الاسلام، فالأدلة التي أوردناها سابقاً تشير إلى أنَّ المدارس وجدت في القدس ودمشق قبل سنة ٤٠٦ هـ، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ بلاد الشام عرفت المدارس منذ العصر الروماني. ومن هنا فلن

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف القدس، ١٩٦١م، ج١ ص٢٤٠.
(٢) إحسان عباس، المرجع السابق، ص٢٦، ٢٧.
(٣) أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢ ص١٥٤.

ندعي خطأ إذا قلنا إنّ المدارس نشأت في بلاد الشام وفي دمشق وبيت المقدس بالذات قبل نيسابور، وإن العلماء من المغرب والمشرق أمّوا تلك المدارس وأقاموا فيها.

ثم انتشرت المدارس وازدادت في العصر الأيوبي، فالأيوبيون اهتموا ببناء المدارس في مصر والشام لنشر المذهب الشافعي والقضاء على المذهب الشيعي بعدما أنهوا الخلافة الفاطمية الشيعية. ويحدثنا ابن جبير الذي زار العراق والشام في أوائل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) عن وجود ثلاثين مدرسة في بغداد أشهرها المدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك [١]. ووجد في حلب ست مدارس وبيمارستان واحد[٢]، أما حماه فوجد فيها ثلاث مدارس وبيمارستان[٣]، وفي حمص مدرسة واحدة وبيمارستان واحد[٤]، أما فلسطين ومدن الساحل الشامي فكانت تحت الاحتلال الصليبي.

وبعد أن حرر صلاح الدين الأيوبي المدينة المقدسة سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) رتب أمور المدينة وأنشأ فيها الخانقاة الصلاحية

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

جوار كنيسة القيامة، وجعلها للصوفية، وأنشأ مدرسة للفقهاء الشافعية عند باب الأسباط ووقف عليها الوقوف العديدة[١].

وبعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ(١١٩٢م) زار صلاح الدين بيت المقدس وفوض الولاية فيه للأمير عز الدين جرديك، وفوض الأمير علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم، وجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب كنيسة القيامة بيمارستان للمرضى. وفوَّض النظر في أوقاف هذه المؤسسات العلمية والاجتماعية إلي القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد صاحب كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)[٢].

ثم زاد انتشار المدارس في بلاد الشام في العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي، فذكر ابن شداد عز الدين محمد (ت٦٨٤هـ) في كتابه الأعلاق الخطيرة عن وجود ست وأربعين مدرسة في مدينة حلب وظاهرها[٣]. أما مدارس دمشق فبلغت في عهد ابن شداد تسعين مدرسة للمذاهب الأربعة[٤]. وكانت

(١) العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد صبح، القاهرة ١٩٦٥م، ص١٤٥.
(٢) العماد الكاتب، المصدر السابق، ص٦١١، ٦١٢.
(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١ ق١، دمشق، ١٩٥٣م، ص٩٦-١٠٧.
(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، تاريخ علماء المستنصرية، ط٢، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥م، ج١ ص٢٧.

المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله ٦٢٣ - ٦٤٠هـ(١٢٢٦ - ١٢٤٢م) في بغداد خير نموذج لمدارس هذا العصر، فقد وصفت بأنها أول جامعة في العالم الاسلامي اهتمت بتدريس علوم القرآن، والسنة والفقه وعلوم اللغة العربية والرياضيات، وعلم الطب، وقسمة الفرائض والتركات، ومنافع الحيوان، وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان، وبذا جمعت معظم العلوم العقلية والدينية واللغوية [(١)].

وقد شهد بيت المقدس في العصر المملوكي قفزة هائلة في بناء المدارس والأربطة والخوانق والزوايا، وانسحب ذلك على مصر وبلاد الشام، فاهتم السلاطين والأمراء بإقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية والاجتماعية في بيت المقدس لتوفير أسباب الحياة الطيبة لرواد وسكان القدس وتنشيطه بعد تحرره من الخوف والغربة الطويلة بيد افرنج. فجعلوا منه (نيابة مستقلة) وجعلوا فيه نائباً برتبة كبيرة، وأقاموا عشرات الأبنية ووقفوا فيه الوقوف الهائلة. فأصبح بيت المقدس في العصر المملوكي قبلة العلماء والأدباء وطلاب العلم من المغرب والمشرق، وأضحى بؤرة اشعاع فكري وحضاري في بلاد الشام، وأمَّه العلماء

---

(١) ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرين، ط٢، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥م، ج١ ص٢٧.

والفقهاء وأصحاب الفكر من جميع أنحاء العالم الاسلامي للاقامة والتحصيل، فازدادت مدارسه فبلغت نيفا وأربعين مدرسة. وقد قامت دراسات وأبحاث عديدة قديمة وحديثة عن مدارس بيت المقدس منها ما ذكره ابن فضل اللّه العمري في كتابه مسالك الأبصار، ولكن الحنبلي أسهب في ذكر مدارس القدس في كتابه الأنس الجليل، الذي يعتبر بحق خير مصدر عن تاريخ القدس في العصر الوسيط ودراسة للمنهاجي السيوطي في مخطوطه اتحاف الأخصا بفضائل الأقصى ذكر فيها بعض المدارس. وهناك دراسات حديثة عن هذه المدارس في مقدمتها كتاب فان برشيم (Van Berchem) الخاص بالقدس يتحدث فيه عن هذه المدارس ونقوشها ورسم مخططات لبعضها. ثم كتاب المفصل في تاريخ القدس لعارف العارف، وتعرض محمد كرد علي لهذه المدارس في كتاب خطط الشام. ولابد من ذكر جهود المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس الذي يقوم مهندسوها وعلماؤها بمساعدة القسم الهندسي بوزارة الأوقاف في القدس برفع العديد من هذه المدارس ورسم مخططاتها. وقد نشرت هذه المدرسة عدة أبحاث عن مدارس القدس في مجلتها ليفانت (LE-VANT) وأصدرت نشرة بعنوان (الأبنية الأثرية في القدس الاسلامية) سنة ١٩٧٧م أعدها المهندس بورغوين، وهذه النشرة

أول فهرس للعمارة الاسلامية في القدس. وصدر في عمان حديثاً دراسة للزميل الدكتور كامل العسلي بعنوان (معاهد العلم في بيت المقدس) سنة ١٩٨٠م. أما دراستي في بحثي هذا عن مدارس القدس فقد توخيت فيها دراسة تلك المدارس التي ما زالت أماكنها معروفة للآن واهتديت بفهرس المهندس بورغوين في ترتيبها، فبدأت أولاً بالمدارس الموجودة داخل أروقة الحرم أو المطلة عليه ثم المدارس الموجودة خارج الحرم. واعتمدت في دراسة تلك المدارس على المصادر التاريخية المتوفرة، فطبيعة بحثي تطلبت مني هذه الدراسة، كي يجيء البحث عن (نيابة بيت المقدس) متكاملاً من النواحي الطبوغرافية والادارية والاقتصادية والسكانية والثقافية.

ثانياً: المدارس الموجودة في أروقة الحرم أو المطلة عليه:

معظم أروقة الحرم القدسي من بناء المماليك والقليل منها بني في العصر الأيوبي، والأروقة عبارة عن دعامات حجرية ضخمة تعلوها العقود والقباب، وجميعها مبنية من الحجر. أما أرضيتها فمكسوة ببلاطات حجرية وترتفع هذه الأروقة عن ساحة المسجد الأقصى ببضع درجات.

فالأروقة التي بين باب الأسباط وباب حطة بنيت في عهد الملك الأشرف شعبان بن حسن سنة ٧٦٩هـ(١٣٦٧م). أما الأروقة الواقعة بين باب حطة وباب العتم فهي من بناء الملك

الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر داود بن المعظم عيسى نائب السلطنة في القدس، وناظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل في عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)[١]. أما الأروقة الموجودة غربي باب العتم فهي قديمة إلا أنها جددت سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) في عهد الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وقد أثبت ذلك في لوحة تأسيسية غربي باب العتم عليها النص التالي:

«جدد هذا الرواق في أيام دولة سيدنا ومولانا السلطان العالم الملك المعظم أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب خلد اللّه ملكهما في سنة عشر وستمائة والحمد للّه وحده، في ولاية الأمير الأجل عز الدين عمر بن يغمور»[٢].

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد بنى سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) الأروقة الواقعة بين باب الغوانمة وباب الناظر في الجهة الغربية من ساحة الحرم. وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على حائط باب الناظر من الجهة الجنوبية منقوش عليها:

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧١.

(٢) مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لاصلاح وعمارة الصخرة المشرفة بالقدس، القاهرة، ص١٥.

«بسم اللّه الرحمن الرحيم من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون، انشئ هذا الرواق المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد قلاوون أعز اللّه أنصاره بنظر العبد الفقير إلى اللّه بلناق بن خبان الخوارزمي تقبل اللّه منه وذلك ستة سبع وسبعمائة [١].

وللناصر محمد بن قلاوون آثار جليلة في المدينة المقدسة، فقد بنى أيضاً الأروقة الواقعة غربيّ الحرم بين باب السلسلة وباب المغاربة، ونقش ذلك على لوحة رخامية موجودة فوق النافذة الشرقية للمدرسة التمرية جنوبي باب السلسلة، ونصها:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم أنشئ هذا الرواق في أيام مولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون أعز اللّه أنصاره بنظر الأمير شرف الدين موسى بن حسن الهدباني في سنة ثلاث عشرة وسبعماية»[٢].

---

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لاصلاح وعمارة الصخرة المشرفة بالقدس، القاهرة، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠. وانظر: المنهاجي السيوطي، اتحاف الأخصا، لوحة ٤٦ أ (مخطوط).

أما المدارس الموجودة في هذه الأروقة أو المطلة على الحرم فهي :

١ - المدرسة الغادرية:

تقع بين مئذنة باب الأسباط وباب حطة شمالي الحرم، بنتها (مصر خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) في عهد الملك الأشرف برسباي سلطان مصر المملوكية. أما لوحتها التأسيسية المثبتة في واجهتها فقد محيت ولم يبق منها سوى الكلمات التالية :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم ... الملك الأشرف خلَّد اللّه ملكه وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهور ... »[١]

ولكن الأستاذ عارف العارف ذكر أن النقش كان نصه مايلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم، انشأت هذه المدرسة المباركة الدر المصونة مصر خاتون زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن القادر في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف خلد اللّه ملكه، وذلك بتاريخ شهر ربيع

---

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٤ .

الآخر من شهور سنة ست وثلاثين وثمانماية»[1].

٢- المدرسة الكريمية:

بنى هذه المدرسة كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم بن هبة الله بن السديد، ناظر الخاص السلطانية سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وتقع المدرسة شمالي الحرم ملاصقة لباب حطة من جهة الشرق، وذكر ابن فضل الله العمري أن طول هذه المدرسة من الشرق إلي الغرب خمسة وعشرون ذراعاً. وفي سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) زارها الرحالة ابن بطوطة وعدها خانقاة وقال إنَّ من فضلاء القدس (شيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس)[2].

---

(١٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٠، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، القدس ١٩٦١م، ص٢٥٣.

التسجيل بقسم الآثار بدائرة الأوقاف الاسلامية بالمسجد الأقصى.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، ١٩٢٤م، ج١ ص١٥٧، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار التراث بيروت ١٩٦٨م، ص٥٥. الأنس الجليل، ج٢ ص٣٩، عارف العارف، المفصل ج١ ص٢٤٤.

كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم بن هبة الله بن السديد، ناظر الخاص ووكيل السلطان وعظيم دولته وهو أول من باشر هذه الوظيفة بتجمل ولم تكن تعرف أولاً. أصله من كتبة النصارى ثم أسلم كهلاً في أيام السلطان بيبرس الجاشنكير وكان كاتبه. ثم أصبح في خدمة الناصر محمد بن قلاوون فعينه ناظراً للخاص وهو من جملة من ناله السعادة والوجاهة عنده وصار أعز الناس عليه، إلا أن السلطان غضب منه فأخرجه إلى الشوبك ثم نقله إلى القدس ثم أرسله إلى سجن أسوان. وقيل إنَّ كريم الدين شنق نفسه بعمامته، وقيل أن الناصر محمد أمر بقتله سنة ٧٢٢هـ(١٣٢٢م). (النجوم الزاهرة، ج٩ ص٧٥، ٧٦، ابن اياس، بدائع الزهور، ط مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٣٨).

٣- المدرسة الباسطية:

تقع بالقرب من باب العتم شمالي الحرم، وتطل على المدرسة الدويدارية وأول من اختطها وقصد عمارتها شيخ الاسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين، إلا أنه توفي قبل اتمامها. فأكمل عمارتها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش وذلك سنة ٨٣٤هـ (١٤٣٠م) في عهد السلطان الأشرف برسباي. وقد استغلت هي والدويدارية للتدريس في الوقت الحاضر[١].

٤- المدرسة الأمينية:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم إلى الغرب من باب العتم (شرف الأنبياء)، نعتها ابن فضل الله العمري (بزاوية الصاحب أمين الدين المعروف بأمين الملك)، وذكر بأنه يمكن الصعود إليها من الرواق الواقع غربي باب العتم. بنى هذه المدرسة الصاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي الطابق الأرضي منها دفن عدد من آل الإمام وعلمائهم منهم: الشيخ أسعد الإمام، والشيخ يوسف،

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٩، عارف العارف، المفصل، ص٢٥٣. التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.

والشيخ محمد صالح، والشيخ ابراهيم، ودفن معهم أيضاً الشيخ يحيى شرف الدين بن قاضي الصلت. تحولت المدرسة في الوقت الحاضر إلى دار للسكن[1].

٥- المدرسة الفارسية:

تقع داخل الحرم في جهته الشمالية، متوسطة بين الأمينية شرقاً والملكية غرباً. واقفها الأمير فارس البكي بن الأمير قطلوا ملك ابن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) في عهد السلطان محمد بن قلاوون وفيما بعد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكن[2].

٦- المدرسة الملكية:

في الجهة الشمالية من الحرم بين الفارسية من الشرق والمدرسة الاسعودية من الغرب علي يمين الداخل من باب العتم. بناها الأمير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار سنة ٧٤١هـ(١٣٤٠م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١ ص١٥٨.
الأنس الجليل، ج٢ ص٣٩، عارف العارف، المفصل، ص٢٤٥.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٣.
عارف العارف، المفصل، ص٢٤٧.
التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.

ذكرها ابن فضل اللّه العمري ونعتها (بمدرسة آل ملك)، وذكر أنها تقع فوق الرواق المخصص لصلاة النساء قرب باب شرف الأنبياء (العتم)، ويمكن الصعود إليها من سلم داخل هذا الرواق. وهناك لوحة تأسيسية على حجر رخامي مثبتة على حائطها القبلي المطل على ساحة الحرم نقش عليه النص التالي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى اللّه تعالى الحاج الأمير الجوكندار الملكي الناصري، غفر اللّه له حياً وميتاً ولمن دعا له بالرحمة والمغفرة. وكان الفراغ منه في شهر اللّه الحرام غرة عام أحد وأربعين وسبع ماية من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام»[1].

وتحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى دار للسكن[2].

٧- المدرسة الأسعردية:

تقع شمالي الحرم إلى يمين الداخل من باب العتم بجوار

---

(١) راجع النص في مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٥.

(٢) وعن المدرسة أنظر:

ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، ج١ ص١٥٩، الأنس الجليل، ج٢ ص٣٨، عارف العارف، المفصل، ص٢٤٦.

المدرسة الملكية وفوق رواق النساء، ذكرها ابن فضل اللّه العمري ونعتها (بخانقاه الأسعردي) وقال: إنها تقع والمدرسة الملكية فوق الرواق السالف الذكر، ويصعد إليها من درج داخل ذلك الرواق.

وذكر العمري أن بانيها هو مجد الدين الأسعردي التاجر[1]، ولكن الحنبلي قال إنَّ واقفها الخواجا مجد الدين عبد الغني بن سيف الدين أبي بكر بن يوسف الأسعردي سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م)[2]، وذكر العارف أنها بنيت حوالي سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨م)[3]. إلا أننا نرى غير ذلك، فالمدرسة ذكرها العمري الذي توفي سنة ٧٤٩هـ، فهي إذن موجودة قبل هذا التاريخ، ونرى أن التاريخ الذي أورده الحنبلي هو تاريخ حجة الوقف وليس البناء. وقد رممت المدرسة حديثاً واستخدم قسم منها داراً للكتب وقسم للسكن.

٨- المدرسة الصبيبة أو النصيبية:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم بجوار المدرسة الجاولية، بناها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد الكركي عندما تولى بنيابة بين المقدس. وكان علاء الدين قد تولى نيابة قلعة

---

(١) ابن فضل اللّه العمري، المصدر السابق، ص١٥٩.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٨.
(٣) عارف العارف، المفصل، ص٢٤٨.

الصبيبة وقلعة نصيبين قبل توليه القدس، وتوفي في دمشق سنة ٨٠٩هـ (١٤٠٦م) في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق فنقل جثمانه إلى القدس ودفن في مدرسته [١]. وقد أضيفت هذه المدرسة حديثاً إلى المدرسة الجاولية لتشغلها المدرسة العمرية الحالية مع مجموعة من الأبنية الأخرى.

٩- المدرسة الجاولية:

في الركن الشمالي الغربي من المسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة مطلة على الحرم، ذكرها ابن فضل اللّه العمري فقال: (وبأقصى ارتفاع هذا السور خمسة شبابيك لمدرسة علم الدين سنجر الجاولي رحمه اللّه وليس لها استطراق إلى الحرم)[٢]. والملاحظ أن جدران المدرسة المطلة على الحرم بنيت فوق منطقة صخرية تستطيع ملاحظتها عندما تقف أسفل هذا الجدار من داخل الحرم. وباني هذه المدرسة الأمير علم الدين سنجر الجاولي بحدود سنة ٧١٣هـ (١٣١٢م) في عهد الملك الناصر محمد قلاوون، ففي هذه السنة كان سنجر الجاولي نائباً في غزة وبالإضافة إلى نيابة غزة عهد إليه السلطان ولاية القدس

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٨، محمد كرد علي، مخطط الشام، ج٦ ص١١٩، عارف العارف، المفصل، ص٢٥٢.
(٢) ابن فضل اللّه العمري، المصدر السابق، ص١٥٩.

وبلد الخليل ونابلس وقاقون ولد والرملة. ثم انتدبه السلطان في نفس السنة لإيصال الماء من عين مدينة الخليل إلى القدس (ولم يزل مجداً في العمارة مصراً على اعتماد الإشارة إلى أن فار الماء بالبيت المقدس بعد فراره)(١).

وقد ناقشت في الفصل الأول من هذه الدراسة تاريخ تحول هذه المدرسة إلى (دار للنيابة)، وفي رأينا أن التحول تم بعد سنة ٧٩٦هـ، ثم اتخذها النواب في أواخر القرن التاسع الهجري مكاناً لسكناهم، وذلك في حياة مجير الدين الحنبلي فيقول (وهي التي صارت في عصرنا سكناً للنواب بالقدس الشريف)(٢). وتشغل المدرسة العمرية الحالية في القدس مجموعة من الأبنية من ضمنها المدرسة الجاولية(٣).

١٠- المدرسة المحدثية:

تقع عند قبو باب الغوانمة في الركن الشمالي الغربي من

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك ج١، لوحة ٩٨ (مخطوط).
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٢٧٢.
(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه المدرسة، راجع الفصل الأول موضوع (دار النيابة) وعن المدرسة الجاولية أنظر:

Van Berchem, Jerusalem Ville, Le Caire, 1922,pp,226,223, 240.

ساحة المسجد الأقصى واقفها رجل من أهل العلم والفضل هو المحدث عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) في عهد السلطان صلاح الدين محمد. وحديثاً أضيف قسم من هذه المدرسة إلى المدرسة العمرية الحالية والباقي ظل داراً للسكنى (١).

١١- المدرسة المنجكية:

وتقع في طرف الحرم من الناحية الغربية إلى الشمال من باب الناظر، فوق مبتدأ الأروقة الغربية للحرم. بناها الأمير سيف الدين منجك بأمر السلطان الناصر حسن، وعندما قتل السلطان ٧٦٢هـ(١٣٦١م) بناها لنفسه فنسبت إليه (٢). وقد اتخذها المجلس الإسلامي الأعلى في القدس مقراً له، ثم أصبحت مقراً لرئيس الهيئة الإسلامية ودائرة الأوقاف العامة بالقدس.

١٢- المدرسة الحسنية:

تقع في طرف الحرم من الناحية الغربية جوار باب الناظر،

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٣. محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦ ص١٢١. عارف العارف، المفصل، ص٢٤٩. التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧.
محمد كرد علي، خطط الشام، ص١١٨.
عارف العارف، المفصل، ص٢٤٨، ٢٤٩.

وتعلو أول الأروقة الغربية بالقرب من المدرسة المنجكية. بنيت سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م)، في عهد السلطان الأشرف برسباي، وواقفها هو الأمير حسن الكشكيلي ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس(١). وقد اتخذها المجلس الإسلامي الأعلى مقراً له هي والمدرسة المنجكية، ثم أصبحت مقراً لدائرة الأوقاف العامة بالقدس.

١٣- المدرسة الجوهرية:

تقع على أمتار قليلة إلى الغرب من باب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية أنشأها جوهر القنقباي الخازندار زمام الآدر الشريفة سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م) في عهد السلطان سيف الدين جقمق، وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية نقلها إلينا برشيم هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم- أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة والرباط من فضل الله تعالى العبد الفقير إلى الله تعالى جوهر القنقباي الخازندار وزمام الآدر

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٣.
محمد كرد علي، المرجع نفسه، ص١٢١.
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٣.

الشريفة الملكي الظاهري وشيخ المشايخ خدم (؟) الحرم الشريف النبوي ابتغاء وجه الله الكريم وكان الفراغ منه في مستهل رجب الفرد سنة أربع وأربعين وثمان مائة»[1]

كانت المدرسة الجوهرية من المدارس المهمة في بيت المقدس، وتولى التدريس فيها نخبة من العلماء منهم كمال الدين محمد بن أبي شرف المقدسي، والشيخ محمود الديري وقد تحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[2].

١٤- المدرسة الأرغونية:

وتقع في الجهة الغربية من الحرم بباب الحديد على يسار الخارج منه[3]، تجاه المدرسة الجوهرية، ملاصقة للمدرسة الخاتونية. شرع في انشائها الأمير أرغون الكاملي نائب الشام، ولكنه توفي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧م) قبل إتمام عمارتها، فتولى

---

(١) Van Berchem,pp,327-328.
الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧.
محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١١٨.
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٤.
(٣) المنهاجي السيوطي، أتحاف الاخصا، لوحة ٤٦ أ (مخطوط).

إكمالها الأمير ركن الدين بيبرس السيفي سنة ٧٥٩هـ (١٣٥٧م) في عهد السلطان الناصر حسن ونقش ذلك بخط نسخي جميل على بلاطة جاء فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه التربة والمدرسة المباركة المقر الأشرف السيفي أرغون الكاملي نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس، توفي إلى رحمة الله تعالى ثامن عشر شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وتولى شدها وتكميلها ركن الدين بيبرس السيفي، وأكملت في ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وسبع مائة» . »

وأرغون هو الذي استجد بناء (باب الحديد) الذي كان يطلق عليه سابقاً (باب أرغون)، فأرغون بالتركي تعني (حديد)[١]، ورسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة في كتابه الخاص بنقوش وآثار بيت المقدس[٢]، ويوجد فيها قبر ارغون شاه، وتحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[٣] .

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١ ص١٦١ .

(٢) Van Berchem,p,277.

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٦، ٣٧ . محمد كرد علي، المرجع نفسه، ص١١٨، عارف العارف، المفصل، ص٢٤٧.

تقع في الجهة الغربية من ساحة الحرم بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية، وبعضها راكب على ظهر المدرسة الأرغونية، بناها الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) في عهد السلطان الأشرف قايتباي، وقد تحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[١].

١٦- المدرسة الخاتونية:

وتقع غربي الحرم إلى الشمال من باب القطانين وجنوبي المدرسة الارغونية، واقفتها (أغل خاتون) بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) في عهد السلطان الناصر حسن. وقدزيد بناء هذه المدرسة من قبل الأميرة أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه ووقفتها سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) في عهد السلطان المنصور علاء الدين علي، وتحولت المدرسة فيما بعد إلى دار للسكنى، ويوجد فيها قبر خاتون القازانية البغدادية[٢].

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧،
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٥.
التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٧، عارف العارف، المفصل، ص٢٥٥، مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٨.

١٧- المدرسة العثمانية:

تقع في الجهة الغربية من الحرم جنوبي باب المطهرة (المتوضئ) تجاه سبيل قاتيباي، واقفتها أميرة تركية إسمها أصفهان شاه خاتون بنت محمود العثمانية وتلقب بخاتم وذلك سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م) في عهد السلطان الأشرف برسباي، ووقفت عليها وقوفاً عديدة في بلاد الروم وأثبتت ذلك في لوحة تأسيسية فوق مدخلها نقشت عليه ما يلي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، أمرت بعمارة هذه المدرسة المباركة الست الجليلة المحجبة أصفهان شاه خاتون ابنة المرحوم الأمير محمود العثمانية الشهيرة بخاتم لطف اللّه بها ووفق عليها الانتقال سنة أربعين وثمان مائة، وكان الفراغ من عمارتها في سلخ سنت المذكورة، وذلك بهمة جميع الخواجا ولد صاطي الرومي»[1].

ودرّس في هذه المدرسة العديد من العلماء والفقهاء

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٩.

الأفاضل، ثم حولت فيما بعد داراً للسكنى، أما واقفتها فدفنت في التربة المجاورة لسور المسجد الأقصى[1].

١٨- المدرسة السلطانية (الأشرفية):

وتقع في الجهة الغربية من ساحة الحرم شمالي باب السلسة، وتمتد من باب السكينة أو باب السلام جنوباً حتى المدرسة العثمانية شمالاً[2].

بناها الأمير حسن الظاهري في عهد السلطان الظاهر سيف الدين خوشقدم سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) وسميت آنذاك (المدرسة السلطانية). ولكن السلطان خوشقدم توفي دون أن تتم، فقدمها الأمير حسن للسلطان الأشرف قايتباي فقبلها منه وسميت بإسمه (المدرسة الأشرفية). إلا أنَّ السلطان عندما زار القدس سنة ٨٨٠هـ (١٤٧٥م)، وتولى عمارتها القاضي فخر الدين بن نسيبة الخزرجي، وجاءت آية في الإبداع والإتقان حتى أنَّ مجير الدين الحنبلي وصفها بأنها (الجوهرة الثالثة في منطقة الحرم بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى). أما مدخلها فهو مدخل مئذنة باب

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٦،
محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦ ص١١٨.
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٤.
(٢) المنهاجي السيوطي، أتحاف الاخصا، لوحة ٤٦ أ (مخطوط).

السلسلة، وتطل بعض نوافذها على ساحة المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد أثبت الأشرف قايتباي تاريخ بنائها في لوحة تأسيسية موجودة على أحد جدرانها الباقية نصها:

«أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عزَّ نصره بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثماني مائة، وذلك في أيام مولانا المعز الأشرف الناصري سيدي محمد الخازندار ناظر الحرمين الشريفين عظم اللّه شأنه»(١).

وعلى جانب آخر من نفس الجدار نقش آخر نصه:

«أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة الإمام الأعظم والملك المكرم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عزَّ نصره، فكان الفراغ من ذلك في شهر رجب الفرد سنة سبع وثمانين وثمانمائة»(٢).

ورسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة أثبته في كتابه صفحة

---

(١) Van Berchem,p.358.

(٢) Ibid.,p.359.

٣٥٢ ، ولم يبق من هذه المدرسة سوى بعض الجدران، وتشغلها في الوقت الحاضر مدرسة دار الأيتام [١].

١٩- المدرسة البلدية:

تقع في الجهة الغربية من الحرم إلى الشمال من باب السلام (السكينة) بجوار المدرسة السلطانية وباب السلسلة [٢]. كانت تدعى مدرسة (منكلي بغا) نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدي نائب حلب الذي دفن بها سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) في عهد السلطان المنصور علاء الدين علي، وعلى باب إحدى غرفها النقش التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذه تربة المرحوم السيفي منكلي بغا الأحمدي كافل المملكة الحلبية تغمده الله تعالى برحمته، توفي ودفن بها في جمادى الآخر سنة إثنتين وثمانين وسبع مائة»[٣].

والمدرسة في الوقت الحاضر تابعة لأوقاف القدس[٤].

---

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٥، ٣٩.
محمد كرد علي، مخطط الشام، ج٦ ص١١٧، ١١٨.
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٥، ١٥٦.
(٢) المنهاجي السيوطي، أتحاف الاخصا، لوحة ٤٦ أ (مخطوط).
(٣) مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٩.
(٤) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٥، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦ ص١١٧، عارف العارف، المفصل، ص٢٥١. .Van Berchem,p,291

٢٠- المدرسة التنكزية:

تقع بخط باب السلسلة في الجهة الغربية من الحرم، بناها الأمير تنكز بن عبد اللّه نائب دمشق سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وصفت بأنها «مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها»[١]، وللمدرسة بابان شرقي مطل على ساحة الحرم، وآخر شمالي خارج الحرم عن يمين الخارج من باب السلسلة. وللمدرسة التنكزية شباكان في الرواق الكائن بين باب السلسلة وباب المغاربة وصفهما ابن فضل اللّه العمري فقال (وهذا الرواق فيه شباكان للمدرسة التنكزية، أبوابهما من الأبنوس والعاج)[٢]. وفي آخر هذا الرواق يوجد باب يصعد منه إلى أعلى المدرسة وسكن الصوفية. وذكر العمري أيضاً أن ظهر هذا الرواق (حامل للخانقاه التنكزية)[٣]، وباعتقادنا أنَّ المدرسة قامت بوظيفة المدرسة والخانقاه في آن واحد، واشتملت على سكن لعدد من الصوفية الذين رتبوا فيها. رسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة في كتابه الخاص بآثار ونقوش القدس صفحة ٢٥٣[٤].

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٥.
(٢) ابن فضل اللّه العمري، المصدر السابق، ص١٦٣.
(٣) ابن فضل اللّه العمري، المصدر نفسه، ص١٦٣.
(٤) Van Berchem,p.253.

وهناك نقش تأسيس كتب فوق بابها الشمالي نصه :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، انشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب اللّه وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا اللّه عنه وأثابه، وذلك في شهور ستة تسع وعشرين وسبع ماية»(١) .

وكان في داخل هذه المدرسة (الخانقاه) مسجد لخدمة طلابها ومدرسيها ويوجد على حائط بهوها القبلي نقش نصه مايلي :

«البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض واختار لعبادته مواطن لإقامة السنن والفرض وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر، وأجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر لقوله تعالى (إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر)، اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله ...»(٢) .

وقد استخدم السلاطين هذه المدرسة مكان إقامة لهم عند زيارتهم المدينة المقدسة، وفي أحيان كانت مركزاً للقضاة والنواب(٣) .

---

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، ص٢٠ .

(٢) مباني الحرم القدسي الشريف، ص٢٠ .

(٣) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٥، محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١١٧، عارف العارف، المفصل، ص٢٤٤، ٢٤٥ .

ثالثاً: المدارس الموجودة خارج أروقة الحرم:

أ- المدارس الواقعة في الجهة الشمالية من الحرم:

٢١- المدرسة الصلاحية:

من أقدم المدارس التي أقيمت في بيت المقدس بعد تحريره من الفرنج، فقد ذكر العماد الكاتب الاصفهاني أنَّ صلاح الدين بعد أن رتب أمور المدينة سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) «فاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للعلماء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروف بصندحنة عند باب الأسباط وعيَّن دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفاً وأسدى بذلك إلى الطائفين معروفاً»(١). ويذكر ابن واصل أن كنيسة صندحنة صارت في الاسلام (دار علم)، وكان يدرس بها العلم الفقيه نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠هـ) قبيل أخذ الفرنج للقدس، وبعد الاحتلال الصليبي للقدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، ولما فتح صلاح الدين القدس أعادها مدرسة(٢).

(١) العماد الكاتب، الفتح القسي، ص١٤٥، وانظر: المنهاجي السيوطي، اتحاف الاخصا، لوحة ٧٣ب (مخطوط).
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص٤٠٧.

والمدرسة الصلاحية تقع على بضعة أمتار من سور القدس الشرقي قرب باب الأسباط في الجهة الشمالية من الحرم. وبعد صلح الرملة في سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) زار صلاح الدين المدينة المقدسة، فزاد في أوقاف المدرسة وفوّض النظر في أوقافها للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد[١]. وكتب هذه الوقفية على قطعة رخامية أثبتت على باب المدرسة ومازالت للآن هذا نصها:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، وما بكم من نعمة فمن اللّه هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المومنين، أعز اللّه أنصاره وجمع له بين خير الدنيا والآخرة على الفقهاء من أصحاب الامام أبي عبد اللّه محمد بن ادريس الشافعي رضي اللّه عنه سنة ثمان وثمنين وخمس مئة»[٢].

ومن خلال ما أورده العماد الكاتب نرى أن المدرسة أسست في سنة ٥٨٣هـ، أما كتاب الوقفية فكان بتاريخ ٥٨٨هـ حسب ما

---

(١) العماد الكاتب، المصدر السابق، ص٦١٢.

(٢) Van Berchem,p,92.

ورد في النقش السابق وما ذكره العماد في أحداث سنة ٥٨٨هـ أيضاً. وكانت هذه المدرسة من أجلّ المدارس في بيت المقدس، ولايتولى المشيخة فيها إلا من شهد له بالعلم والفضل. ويتم ذلك بمرسوم سلطاني من القاهرة، وكان لشيخ الصلاحية تقديره واحترامه الخاص لدى الملوك والسلاطين(١).

وبقيت هذه المدرسة تؤدي دورها طيلة العصر المملوكي، ولكن الأتراك تنازلوا عنها في سنة ١٨٥٦م للفرنسيين مكافأة لهم على مساعدتهم اياهم في حرب القرم ضد الروس. فسلمها السلطان عبد الحميد لنابليون الثالث، فمنحها الفرنسيون للآباء البيض الذين جعلوها مدرسة اكليركية. ولكن الأتراك وضعوا أيديهم عليها سنة ١٩١٥م فجعلها جمال باشا مدرسة عصرية لتعليم العلوم الدينية باسمها القديم (الصلاحية). وتوجد لوحة كبيرة في المتحف الاسلامي بالقدس عليها جدول الدروس التي كانت تعطى في الصلاحية آنذاك وتشمل العلوم الدينية واللغوية العلوم الرياضية، والعلوم الحقوقية، والفلسفية والطبيعية، وعلم الاقتصاد والمالية والتاريخ.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أعادها الانجليز في سنة

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة شيخ الصلاحية انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة (مشيخة الصلاحية).

١٩١٧م إلى الآباء البيض، وذلك بعد احتلالهم للقدس وفلسطين. فأعاد الآباء البيض فتح المدرسة الاكليركية فيها وأقاموا بداخلها متحفاً ومكتبة وكنيسة ومازالت باقية حتى الوقت الحاضر[١].

٢٢- المدرسة الكاملية:

تقع خارج المسجد الأقصى في الجهة الشمالية بجوار المدرسة الكريمية، يتوصل إليها عن طريق باب حطة وهي على يسار الطريق الموصلة بين باب حطة وطريق باب حطة وطريق باب الأسباط. واقفها الحاج كامل من أهل طرابلس سنة ٨١٦هـ (١٤١٣م) وصارت فيما بعد داراً للسكنى[٢].

٢٣- المدرسة الدوادارية:

تقع خارج الحرم في الشمال منه قرب المدرسة السلامية على يمين الطريق الموصلة بين باب العتم وطريق باب الاسباط. أطلق عليها (الخانقاه الدوادارية أو دار الصالحين)، وسماها ابن فضل

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٤١.
محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١٢٠.
عارف العارف، المفصل، ص٢٣٨، ٢٣٩.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٢.
محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١٢١.
عارف العارف، المفصل، ص٢٥٢.

اللّه العـمـري (بالرباط العلمي الدواداري)[1]. بناها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد اللّه الدوادار الصالحي النجمي سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) في عـهـد السلطان الأيوبي الملك الصـالح نجم الدين أيوب وتاريخ وثقـهـا سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م)[2]. ونص كتاب الوقف أن تستقبل الخانقاه ثلاثين نفرا من الصوفية والمتصوفة عرباً وعجماً منهم عشرون عزابا وعشرة مزوجون يقيمون في الخانقاه صيفاً وشتاء، ونصّت الوقفية أن الأوقاف التي وقفها على هذا الخانقاه تشمل قرية بير نبالا قرب القدس، وقرية حجلا قرب أريحا أما في نابلس فقد وقف عليها دارا ومصبنة وست حوانيت ووراّقة وحمام الملكة. ونصت الوقفية على وقف ثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين في بيسان وفرناً وطاحوناً في القدس. ثم تعرضت الوقفية إلى أسلوب التدريس والعمل في الخانقاه وعدد من يقومون بالتدريس والتلاوة. ونقش هذه الوقفية على لوح رخامي أثبته على بابها الخارجي نصها مايلي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماه بدار الصالحين العبد الفقير إلى اللّه تعالى عبد اللّه بن عبد ربه ابن عبد الباري سنجر

---

(١) ابن فضل اللّه العمري، المرجع السابق، ص١٥٨.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٩.

الدواداري الصالحي ووقفها ابتغاء وجه اللّه تعالا على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية والمتصوفة من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لايظعنون عنها صيفا ولاشتاء ولاربيعا ولاخريفا إلا الحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام، ووقف عليها قرية بير نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطاحون وعلوهما بالقدس ودار ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاثة بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان ووقف ذلك على هذه الخانقاه وعلى تدريس مذهب الشافعي وعلى شيخ يسمّع الحديث النبوي وقارئ يقرأ عليه وعلى عشر نفر يسمعون الحديث وعشر نفر يتلون كتاب اللّه كل يوم ختمة وعلى مادح ينشد مدح النبي كل ذلك بالجامع الأقصى وذلك في مستهل سنة خمس وتسعين وستمائة بتوليه الفقير إلي اللّه سنجر القيمري عفا اللّه عنه ومن جملة وقف هذه الخانقاه المباركة ووظائفها المذكورة قرية طبرس من قاقون وحمام الملكة من نابلس المحروسة عمل المعلم على يد سلامة المهندس»[١].

---

(١) Van Berchem,p,214.

ومازالت المدرسة المدرسة باقية للآن تقوم بمهمتها التعليمية وتشغلها في الوقت الحاضر (المدرسة البكرية الابتدائية للذكور).

٢٤- المدرسة السلامية:

وتقع خارج الحرم من جهته الشمالية إلى الشمال من المدرسة الدوادارية على الطريق الخارجة من باب العتم والموصلة إلى طريق باب الاسباط. واقفها الخواجا مجد الدين أبو الغدا اسماعيل الاسلامي بعد سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ثم صارت داراً للسكنى ومازالت باقية للآن[١].

٢٥- المدرسة المعظمية:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم مقابل باب العتم، ويتوصل إليها عن طريق باب الاسباط. بناها الملك الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، وهناك لوحة تأسيسية ماتزال موجودة في جدارها القبلي الداخلي منقوش عليها مايلي:

«أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبي بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٢.
عارف العارف، المفصل، ص٢٤٣،
التسجيل بقسم الآثار بالحرم القدسي الشريف.

أصحاب الامام الأعظم أبي حنيفة رضي اللّه عنه وأرضاه، وذلك في شهور سنة أربع عشرة وستمائة للهجرة النبوية تقبل اللّه منه وغفر له وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما»[1]

وقد قام الملك الظاهر ابن الملك المعظم عيسى في زيادة بناء هذه المدرسة من جملتها المنارة التي مازالت باقية للآن في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس المملوكي، وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على جدار المنارة القبلي هذا نصها:

«أمر بعمارة هذه المأذنة المباركة الملك القاهر الناظر بهذه المدرسة غفر اللّه له وتغمد برحمته والده الواقف السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى قدس اللّه روحه في شهور سنة ثلاث وسبعين وستمائة»[2].

وكان الملك المعظم عيسى حنفي المذهب عالماً فاضلاً يجلس إلى العلماء ويناظرهم ويناقشهم ويجزل لهم العطاء، وشجع

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، ص١٤، .Van Berchem,p,171

(٢) .Van Berchem,p,169

عارف العارف، المفصل، ص٢٤١.

العلوم العقلية والدراسات الفلسفية والأدبية والدينية وصنف عدة تصانيف حتى عدوه (مأمون بني أيوب). وقد بنى الملك المعظم عيسى مدرسة أخرى داخل حرم المسجد الأقصى، وتقع في الركن الجنوبي الغربي من صحن الصخرة، سماها ابن فضل الله العمري (المدرسة المعظمية)، وتعرف الآن (بالقبة النحوية). وهي مدرسة صغيرة تتألف من غرفتين وصالة، غرفة في الجهة الغربية تعلوها قبة، وغرفة في الجهة الشرقية سقفها أفقي، وبينهما صالة بسقف أفقي أيضاً. ويصف العمري هذه المدرسة فيقول: (لها بابان يفتحان للشمال، بخدهما ثلاثة أعمدة من الرخام، كل عمود به أربعة في جسد واحد ملفوفة مشعبنة، وتلو ذلك عمودان لطاف وارتفاع بنائها تسعة أذرع من أرض صحن الصخرة)[1].

وقد رتب الملك المعظم لهذه المدرسة إماماً مفرداً يصلي الصلوات الخمس ورتب بها خمسة وعشرين نفرا من طلبة النحو وشيخاً لهم، وشرط أن يكونوا حنفية من جملة طلبة مدرسته التي خارج الحرم. ووقف على ذلك قرية بيت لقيا من عمل القدس، وبداخل قبة هذه المدرسة نقش هذا نصه:

---

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص١٤٥، ١٤٦.

«بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي أنشأ جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة وما يليها من العمارة مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو النصر عيسى ولد مولانا الملك العادل سيف الدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو بكر بن أيوب أعز اللّه أنصارهما وجرى ذلك على يد عبده الراجي عفو ربه الأمير حسام الدين أبي سعد قباز بن عبد اللّه المعظم الوالي بالبيت المقدس الشريف وذلك في شهور سنة أربع وستمائة»(١)

والملاحظ أن تاريخ النقش السابق ٦٠٤هـ، إلا أن ابن فضل اللّه العمري ذكر أن المعظم اهتم بعمارتها سنة ٦٠٨هـ حيث قال: (وعلى سقفها مكتوب أنه اهتم بعمارة ذلك في سنة ثمان وستمائة)(٢).

والمدرسة المعظمية الموجودة خارج الحرم تكاد تكون اليوم

---

(١) مباني الحرم القدسي الشريف، المجلد الثاني، ص٣٣.
(٢) ابن فضل اللّه العمري، المصدر السابق، ص١٤٦.

مندثرة إلا من بقايا بعض جدرانها، وقد رسم برشيم مخططاً تقريبياً لهذه المدرسة في كتابه[1].

ب- المدارس الواقعة في الجهة الغربية من الحرم:

٢٦- المدرسة التشتمرية:

تقع خارج الحرم في الجهة الغربية منه بخط باب الناظر غربي المدرسة الحسنية وبالقرب من رباط علاء الدين البصير والرباط المنصوري. واقفها هو الأمير تشتمر السيفي في عهد الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٩هـ(١٣٥٨م). وقد تحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى دار للسكنى[2].

٢٧- المدرسة الحنبلية:

في الجهة الغربية من الحرم على خط باب الحديد إلى الغرب من المدرسة المزهرية، واقفها الأمير بيدمر الخوارزمي نائب الشام، وكان السلطان الأشرف شعبان قد ولاه نيابة الشام سنة ٧٧٥هـ

---

(١) Van Berchem,p,171. وانظر: الأنس الجليل، ج٢ ص٤٢،
محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١٢١،
عارف العارف، المفصل، ص٢٤٠.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٣،
محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١٢١،
عارف العارف، المفصل، ص٢٤٨.

(١٣٧٣م) عوضا عن الأمير منجك [١]، فعمد إلى بناء هذه المدرسة وفرغ من بنائها سنة ٧٨١هـ(١٣٧٩م)، وقد أصبحت هذه المدرسة فيما بعد داراً للسكنى [٢].

٢٨- المدرسة البدرية:

إلى الغرب من الحرم على طريق باب القطانين وبقرب المدرسة اللؤلؤية واقفها الأمير بدر الدين محمد بن أبي قاسم بن محمد أبو عبد الله الهكاري في سنة ٦١٠هـ(١٢١٣م) على فقهاء الشافعية. وقد استشهد الأمير بدر الدين محمد في إحدى معاركه مع الفرنج على الطور في غور الأردن قرب الناصرة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، فنقل جثمانه إلى القدس ودفن بمدرسته. وصفه أبو المحاسن بأنه (من أكابر أمراء الملك المعظم، كان يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه) [٣]. وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكني وعلى بابها نقش هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة على اصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه الملكة العلية المجاهدة بدرية» [٤].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣ ق١ ص٢٢٤.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٤، عارف العارف، المفصل، ص٢٥٠.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٢١.
(٤) عارف العارف، المفصل، ص٢٤٠.

٢٩- المدرسة اللؤلؤية:

تقع خارج الحرم في الجهة الغربية منه، بجانب المدرسة البدرية ويمكن الوصول إليها عن طريق باب القطانين، واقفها أحد مماليك السلطان الأشرف شعبان الأمير لؤلؤ غازي قبل سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م). تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكني مما أدى إلى تغير ملامحها[١].

٣٠- المدرسة الطازية:

إلى الغرب من الحرم على طريق باب السلسلة بين التربة الجالقية والتربة الكيلانية، ، واقفها الأمير سيف الدين طاز بن عبد اللّه الناصري سنة ٧٦٣هـ(١٣٦٢م). وكان الأمير طاز من خواص السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، تقلد عدة مناصب في الدولة المملوكية منها نيابة حلب. القي القبض عليه بعد أمور جرت له، فسجن وسملت عينيه، ثم أطلق سراحه وأرسل إلى القدس بطالا، فمات بها سنة ٧٦٣هـ ودفن في مدرسته[٢].

ويذكر عارف العارف أن اطلع على سجلات المحكمة

---

(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٦،
التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١١ ص١٥.

الشرعية في القدس واتضح أنه كان ينتدب للتدريس فيها فطاحل العلماء المقادسة. وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكني، ويقطنها الآن جماعة من دار هداية، ويوجد على أحد نوافها لوحة رخامية عليها النقش التالي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذه تربة العبد الفقير إلى اللّه تعالى المقر الأشرف السيفي طاز، توفي رحمه اللّه سنة ثلث وستين وسبعمئة»(١)

٣١- المدرسة الطشتمرية:

وتقع في الجهة الغربية من الحرم، على طريق باب السلسلة وعند ملتقى هذه الطريق بطريق حارة الشرف، وواجهتها الشمالية مطلة على طريق باب السلسلة، وعلى مقربة منها تقع تربة بركة خان والتربة الكيلانية بناها الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبد اللّه الدوادار العلائي سنة ٧٨٤هـ(١٣٨٢م)(٢). وكتب ذلك في نقش أثبته على واجهتها الشمالية نصه:

«أمر بانشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف السيفي طشتمر العلائي بتاريخ سنة أربع وثمانين وسبعمائة»(٣).

---

(١) عارف العارف، المفصل، ص٢٥٠، وانظر: الأنس الجليل، ج٢ ص٤٥.
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٥. .Van Berchem,p,293
(٣) عارف العارف، المفصل، ص٢٥١.

والأمير طشتمر تقلد عدة مناصب في الدولة، منها أتابك العساكر بالديار المصرية ونيابة الشام. أخرجه الملك الظاهر برقوق إلى القدس بطالا، ثم عفا عنه في عهد السلطان الصالح حاجي وولاه نيابة صفد ثم حماه إلى أن مات(١). ودفن جثمانه في مدرسته سنة ٧٨٦هـ. ووصفه المقريزي بأنه «كان خيراً محسناً له مشاركة في فهم العلوم، محباً لأهل العلم، كثير الاجتماع بهم، ويعرف الكتابة ويحب الأدب وأهله»(٢).

وتضم المدرسة قبر ابنه ابراهيم وعلى قبره كتب النقش التالي:

«هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى المرحوم ابراهيم ولد المرحوم طشتمر العلائي، توفي إلى رحمة الله تعالى في يوم الجمعة ثاني شعبان سنة خمس وتسعين وسبعمائة»(٣).

وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكنى، وأصبحت مع الزمن وقفاً لدار الامام مما أدى إلى تغير كثير من معالمها.

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١١ ص٢٠٨، ٢١٢، ٣٠٤.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢ ص٥٢٨.
(٣) عارف العارف، المفصل، ص٢٥١، وعن المدرسة الطشتمرية انظر: جلال أسعد، المدرسة الطشتمرية في القدس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

رابعاً: الخوانق في بيت المقدس:

ومن المؤسسات الدينية التي نالت إهتماماً خاصاً لدى السلاطين في العصر الأيوبي والمملوكي (بيوت المتصوفة)، فتيار التصوف اشتد في بلاد الشام منذ العصر الأيوبي، وبلغ أقصى انتشاره في العصر المملوكي. وانقطع المتصوفة والزهاد للعبادة في بيوت خاصة أقيمت لهم في أمهات المدن الشامية كحلب ودمشق وبيت المقدس، حتى أنها بلغت في العصر المملوكي ٢٩ بيتاً في القدس منها خانقاوتان وستة أربطة و٢١ زاوية.

أما الزاوية فكانت صغيرة الحجم لاتتسع إلا لعدد قليل من المتصوفة والزهاد ومن وظائفها أنها استخدمت كمصلى صغير، أو مكان وخلوة خاصة لأحد الزهاد والمتصوفة ومريديه، حتى أن بعضها عرفت بأسماء هؤلاء الشيوخ مثل الزاوية المهمازية نسبة للشيخ كمال الدين المهمازي، وزاوية الأزرق نسية للشيخ ابراهيم الأزرق، وزاوية البلاسي نسبة إلى الشيخ أحمد البلاسي. ويعضها عرف بأسماء إحدى الطرق الصوفية أو الفقراء مثل الزاوية الحمراء للفقراء الوفائية، وزاوية الهنود للفقراء الرفاعية، والزاوية اليونسية نسبة للفقراء اليونسية. أما الرباط فقد تحول معناه، فالأربطة في الأصل تلك الأماكن التي يرابط فيها المجاهدون وتوضع في الثغور الإسلامية لمراقبة العدو وصد غاراته

البرية والبحرية. ثم تطورت وظيفة الأربطة فأصبحت تمثل أماكن للمتصوفة والزهاد. أما الخانقاه فكانت أكبر حجماً وأكثر استعداداً لاستيعاب أعداد كبيرة من الصوفية، والخانقاة كلمة فارسية مكونة من لفظين: خوان بمعنى الأكل وجاه بمعنى المكان، وكان يطلق على المكان الذي يأكل فيه الملك. ثم أطلقت علي الأمكنة التي أعدت للمتصوفة، ولم تعهد هذه الخوانق في مصر قبل القرن السادس الهجري والذي نشرها في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (فلم تكن الخوانق والأربطة معروفة قبل الدولة الأيوبية)[١]. ثم صار تشابه ومزج بين وظيفة الخوانق والأربطة[٢]، وحتى بين المدارس والخوانق، فنرى أن بعض المدارس أطلق عليها خانقاه مثل المدرسة الدوادارية التي سميت أيضاً (بالخانقاه) وخصصت لثلاثين من الصوفية[٣]، والخانقاه الصلاحية التي أطلق عليها (رباطاً للعلماء الصنوفية)[٤].

وزودت الخانقاه بالمرافق الأساسية كالمطبخ والفرن والحمام ولبعضها حلاق خاص، وتحتوي الخانقاه على عدد من الخلوات،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ص٣٦٤.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص١٥٨.
(٣) Van Berchem,P.214.
وراجع نص الوقفية في (المدرسة الداودارية) من هذا الفصل.
(٤) العماد الكاتب، الفتح القسي، ص١٤٥.

كل خلوة خصصت لأحد الصوفية. ولكل خانقاه شيخ أو ناظر يشرف على شؤون الخانقاه والنظر في أوقافها ومصالحها، وللخانقاه مهمة تعليمية بجانب مهمتها التعبدية، فالمتصوفة هم طلاب علم أيضاً، لذا عين في تلك الخوانق عدد من الشيوخ والعلماء والفقهاء ليقوموا بمهمة التعليم فيها.

ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الخوانق والأربطة خصصت للنساء، فابن شداد ذكر في أعلاقه الخطيرة عن وجود سبعة خوانق للنساء في حلب في القرن السابع الهجري(١)، وذكر المقريزي أن بعض الأربطة خصصت للنساء الأرامل والمطلقات(٢)، فهي أشبه ما تكون بالملاجئ بمفهومنا الحالي، بعد هذا من مفاخر مجتمعنا الإسلامي، فهذه المؤسسات لها وظيفة إجتماعية إلى جانب وظيفتها الدينية.

ومن أهم الخوانق في بيت المقدس:

٣٢- الخانقاه الصلاحية:

أنشأ صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير بيت المقدس سنة

---

(١) وعن الخوانق في حلب ودمشق أنظر:
ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣أجزاء، دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٨م.
ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٢جزء ١٩٥٣-١٩٦٣م.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٢ ص٤٢٨.

٥٨٣هـ (١١٨٧م)، مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، وعين دار البطرك القريبة من كنيسة القيامة للرباط ووقف عليها الوقوف العديدة[١]، وتاريخ وقفها في الخامس من رمضان سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) [٢].

والملاحظ هنا أن الكاتب مزج بين الرباط والخانقاه، فوظيفة الرباط تحولت مع الزمن إلى بيت للصوفية، بينما كان معداً للمرابطة من الرجال للدفاع والجهاد في الثغور الإسلامية المختلفة.

وتقع الخانقاه الصلاحية غربي الحرم بالقرب من كنيسة القيامة عند ملتقى طريق الخانقاه بطريق حارة النصارى، وبداخل الخانقاه مسجد صغير فوق محرابه لوحة رخامية نقش عليها مايلي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارة المجمع المبارك الفقير عيسى بن أحمد بن غانم عفا اللّه عنه

---

(١) العماد الكاتب، الفتح القسي، ص١٤٥،
ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص٤٠٨،
المنهاجي السيوطي، اتحاف الأخصا، لوحة ٧٣ب (مخطوط).
(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٤٧.

ورحم سلفه في أيام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عز نصره في شعبان سنة أحد وأربعين وسبعمائة»[1].

وأول من تولى مشيخة الخانقاه الصلاحية الشيخ القدوة المحقق الملك غانم بن علي بن حسين الأنصاري المقدسي من بني غانم، وهي عائلة عربية مدنية حجازية سكنت بيت المقدس بعد سنة ٥٨٣هـ، واستقروا في حي خاص بجوار الحرم في الجهة الشمالية الغربية منه. وعرف هذا الحي بأسمهم (حارة الغوانمة)، كما عرف أحد أبواب الحرم وهو المؤدي إلي حارتهم باسم (باب الغوانمة)، وكذلك المئذنة المطلة على هذا الباب وعلى حارتهم باسم (مئذنة الغوانمة).

وقد توارث علماء وفقهاء الغوانمة مشيخة الخانقاه الصلاحية، فمعظم شيوخها البارزين كانوا منهم. وظلت هذه المشيخة بأيديهم حتى أواخر القرن التاسع الهجري، ففي سنة ٨٩٨هـ (١٤٩٢م) تنازل الشيخ ناصر الدين محمد بن الشيخ جمال الدين عبد الله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف عن ربع وظيفة مشيخة الخانقاه الصلاحية إلى القاضي شهاب الدين بن المهندس (وبمقتضى هذا النزول من الشيخ ناصر الدين خرجت

(١) Combe, Sauvaget, Wiet, Repertoire Chronologiqued, Epigraphle Arabe, Tome quinzieme, No.5924,p.200.

مشيخة الخانقاه من يد بني غانم وكانت بأيديهم من زمن الواقف الملك صلاح الدين)[1].

والخانقاه الصلاحية مهملة في الوقت الحاضر، فقد استخدمت كبيوت للسكنى، فانسحبت عليها يد الخراب والاهمال، وهي بحاجة إلى ترميم وإصلاح.

٣٣- الخانقاه الفخرية:

تقع في داخل أسوار الحرم في الجهة الغربية الجنوبية منه، على أمتار قليلة من جامع المغاربة، وبابها من داخل الحرم. واقفها القاضي فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن فضل اللّه ناظر الجيوش الإسلامية بالديار المصرية (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)[2]. وذكر أبو المحاسن أن فخر الدين كان نصرانياً وأسلم، فحسن إسلامه وحج أكثر من مرة، وزار القدس وبنى مساجد كثيرة، وبنى مدرسة بنابلس وبيمارستاناً في الرملة[3].

ونعتها ابن فضل اللّه العمري (بالزاوية الفخرية) وذكر أنها بجوار جامع المغاربة وجامع النساء[4]. ثم أصبحت مدرسة

---

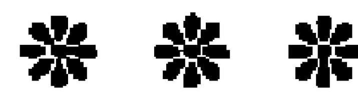
(١) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٦٧.

(٢) الأنس الجليل، ج٢ ص٣٤، محمد كرد علي، المرجع السابق، ص١٤٨. عارف العارف، المفصل، ص٢٤٦.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٩ ص٢٩٦.

(٤) ابن فضل اللّه العمري، المصدر السابق، ص١٥٢.

وتحولت بعد ذلك إلى خانقاه عرفت بالخانقاه الفخرية وبهذه الخانقاه أماكن وخلوات خاصة للمتصوفة، ولم يبق منها في الوقت الحاضر سوى جزء بسيط، فقد هدمت السلطات الاسرائيلية أجزاء كبيرة منها خصوصاً. تلك الواقعة خارج الحرم في جهة حارة المغاربة.



وأرجو أن أنوه هنا بأن هناك العديد من المدارس والزوايا والأربطة لم نشر إليها في هذه الدراسة، فدراستنا اقتصرت على المدارس التي أثبتت الدراسات الحديثة وجودها وبقاءها للآن وحددت أماكنها وعينت مواقعها. فالمدينة المقدسة حوت العديد من المدارس، ولكن بعضها اندثر وزال ولم يستطع الآثاريون معرفة مواقعها وتحديده. وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على فهرس السيد بورغوين للعمارات الإسلامية القديمة القائمة في القدس والصادر عن المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس لعام ١٩٧٧م. بالإضافة إلى أن بعض الدارسين خلطوا بين المدارس والزوايا والأربطة، كالزاوية الختنية والجراحية والمدرسة الاباصيرية (رباط علاء الدين). ونحن هنا ركزنا على المدارس فقط بمعناها المعروف.

وهناك مدارس لم نذكرها ولم تحدد في فهرس بورغوين

منها: المدرسة الفزية، والمدرسة الأفضلية، والمدرسة الحسنية، والمدرسة الطولونية، والمدرسة الوجيهية، والمدرسة البارودية، فمنهجنا هو دراسة المدارس المحددة المواقع في الوقت الحاضر.

أما الزوايا والأربطة المحددة المواقع من العصر المملوكي في فهرس بورغوين فهي: الزاوية الختنية وقف ٥٨٧هـ، الزاوية الجراحية ٥٩٨هـ، زاوية الهنود في القرن السابع الهجري، رباط علاء الدين البصير ٦٦٦هـ، دار الحديث، زاوية الشيخ حيدر ٦٧٤هـ، الرباط المنصوري ٦٨١هـ، الزاوية الكبكية ٦٨٨هـ، الرباط الكرد ٦٩٣هـ، الزاوية المهمازية قبل ٧٤٥هـ، دار القرآن السلامية ٧٦١هـ، الزاوية الأدهمية ٧٦٢هـ، زاوية البسطامية قبل ٧٧٠هـ، الزاوية اللؤلؤية ٧٨١هـ، الزاوية القرمية قبل ٧٨٨هـ، الزاوية الوفائية في بداية القرن التاسع الهجري، الزاوية الظاهرية القرن التاسع الهجري، زاوية الشيخ يعقوب العجمي القرن التاسع الهجري، رباط زمني ٨٨١هـ، دار الخطابة نهاية القرن التاسع الهجري.

* * *

ملاحق البحث مصادره
ومراجعه

الملاحق

١- نسخة توقيع شريف بتعيين شرف الدين قاسم ليقوم بتحصيل الرسوم المفروضة على الفرنج الجرحان القادمين لزيارة بيت المقدس.

٢- نسخة توقيع بتعيين شرف الدين موسى الردادي نائباً لقلعة القدس.

٣- نسخة توقيع بتعيين وال في مدينة بيت المقدس.

٤- نسخة توقيع بتعيين شاد لتحصيل المكوس في كنيسة القيامة.

٥- نسخة توقيع الأمير أبي بكر أمير علم كاشفاً للرملة.

٦- نسخة توقيع بتعيين وال في ولاية نابلس.

٧- نسخة توقيع بتعيين الشيخ شمس الدين بن البرهان الجعبري في مشيخة الحرم الخليلي.

٨- مرسوم شريف بإبطال متحصل قرية مجدل فضيل من الخليل باسم مجلس الأمير الكبير سعد الدين سعود بن محمد السراي.

٩- وثيقة وقف باسم جعفر بن محمد أبي بكر، وقف فيها داره الكائنة في القدس بخط باب العمود على مصالح البيمارستان الصلاحي.

١٠- وثيقة مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي اشترت بموجبها من أخيها الدار الكائنة بباب حطة بالقدس الشريف.

* * *

ملحق رقم (١)

نسخة توقيع شريف بتعيين شرف الدين قاسم ليقوم بتحصيل الرسوم المفروضة على الفرنج الجرجان القادمين لزيارة بيت المقدس من انشاء أحمد بن علي القلقشندي (من كتاب صبح الأعشى جزء ١٣ ص٤٦-٤٧).

رسم بالأمر الشريف- لا زال عدله الشريف لمال الفيء بين ذوي الاستحقاق قاسماً، وفضله العميم لأولى الفضل في سلك الصّلات ناظماً، ومعروفة المعروف لمواقع البّر بؤمّ عالماً ويبيت غانماً- أن يستقرّ لمجلس القاضي فلان الدين على الفرنج الجرجان الواردين لزيارة قمامة بالقدس الشريف كذا وكذا: لما اشتمل عليه: من مبين العلم ومتين العمل وجميل السّيرة، واجتمع لديه: من طيّب الذكر وجميل الأثر وصفو السّريرة، ولإقامته بالمسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة التي تشدّ الرجال إليها، وإحدى القبلتين المعوّل في أول الإسلام عليها، ومجاورة الصخرة المعظّمة، والآثار الشريفة والأماكن المكرّمة، وقيامه بما يجب من

الدعـاء لدولتنا القـاهرة، والابتـهـال إلى اللّه تعـالى بدوام أيامنا الزاهرة.

فليتناول هذا المعلوم مهناً ميسّراً، وليرج من كرمنا الوافر فوق ذلك مظهراً، وليشهر سلاح دعائه بتلك الأماكن الشريفة على أعداء اللّه وأعداء الدين، ويرمهم بسهام الليل التي لاتخطئ إن شاء اللّه تعالى الطّغاة المتمردين، فبذلك يستحق هذا السهم من الفيء حقاً، ويعدّ من المقاتلة الذّابين عن الإسلام صدقاً، وليقم على جادّة الاستقامة في الدّين وليكن مما سوى ذلك بريّاً، ويقابل هو مثله إنعامنا بالشكر يتلو عليهم لسان كرمنا فكلوه هنيّاً مريّاً، والخط الشريف أعلاه....

* * *

ملحق رقم (٢)

نسخة توقيع بتعيين شرف الدين مرسى الردادي نائباً لقلعة القدس، من انشاء الشيخ جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٢٥-٣٢٦).

رسم... لازالت ولاة أيامه عالية الشرّف، سامية المستشرف آوية من جنّات خير الدنيا والآخرة إلى غرف من فوقها غرف- أن يستقر المجلس السامي... علماً باهتمامه الوفي، واعتزامه المتيقظ إذا نام حدّ المشرفي، واستناداً إلى رأيه الذي يقول نجمه الطالع: «ماأبعد العيب والنقصان من شرفي»... وإرشاد سعيه إلى أن اتخذ من الأرض المقدسة داراً، ومن حرمه الشريف جاراً، واتقاد ذهنه وشجاعته اللذين آنس بهما من جانب الطّور ناراً، وكيف لا؟ وقد قالت همته: يا موسى أقبل ولاتخف، وأخرج يدك البيضاء في النيابة تكن أحق من اغترف بها الاحسان واعترف.

فليباشر ما فوّض إليه مباشرة يعلو شرف إسمه ومسماه، ويبدو للاختيار والاختبار فضل التقدم الذي إذا بدا له كفاه، وليجر بهذه الرتبة رأياً حسن الأحكام، وليواظب على حفظ هذه القلعة التي فتح بها عليه فإنها من أعظم فتوح الإسلام، وليمدّ عليها من كفايته سوراً حول سورها، وليتفقد رجالها وعددها تفقّد الشهب في ديجورها، وليردّ عنها بعزمه الردّادي ّعيون الأعادي الزّرق حتى لا يراع في أرض الحرم ولا حمامات طيورها. وليشكر نعمة أوته إلى هذه المنازل الطاهرة، وليقرب ليد آمله طلب خير الدنيا والآخرة. وليقدّم من الوصايا تقوى اللّه التي عن أصلها تتفرع نعمه الباطنة والظاهرة، حتى يجعل له في الوادي المقدس ربعاً مأنوساً، وجمعاً محروساً، وأحاديث حسنة تقول لمستمع مثلها في الآفاق: «هل أتاك حديث موسى». واللّه تعالى يمده بإعانته، ويلهمه شكر مارزق من فضل مكانه ومكانته، بمنّه وكرمه.

* * *

ملحق رقم (٣)

نسخة توقيع بتعيين وال في بيت المقدس، من انشاء جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٣٠-٣٣١).

رسم بالأمر... لازال يشمل بظلّه وفضله، ويجمّل باحسانه وعدله، وينقل شمس الولاة من البرج الظّاهر إلى مثله- أن ينقل فلان من كذا إلى ولاية القدس الشريف: علماً بكفايته التي تقدمت، وشهامته التي تحكمت، وأقامته التي سلمت فيما سلمت، وهمّته التي وضحت شمساً فلا تنفس، وقالت لقيامه في المصالح: «أخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس».

فليباشر هذه الولاية مباشرة، تمحو بضياء شمسه ظلماً وظلاماً، وتقول لنار الحوادث في المشاهد الجليلة: «يا نار كوني برداً وسلاماً»، مجتهداً فيما هو بصدده، عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده، ناهضاً بأمور الديوان جليها وخفيها، وعبء الهمات حافلها وحفيّها، مستزيداً بالشكر لمبادئ النعم، قائلاً في محل البلدين المباركين: ماسرت من حرم إلاّ إلى حرم.

ملحق رقم (٤)

نسخة توقيع بتعيين شاد لتحصيل المكوس من كنيسة القيامة، من انشاء ابن نباته (من كتاب صبح الأعشى ج١٢ ص٣٣٦-٣٣٧).

رسم بالأمر- بسط الله تعالى على الأمم مهابته وظلّه، وبأسه وفضله، ووجّه إليه آمال الخلق من كلّ قبله، وأعلى آراءه التي يقال لعدلها: «لقد جدت حتى جزت في كلّ ملّه»- أن يرتّب... مضافاً لما بيده، واستناداً إلى صحيح خبره في الكفاءة وعلو سنده، وارتياداً لهممه التي إن رواها مسلم عن طوعه رواها نصراني عن تجلّده، وسكوناً إلى حركته التي تحصّل مالاً، وتصل إلى مالا، وتستخرج الوفر من مكمنه، وتأخذ الحق (من) قدّام يدي الماثل ومن خلف أذنه، وعلماً أن ما لمتحصل قمامة مثل عزمه المختار، ورفقه الذي يستنزل درّ القصد المدرار، واجتهاده الذي زرعه المستنهضون فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار.

فليباشر هذه الوظيفة بشدّة ولين يجعل كلّ واحد منهما في موضعه ومقامه، وحقّ منير يجعل سبت نور كلّ لياليه وأيامه، وأمانة مدلّه، وكفاءة مظلّه، وصيانة توجب مزيد الخير إذا له، ومهابة إذا أدخلت مستخرج قمامة أصلحته وجعلت أعزّه أهلها أذلّة، لايثني همه النفيسة، ولايلتفت - كما يقال- لتبخير الكنيسة، بل يستعمل فراسة تروع من حمل عن أداء الحق بهتاناً، ومناقشة من حمل عن أداء الحق بهتاناً، ومناقشة تكشف عن جبال التجلّد أكناناً، ورأفة مع ذلك بالظاهري العجز: ذلك بأن منهم. قسيسين ورهباناً، ومتابعة للضرائب القديمة لايصرف عنها، واستخلاص ما على الرأس حتى يقال: «ليس تحت الزرقاء أخضع منها»، عاملاً بتقوى اللّه تعالى فإنّ أهل معاملته أهل ذمة، مجتهداً في استحقاق ما يترشح له من ولايات الأمور المهمة.

* * *

ملحق رقم (٥)

نسخة توقيع بتعيين الأمير أبي بكر أمير علم كاشفاً للرملة وذلك في عهد الدولة الظاهرية برقوق (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣١٧٩٣١٥).

الحمد للّه الذي قلّد أجياد المجاهدين، سيف نصره، وأكد بعزائم أهل اليقين، حماية حوزة الإسلام وصيانة ثغره، وجعل السنة أسنة المرابطين في فم الثغور زيناً إذا ازدان بغرّة بدره، وأنزل بأعداء الدين قوادح نقمه وقوارع قهره.

أحمده أن حمى بأولي النجدة والبأس للمسلمين جمى، وأشكره على ما همع من صيِّب نعمائه وهمى، وأشهد أن لاإله إلا اللّه وحده لاشريك له شهادة إتخذها عند اللّه ذخراً، وأرجو بها في العقبى أجراً، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله الذي أيد يده بالسيف وأمده أيداً، وعلى آله الذين حلّى بهم للإسلام جيداً، وصحبه الذين جلا ببوارق صفاحهم، وخوارق رماحهم، غمّم المجال، وغمم القتال، فلم يهمل الأعداء ولم يمهلهم رويداً.

وبعد، فإن أولى من جعل في نحر البحر هماماً صارم [1]، وأشد من قاطع أعداء الدين وصارم، من تضرب بشجاعته الأمثال، ويورد في صدور الأبطال صمّ الأسل النّهال، ويحمي حمى الثغر فلايدع عدواً ولايرهب نهباً، ويرقى رقاب الكفر فيؤمنون وإن كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً.

ولما كان الجناب الكريم فلان - أدام الله تعالى نعمته- هو الذي أخلص في الطاعة، ونصح سلطانه حسب الطاقة والاستطاعة -رسم بالأمر الشريف العالي- لازال سيف عدله ماضياً، وكلّ بحكمه راضياً -أن يستقرّ الجناب المشار إليه كاشفاً بالرملة المعمورة، على عادة من تقدمه في ذلك.

فليباشر ذلك معمّراً تلك البلاد بعدله، مجتهداً على إيصال الحقّ إلى أهله؛ وليتخذ الشرع الشريف إماماً، وليتوخ أوامره ونواهيه نقضاً وإبراماً، وليقف عند حدوده المشروعة، ولايتعدّها: ومن يتعدّ حدود الله فيده من برّ الإيمان منزوعة، وليلن جانبه للرّعيّة، وليحملهم من العدل والإنصاف على المحجة الواضحة الجلية، (فإنهم الرعية الضعفاء الذين أنعم الله عليهم بتفويض

---

(١) وقف عليه بلغه ربيعة.

أمورهم إلينه)(١) وليعتمد فيهم قول النبي : «اللهم من ولي من أمور أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه».

والوصايا كثيرة وأهمها التقوى فليلازم عليها فإنها تحفظه، وبالسيادة والسعادة تلحظه، والله تعالى يكمّل توفيقه، ويسهل إلى نجح المقاصد طريقه، والاعتماد في معناه، على الخط الكريم أعلاه.

* * *

(١) الزيادة مأخوذة مما تقدم.

ملحق رقم (٦)

نسخة توقيع بتعيين وال في ولاية نابلس من انشاء جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٢٢-٣٢٤).

أما بعد حمدالله على ما هنأ من المواهب، وهيأ من عليّ المراتب وأنجز من وعود السعود بعد مطال المطالب، وزيّن من سماء الوظائف عند ازهائها بزينة الكواكب، وعمّر من صدور الولاة والولاية بعلى تثنى عليه الرعية «ولو سكتوا أثنت عليه الحقائب». والصلاة على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي جرد لنصر الايمان حدّه القاضب، وحزبه الغالب، وندب لإحياء الحق عليه بعدما همّت به النوادب، وعلى آله وصحبه الذين هم في الممات جمال الكتب كما كانوا في الحياة جمال الكتائب، صلاة تتعطر بنفحاتها الصّبا وتتقطّر من خلف سراها الجنائب- فإن عقائل الولايات أولى بخطبة أكفائها، ورغبة السراة من ذوي اصطفائها، ونسبة من يقوم للأمور المعلّلة بقانونها وشفائها.

ولما كانت بلد نابلس المحروسة من أعلى عقائل البلاد قدراً، وأمر الجهات أمراً، وأسرى الولايات محلاً وذكراً، وأوفى النّواحي من زمان بني أيوب على تكاليف الملك صبراً، وأنزه البقاع التي لو رآها الملك المصري لما استغلى غرطة الشام بشبرين من شبراً، بلد إعارته الحمامة طوقها وحمّلت الثناء فوق طوقه، ونجم نبات واديها الزهر حتى تساوي النجمان من تحته ومن فوقه- تعيّن أن يختار لولايتها من تعيّن ولاؤه، وتمكن في الرّتب علاؤه، وتبين في مصالح الولايات احتفاله واحتفاؤه، وشهر وفاؤه بالخدمة فلاشرف بسعى إلا له منه شينة وراؤه وفاؤه، من شهدت السواحل الشامية في مباشرته أنه أجرى منها المال بحراً، وأفاض الوصف دراً، وشهدت الزكاة -وديوانها المادح- أنه أفلح من زكاها خيراً وخبراً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يرتّب فلان... علماً بأنه الأوحد الذي جمع الأوصاف المتقدمة، وأسمع من المحامد نتيجة لها من كلا قوله وفعله مقدمة، وأطلع في آفاق الوظائف كنجوم الجوزاء الثلاثة راية وسيفه وقلمه، واطلّع على محاسن التدبير فكان في رعايا بلده ممّن تواصوا بالصبر وأوصوا بالرحمة، وأنه الكافي الذي إذا ولي ثمّر، وإذا صال على المفسدين دمّر، وإذا شامت المهمات بارق عزم، أسبل وإذا سامت قواه شمّر، وأنه

الأمين إذا تصرْف، والمأمون إذا تعرّف، والشّجاع إذا تحصّنت البلاد بنسبه الحصني: فسواء في شمول الأمن ما توسط منها وما تطرّف.

فليباشر هذه الولاية المباركة بعزم يوضّح بشرها، وينجح أمرها، ويقيم في خطبه علاه عذرها، وحزم يثمر مالها وغلالها، وينقع غلّتها ويضع أغلالها، وبأس يدع المفسدين من سيفه أو قيده في طوق أوحجل، ويذر السارق والمارق يشير بلاكفّ ويسعى بلا رجل، مشيداً لنواحيها بالترغيب والترهيب على أوثق المباني، مصلحاً بين أهل الأهواء حتى لايضر قول القائل: «رفيقك قيسي وأنت يماني»، متفقداً من الأحوال كلّ جليل وحقير، ناهضاً في تلقّي المهمات على قدم التقدم بالعزم الأثير، جاعلاً من لدى محجة عمله لصلاح العشيرة نعم العشيرة، عاملاً بتقوى اللّه تعالى في كلّ أمر وإليها بالحديث يشير.

* * *

ملحق رقم (٧)

نسخة توقيع بتعيين الشيخ شمس الدين بن البرهان الجعبري في مشيخة الحرم الخليلي من انشاء جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى ج١٢ ص٤١٩- ٤٢٠).

رسم بالأمر الشريف -أعلاه اللّه تعالى، وبسط عدله الذي لايبلغه الواصف ولو تغالى، وسرى لأولياء نبي الأولياء ببرّه الذي تسنّن بسنه الغيث ثم توالى - أن فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله من ذوي الأناة والافادة، وكفاة المناصب الذين على سعيهم الحسنى وعلى الدّولة تصل الزّيادة، وليسلك في الأشغال عادة نطقه الأحسن، وليعامل طلبته في المباحث بغير ما ألفوا من الخلق الأخشن، وليعلم أنّه قد جمع بين بره وتربه الأم كي تقرّ عينها ولاتحزن، فليسرّها بنبله، وليبرها بفضله، وليوفر السعي إليها كل وقت في المسير، وليفسر أحلام أملها فيه فمن المفردات علومه التفسير، وليحسن لتلامذته الجمع، وليحم حمى رواياتهم من الخطأ ولاعجب أن يحمي حمى السبع، تالياً كلام ربه كما أنزل

وحسبه، داعياً بنسب قراءته إلى ابن كعب فحبذا نسبه المبارك وكعبه، ناصباً بمنظر شخصه أشخاص أمثاله الأول بعدما ضمهم صفيح اللّحد وتربه، حتى يميس «الكسائي» في برد مسرته الفاخر، ويفتح عيون «حمزة» على زهرات روض عبق المباخر، ويترنّم ورشان «ورش» في الأوراق على بحره الزاخر، ويظهر بفضله ذكر «الشّاطبيّ» فيكون «القاضي الفاضل» رحمه اللّه قد أظهره في الزمن الأول «القاضي الفاضل» أجلّه اللّه قد أظهره في الزمن الآخر، وتقوى اللّه تعالى كما علم ختام الوصايا البيض فليتناول مسكها الذي هو بشذا المسك ساخر، واللّه تعالى ينفع بعلوم صدره الذي ما ضاق عن السؤال فملّه، ويمتع بعلّو قدره الذي إن لم يكن هو لفضل الثناء فمن له.

* * *

ملحق رقم (٨)

نسـخـة المرسـوم الأشـرفي الناصـري الذي أبطل السلطان الأشرف شعبان بموجبه ما هو مقطع من الجوالي بمجدل فضيل من الخليل باسم الأمير سعـد الدين مسعـود بن محمـد السـراي سنة ٧٦٧هـ (من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس رقم ٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المرسـوم بـالأمـر الشـريف العـالي المولوي السلطاني الملكي الأشـرفي الناصـري أعـلاه اللّه تعـالى وشـرفـه وأيدَّه في الآفـاق وصرفه أن يبطل حكم ما هو مقطع من الجوالي بمجدل فضيل من الخليل عليه السلام باسم مجلس الأمير الأجلِّ الكبير سعد الدين مسعود بن محمـد السراي أحد أمراء العشرات بدمشق المحروسة مما كان مرتباً باسم خدام الحرم الشريف بالقدس الشريف في تقادم السنين وإلى آخـر وقت ولايمكن المذكـور ولاأحـداً ممن تقـدم من

التعرض إلى ما هو مستقر بيد خدام الحرم الشريف بمقضى الورقة المشمولة بالخط الشريف عن ورود مطالعه نايب السلطنة الشريفة بالشام المحروسة .

حسب الأمر الشريف شرف الله وعظمه

بعد الخط الشريف شرفه الله وعظمه

رابع جمادي الآخرة سنة ٧٦٧هـ

ملحق رقم (٩)

وثيقة وقف باسم جعفر بن محمد بن أبي بكر وقف فيها داره الكائنة في القدس بخط باب العمود على مصالح البيمارستان الصلاحي تاريخ ٥ صفر سنة ٧٦٨هـ (وثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس).

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما أوقف وحبس وسبل وحرر وأبد وتصدق به جعفر بن محمد بن أبي بكر السعاد من القدس الشريف تقرباً إلى اللّه عز وجل يوم يجزي اللّه المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين ما هو وملكه وتحت تصرفه إلى حال الوقف وهو جميع عمارة الدار الكائنة بالقدس الشريف بخط باب العمود، حدها بكمالها من القبلة دار ورثة حسين عريف سوق التجار بالقدس الشريف كان، ومن الشرق دار محمد عرف بأي كدس ومن الشمال دار داوود رمكي وبها من دار ورثة الحاج محمد الطروفي، ومن الغرب دار

ورثة محمد النقيب، وبها من دار الحاج صالح الرملي عرف بأي ولأبيه وقف لكل جميعه بجميع حدوده وحقوقه وما يعرف به وينسب إليه على نفسه مدة حياته ثم من بعده على مصالح البيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً وحبساً دايماً محللاً لايباع ولايوهب ولايملك بوجه من وجوه الملكان أبداً ما دامت الأرض والسماوات وأخرج الواقف هذا الوقف عن ملكه وأبان عن حيازته وجعله وقفاً على ما سمح أعلاه على أن الناظر بالملك من ريعه بعمارته وترميمه واصلاحه وما فيه، ثم ما فضل بعد ذلك يصرف على الوجه المشروح أعلاه ووقع أجر الواقف على اللّه تعالى يوم القيامة يوم الحسرة والندامة يوم (؟) يوم عطش الأكباد، يوم يكون اللّه هو الحاكم فيه بين العباد ممن بدله بعد ما سمعه ما بها إثمه على الدين يبدلونه أن اللّه سميع عليم، وذلك شهد عليه في خامس شهر صفر من سنة ثمان وستين وسبع ماية.

* * *

ملحق رقم (١٠)

وثيقة مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي، اشترت بموجبها من أخيها الدار الكائنة بباب حطة بالقدس الشريف مؤرخة في ٤ رجب سنة ٧٨٥هـ (وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس).

بسم الله الرحمن الرحيم

اشترت المرأة الكامل خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي زوجة الحاج علي أبي طالب الطباخ المشرقي بالقدس، وبمالها من نفسها من شقيقها محمد مباعها صفقة واحدة بأمره لوارث الشرعي له من تركة والده، ومن جميع عمارة البلد المفروز بالقسمة بينه وبين أخوته من جهة الدار الكاينة بباب حطة بالقدس، وفي حكر المدرسة الصلاحية بالقدس حد البلد المذكور من القبلة بيت أخيه عبد العزيز وهو من القسمة، ومن الشرق ساحة الدار ومن الشمال قسمة المشترية من الدار المذكورة ومن

الغرب خان العناية وقف المدرسة المذكورة بجميع حدوده وحقوقه وما يعرف به وينسب إليه شرعاً (لبقاً؟) صحيحاً شرعاً بثمن مبلغه من الدراهم مقابلة يومها بالشام المحروسة مايتاً درهم وخمسون درهماً حالة مقبوضة بيد البالغ المذكور يزيد بذلك وبيد المشترية من الثمن المذكور بترك شرعه وسلمت المشترية المذكورة المبلغ المذكور سالماً شرعاً وهو بعد النظر والمعرفة والمعاملة الشرعية والتعرف ماله بدار عبد الرحمن منها وعلمت المشترية له على (؟) الحاملة للبنا البلد المذكور أجله في كل منه يمضي من تاريخه ثلاثة دراهم وربع درهم (وحلت من تاريخه) على المشترية ورضيت بذلك .

رابع من رجب الفرد سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

شهد عليها بذلك	**شهد عليها بذلك**
أحمد التويجي	**محمدعبد الرحمن**

# # #

المصادر والمراجع

١ - الوثائق والمخطوطات .

٢ - المصادر العربية المطبوعة .

٣ - المراجع العربية والأجنبية المعربة .

٤ - المصادر والمراجع الأجنبية .

١- الوثائق والمخطوطات

١- وثائق المتحف الاسلامي بالقدس وتبلغ ٧٥٠ وثيقة من العصر المملوكي مكتوبة على رقاع من الرق ويحتفظ بها المتحف الاسلامي في المسجد الأقصى بالقدس.

٢- ابن الامام (شمس الدين أبو العباس) تحفة الأنام في فضائل الشام، مخطوط، دار الكتب المصرية.

٣- ابن بهادر (محمد بن محمد بن بهادر المؤمني) فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، مخطوط دار الكتب المصرية.

٤- ابن حبيب (الحسن عمر بن الحسن بن عمر) درة الأسلاك في دولة الأتراك، ٣مجلدات مخطوط دار الكتب المصرية.

٥- ابن النابلسي (عبد الغني بن اسماعيل): الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية.

٦- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣ أجزاء، مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة نسخة مصورة بمكتبة جامعة الاسكندرية.

٧- البدري (تقي الدين أبو بكر محمد بن عبد اللّه): نزهة الأنام في محاسن الشام، مخطوط جامعة برنستون رقم ٢٦٤.

٨- الخالدي (بهاء الدين محمد بن أحمد) : كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى ديوان الانشا، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة.

٩- السلامي (شهاب الدين أحمد): مختصر التواريخ، مخطوط دار الكتب المصرية.

١٠- العماد الكاتب (أبو عبد اللّه محمد بن صفي الدين) : البرق الشامي، نسخة مصورة عن نسخة الخزانة العامة بالرباط، مكتبة جامعة الاسكندرية.

١١- المنهاجي السيوطي (أبو عبد اللّه محمد بن أحمد المنهاجي) : اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط جامعة برنستون رقم

١٢- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الارب في فنون الأدب، جزء ٣١ مخطوط دار الكتب المصرية.

٢- المصادر العربية المطبوعة:

١٣-ابن الأثير (علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ ١٠ أجزاء، ط٢ دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.

١٤- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة، ١٩٦٣م.

١٥- ابن اياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٦- ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٧- ابن أبي اصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

١٨- ابن بطوطة (أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه اللواتي الطنجي): رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.

١٩- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

٢٠- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن الجوزي): فضائل القدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٩م.

٢١- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥أجزاء، تحقيق محمد سعيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م.

٢٢- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن ابراهيم) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦أجزاء، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦م.

٢٣- ابن دانيال : خيال الظل وتمثيليات دانيال، تحقيق ابراهيم حمادة، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٤- ابن سلام (أبو عبيد القاسم بن سلام) : كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٥- ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م.

٢٦- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد) : فوات الوفيات، ٢جزء، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة، ١٩٥١م.

٢٧- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٨- ابن شداد (عز الدين علي بن ابراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢جزء، بيروت، ١٩٥٣-١٩٦٣م.

٢٩- ابن صرصري (محمد بن محمد): الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برينر، كاليفورنيا، ١٩٦٣م.

٣٠- ابن الصيرفي (علي بن داود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٣أجزاء، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٤م.

٣١- ابن طولون (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، ٢جزء، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٢- ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٣- ابن عربي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي): العواصم من القواصم، القاهرة، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

٣٤- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد): زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ٣أجزاء، دمشق، ١٩٥١- ١٩٦٨م.

٣٥- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤م.

٣٦- ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، طالقاهرة، ١٣١٢هـ.

٣٧- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧, ٨, ٩، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩- ١٩٤٢م.

٣٨- ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي): تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، الجزء الثالث، دمشق، ١٩٧٧م.

٣٩- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد): ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.

٤٠- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، ١٢ جزءاً، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.

٤١- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥أجزاء تحقيق جمال الدين الشيال

وحسنين ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، ١٩٥٣- ١٩٧٧م.
٤٢- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢جزء في مجلد، ط دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ).
٤٣- أبو الفلاح (عبد الحي بن العماد الحنبلي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨أجزاء، القاهرة، ١٣٥٠- ١٣٥١هـ.
٤٤- أبو الفداء (الملك المؤيد اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين): تقويم البلدان، مطبعة المثنى، بغداد، ١٨٥٠م.
٤٥- أبو المحاسن (يوسف بن تغرى بردي): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦جزءاً، القاهرة، ١٩٣٢- ١٩٧٢م.
٤٦- الادريسي (الشريف محمد بن العزيز): نزهة المشتاق، القسم الخاص ببلاد الشام، بون، ١٨٨٥م.
٤٧- بنيامين بن بونه الأندلسي: رحلة بنيامين ٥٦١-٥٦٩هـ نقلها إلى العربية عزاز حداد، بغداد، ١٩٤٥م.
٤٨- الحنبلي (أبو اليمن مجير الدين الحنبلي): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢جزء في مجلد، ط. المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.
٤٩- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين): طبقات

الشافعية الكبرى، ط٢ على الأوفست، دار المعرفة، بيروت (بدون تاريخ).

٥٠- البكي معيد النعم ومبيد النقم، ليدن، ١٩٠٨م.

٥١- السبكي (تقي الدين علي بن عبد الكافي): التمهيد فيمايجب فيه التحديد، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١م.

٥٢- سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، نسخة مصورة بشيكاغو- أمريكا (بدون تاريخ).

٥٣- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢جزءاً، القاهرة، ١٣٥٣-١٣٥٥هـ.

٥٤- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): حسن المحاضر في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٦٨م.

٥٥- شافع بن علي (ناصر الدين شافع بن علي): حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

٥٦- الصفدي (صلاح الدين خليل بن آبيك): الوافي بالوفيات، الجزء الثاني، ط٢، فسبادن، ١٩٧٤م.

٥٧- العماد الكاتب (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥٨- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.

٥٩- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف): أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت (بدون تاريخ).

٦٠- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد): صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط مصورة عن الطبعة الأميرية، ١٤ جزءاً، القاهرة (بدون تاريخ).

٦١- الماوردي (أبو الحسن بن محمد بن حبيب): الأحكام السلطانية، ط دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٦٢- مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، ١٩٢٠م.

٦٣- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ١ و٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤-١٩٤٢م، ٣ و ٤ تحقيق سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٣م.

٦٤- المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط)

ط بولاق سنة ١٢٧٠هـ صورة بالاوفست عن دار الكتاب اللبناني (بدون تاريخ).
٦٥- المقريزي: النقود الاسلامية، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ.
٦٦- المقريزي: اغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، القاهرة، ١٩٥٧م.
٦٧- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢ ليدن، ١٩٦٧م.
٦٨- ناصر خسرو سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م.
٦٩- النعيمي (عبد القادر محمد بن عمر): الدارس في تاريخ المدارس، ٢ جزء، دمشق، ١٩٤٨م.
٧٠- نظام الملك الطوسي: ، سياست نامة (سير الملوك) ترجمة يوسف بكار، دار القدس، بيروت، ١٩٨١م.
٧١- النويري الاسكندراني (محمد بن قاسم بن محمد): كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق عزيز سوريال، ٦ أجزاء، الهند، ١٩٦٨-١٩٧٣م.
٧٢- ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان، ط دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

* * *

٣- المراجع العربية والأجنبية المعربة:

٧٣- أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧٤- أحمد ابراهيم: أحكام الوقف في الاسلام، القاهرة، ١٩٣٨م.

٧٥- أحمد رمضان أحمد: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام، القاهرة، ١٩٧٧م.

٧٦- أحمد صادق الجمال: الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

٧٧- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩م.

٧٨- احسان عباس: الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

٧٩- الأبنية الأثرية في القدس، عن المدرسة البريطانية لعلم الآثار بالقدس، القدس، ١٩٧٧م.

٨٠- جلال أسعد ناصر: المدرسة الطشتمرية في بيت المقدس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

٨١- جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، دار الكتب الجامعية، الاسكندرية، ط٣، ١٩٧١م.

٨٢- حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.

٨٣- درويش النخيلي: فتح الفاطميين للشام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٩م.

٨٤- ديماند: الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، ط٢، القاهرة، ١٩٥٨م.

٨٥- رشاد الامام: مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م.

٨٦- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٢م.

٨٧- سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

٨٨- سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٣م.

٨٩- سعيد عبد الفتاح عاشور: بعض أضواء جديدة على مدينة

القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

٩٠- سمير شما: النقود الاسلامية التي ضربت في فلسطين، دمشق، ١٩٨٠م.

٩١- سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروف الصليبية، دار الفكر، ط٣، ١٩٧٥م.

٩٢- السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، دار المعرفة بمصر، الاسكندرية، ١٩٦٧م.

٩٣- السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠م.

٩٤- عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

٩٥- عبد الحميد السائح: أهمية القدس في الاسلام، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٠م.

٩٦- عبد العزيز الدوري: نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، فصلة من مجلة المجتمع العراقي، بغداد، ١٩٧٠م.

٩٧- عبد العزيز الدوري : النظم الاسلامية، ج١ مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠م.

٩٨- عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس، ج١، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٦١م.

٩٩- عفيف بهنسي : جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤، شباط، ١٩٧٩م.

١٠٠- فالتر هنتش : المكاييل والأ . ٣٣٣وزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠م.

١٠١- كامل العسلي : معاهد بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

١٠٢- لي سترانج : فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة محمود عمايرة، عمان، ١٩٧٠م.

١٠٣- مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لاصلاح وإعمار الصخرة المشرفة بالقدس، المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠٤- محمد عبد القبيسي : أحكام الوقف في الشريعة الاسلامية ، ٢جزء، بغداد، ١٩٧٧م.

١٠٥- محمد كرد علي: خطط الشام، ٦أجزاء، ط٢دار القلم، بيروت، ١٩٧٠م.

١٠٦- محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد السادس (النثر) القاهرة، ١٩٦٤م.

١٠٧- محمود زايد: دراسة للتقسيمات الادارية في فلسطين من خلال رحلة دي لابروكييه ١٩٣٢م، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

١٠٨- ماير الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيني، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٠٩- مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٩ القسم الخاص ببيت المقدس، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥م.

١١٠- ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرين، ط٢ مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٥م.

١١١- نقولا زيادة: فيلكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

١١٢- يوسف درويش غوانمة: تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم السياسي)، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩ .

١١٣- يوسف درويش غوانمة: تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري) وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م.

١١٤- يوسف درويش غوانمة: عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للطباعة والنشر، عمان، ١٩٧٩م.

١١٥- يوسف درويش غوانمة: علماء وفقهاء محافظة اربد (نيابة عجلون) منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٠م.

١١٦- يوسف درويش غوانمة: امارة الكرك الأيوبية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٠م.

١١٧- يوسف درويش غوانمة: غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

١١٨- يوسف درويش غوانمة: عمان في التاريخ الاسلامي الوسيط، بحث في ندوة الحضارة الاسلامية، جامعة الاسكندرية، تشرين أول ١٩٧٦م.

١١٩- يوسف درويش غوانمة: الأردن في استراتيجية صلاح الدين، بحث في مجلة أفكار، العدد ٤٢ كانون أول ١٩٧٨م.

١٢٠- يوسف درويش غوانمة: دراسة في تاريخ مدينة الصلت (السلط) بحث في مجلة أفكار، العدد ٤٣ كانون ثاني ١٩٧٩م.

١٢١- يوسف درويش غوانمة : القرية في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي (في ضوء وقفية قرية آدر)، بحث في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، أكسفورد آذار، ١٩٨٠م.

١٢٢- يوسف درويش غوانمة : بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى، بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) عمان، ١٩٨٠م.

١٢٣- يوسف درويش غوانمة : شخصيتان في تاريخ فلسطين (أرناط وبيجن) دراسة مقارنة، مجلة أفكار، العدد ٥١، ٥٢ كانون أول ١٩٨١م.

١٢٤- يوسف درويش غوانمة : أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس، بحث في مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الرابع، نيسان، ١٩٨١م.

١٢٥- يوسف درويش غوانمة نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، بحث في الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب ١٩-٢٤ أيلول ١٩٨١م.

١٢٦- يوسف سعيد النتشه : التربة الكيلانية، دراسة رقم (٢) عن دائرة الأوقاف الاسلامية، بالقدس، ١٩٧٩م.

٤ — المصادر والمراجع الأجنبية :

1 ATIYA,
The Crusade in Late middle ages, New York, 1970

2 AYALON, (D)
Aspects of the Mamluk Phenomenon, From Der Islam, Band 53, 54, Berlin, 1976.

3 BAEDEKER, (K.)
Jerusalem and its Surroundings, London, 1976, Reprinted 1973.

4 BARTON, (I.)
The Inner Life of Syria, Palestine and the Holy Land, 2 vols, London, 1976.

5 BENVENISTI, (M.)
The Crusaders in the Holy Land, New York, 1972.

6 BENJAMIN of TUDELO,
Early Travels in Palestine, Edited by: Thomas Wright, New York, 1968.

7 BESANT, (W.)
Jerusalem, The City of Herod and Saladin, New York, 1890.

8 BUCKINGHAM, (J.S.)
Travels in Palestine, London, 1821.

9 COHEN & LEWIS,
Population and Revenue in the towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton, 1978.

10 COMBE, SAUVAGET, WIET,
Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, Tome Quinziene, Le Caire, 1944.

11 ERACLES,
Recueil des Historiens, H. OCC.

12 FULCHER OF CHARTRES,
A History of the expedition to Jerusalem 1095-1127, Translated by Frances Rita, New York, 1973.

13 GRAY, JOHN,
A History of Jerusalem, London, 1969.

14 GOITEIN,
A Mediterranean Society, Economic Foundations, U.S.A. 1967.

15 HEYD,
Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 2 vols, Leipzig, 1886.

16 HICHOLSON, (R.L.)
The Joscelyn 111 and the fall of the Crusader States, Leiden, 1973.

17 HUME,
Medical work of the knights Hospitallers of Saint John of Jerusalem, Baltimore, 1940.

18 HUTTEROTH & KAMAL ABDULFATTAH,
Historical Geography of Palestine, Erlangen, 1977.

19 KEDAR,
Merchants in Crisis, Yele, U.S.A. 1976.

20 KELLY, (W.K.)
Syria and the Holy Land, London, 1884.

21 LOPEZ, (R.)
The Commercial revolution in the middle ages, U.S.A. 1976.

22 LAPIDUS,
Muslim Cities in the Late middle ages, U.S.A. 1976.

23 MANN, (J.)
The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 2 vols, Oxford, 1969.

24 MARCUS, (J.)
The Jew in the medieval world, Reprinted in U.S.A. 1975.

25 NOHL,
The Black death, London, 1924.

26 POLIAK,
Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London, 1939.

27 POWICKE, MAURICE,
The Christian Life in the middle ages, Oxford, 1968.

28 PRAWER,
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972.

29 RABINOWITZ, (L.)
Jewish Merchant adventurers, London, 1948.

30 REY,
Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII Siècles, Paris, 1883.

31 ROBERT IRWIN,
Iqta, and the end of the Crusader States, From the Eastern Mediterranean Lands, Edited by: Holt, England, 1977.

32 ROGER of WENDOVER,
The Crusade of Fredrick II, From Sources of Medieval History, Edited by: Edward Peters, U.S.A. 1971.

33 SAPORI (AMANDE)
The Italian Merchant in the middle ages, New York, 1970.

34 THEODORICH'S,
Description of the Holy Land, London, 1896.

35 TOMPSON, (J.)
An Economic and Social History of the middle ages, London, 1928.

36 VAN BERCHEM,
Corpus inscriptionum (Jerusalem Ville), Le Caire, 1922.

37 WILLIAM of TYRE,
A History of deads done beyond the Sea, 2 vols, New York, 1943.

38 WILLIAM, ALBERT,
The Holy City, New York, 1954.

39 WRIGHT; THOMAS,
Early travels in Palestine, New York, 1968.

40 WILLETT, (H.)
The Jew through the Centuries, New York, 1932.

41 ZIADEH, NICOLA,
Urban Life in Syria, Beirut, 1953.

42 LEVANT,
Vol. III 1971
Vol. VI 1974
Vol. VII 1975
Vol. XI 1979

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس

الفصل الرابع

النشاط السكاني والمؤسسات الاجتماعية

الفصل الخامس

الحياة العلمية في النيابة

الصفحة

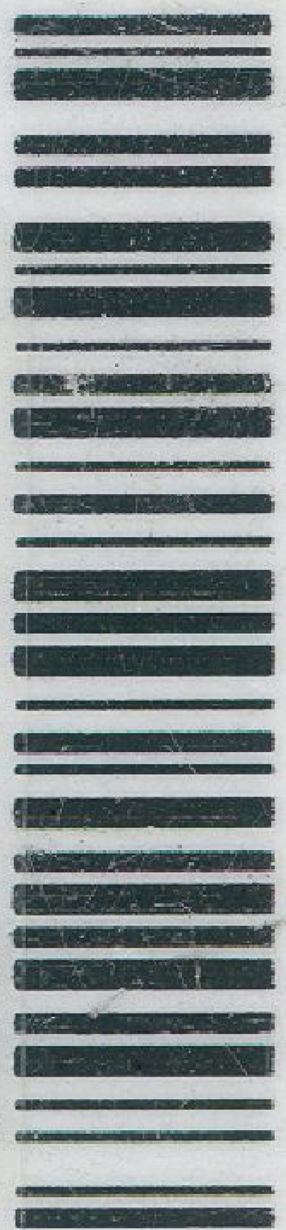
عدد الطبع
٢٠٠٠ نسخة

القدس عاصمة ثقافية للعرب

في هذا الكتاب سنقرأ كيف صنع المماليك من القدس مدينة كبرى (نيابة) كيف انشأوا فيها المدارس والمستشفيات والخانقاهات.

كيف حموها، وجعلوها تحمي نفسها وإقليمها لتستطيع الصمود أمام غزوة محتملة من الفرنجة، ثم... كيف جعلوا منها محجاً لحجاج أوربة المسيحيين/ وكيف شجعوا السياحة الدينية، وحموها

كتاب جدير بالقراءة.





٢٠٠٩

السعر (٥٠) ل.س